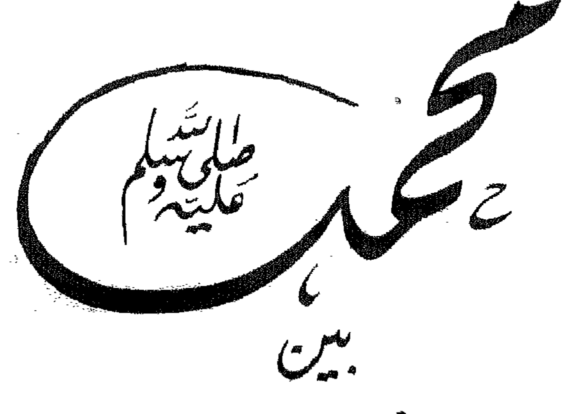
جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
مركز السيرة والسنة



محمد صلى الله عليه وسلم بين البوصيري وشعرائنا المعاصرين

تأليف
الدكتور إبراهيم عوضين

القاهرة
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
مركز السيرة والسنة

محمد صلى الله عليه وسلم بين البوصيري وشعرائنا المعاصرين

تأليف
الدكتور إبراهيم عوضين

القاهرة
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ [١٢٨ التوبة]

﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً
محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود﴾ [٢٨-٢٩ الفتح]

مقدمة

الحمد لله أنعم علينا بجعلنا من أمة محمد ﷺ ، الذى أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين ، هدانا الله به ، وشرفنا بالانتساب إليه ، ونرجو إكرامه إيانا بشفاعته لنا يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه .

أما بعد .. فلقد شرف الشعر العربى بما قدمه الشعراء فى مدح المصطفى ﷺ ، لينقعوا به ظمأ نفوسهم ، ونفوس المؤمنين فى شتى بقاع الأرض ، لما فى هذا الشعر من تعاون للمسلم على أن يستحضر صورة أحب خلق الله إليه ، وأن يتمثل هيئته فى مجلسه ، وفى حديثه ، وفى مشيته ، وفى مثابرته على إنفاذ أمر ربه ، والنهوض داعياً إلى الله الواحد الأحد ، وفى تفكيره ، وفى تدبيره ، وفى قيادته العسكرية ، وريادته السلمية .. وفى كل شئون حياته صلى الله عليه وسلم .!

فالشعراء ـ بما قدموه فى هذا الميدان ـ هم فى حقيقة أمرهم يسهمون بدور كبير فى ربط المسلم برسوله الكريم ، ليتمكن من الاقتداء والتأسى ، فيتمكن إيمانهم واستجابتهم للتوجيه القرآنى فى قوله تعالى : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموكَ فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ .

ومن هنا .. اختلف الشاعر ـ فى مدحه المصطفى ﷺ ـ عن الشاعر فى مدحه إنساناً آخر ؛ لأن المدح فى رحاب المصطفى ﷺ موظف فى مقصد آخر غير مقاصد الشعراء من مدحهم العام .

كما اختلف الشعر نفسه ؛ فشعر المديح الدائر حول سيدنا محمد ﷺ ، مختلف تمام الاختلاف عن شعر المديح الدائر حول غيره من الناس !

وقد بدا ذلك الاختلاف منذ تقدم كعب بن زهير بقصيدته اللامية لسيدنا محمد ﷺ مادحاً معتذراً ، فلقد تحول فيها بفن المديح تحولًا بارزاً ، رأى فيه الشعراء من بعده والدارسون أنهم أصبحوا ـ مع فن المديح ـ أمام فنين متميزين ، أما أحدهما ، فهو فن المديح على إطلاقه ، وأما الآخر فهو فن المديح النبوى بخصوصه ؛ وذلك لأن ما يطلق عليه (المديح النبوى) يمتاز فى مقوماته عن المديح العام ، بما يكاد يفرده عنه ، حيث يقدم فى المديح النبوى وصف النبى ﷺ كما يراه الشاعر ، وتاريخه العام والخاص ، يقيناً من الشاعر أنه صلى الله عليه وسلم مزيج من الشمائل والقيم ، والسلوك الخاص والعام .. وحيث يدفع الشاعر إلى مدحه صلى الله عليه وسلم حرصه على أن يتلمس فى كل ما يصدر عنه صلى الله عليه وسلم هديه ، وأن يبرز هذا الهدى وأثره فى عز المسلم ، ودعم الأمة الإسلامية ، وإنقاذ الإنسان ـ فى عمومه ـ من مصائبه .!

بخلاف المديح العام ، الذى يعتمد على انتقاء الشاعر بعض شمائل الممدوح وصفاته ، أو نعت الممدوح ببعض الصفات التى يرى الشاعر أنها ترضى الممدوح ، حتى لو لم تكن من شمائله .!

فالشاعر ـ فى مدح النبى ﷺ ـ لا يهتم بإرضاء ممدوحه ـ فحسب ـ ولكنه بالدرجة الأولى يهتم بأن يضع يده ويد المتلقى على تلك الشمائل والقيم والسلوكيات ، ليقدم الدواء الناجع فى إنقاذ الإنسان وتوجيهه .!

أى أن الشاعر ـ فى المديح النبوى ـ لا يمدح النبى ، لأنه يتصف بتلك الصفات ، بل يصفه بما قامت عليه ذاته من خلال وطبائع وسجايا ، وبما صدر عنه من سلوك .. ليكون المتلقى على بينة بما يدعم مسيرته ، ويسدد خطاه فى حياته .!

ولا ريب فى أن الفارق بين الوجهتين جلى شاسع ، فالصفة فى المدح العام عارضة طارئة ، أو منحولة مجتلبة ، أما الصفة فى مدحه صلى الله عليه وسلم ، فهى طبعية فطرية أصيلة ، أو مكتسبة ثابتة ملازمة فى الأحوال المختلفة .!

★★★

ومن أشهر ما قدمه الشعراء فى مديح المصطفى ﷺ مطولة البوصيرى الميمية التى سميت (البردة)؛ فقد كان لها من القبول والذيوع ما جعل الشعراء ـ منذ قدمها البوصيرى إلى يومنا هذا ـ يحرصون على محاذاته فيها بشتى ألوان المحاذاة ، من تشطير ، وتربيع ، وتخميس ، ومعارضة ..!

والشعراء ـ فى محاذاتهم البوصيرى ـ لم يسلسوا له قيادهم كاملًا ؛ فقد كان لكل منهم ـ مع رسول الله ﷺ ـ وجهة ، فرضتها عليهم ظروفهم الخاصة ، ودفعهم إليها منطلقهم الخاص فى معايشته صلى الله عليه وسلم ، وأغراهم بها ظلالهم الخاصة التى لازمتهم فى أثناء مصاحبته الوجدانية ، على ضوء المسار البوصيرى فى قالبه الفنى .!

ومن هذا المنطلق .. رأيت أن أقدم من أبرز اللوحات العصرية ـ مع بردة البوصيرى ـ ست قصائد حديثة حاذى فيها الشعراء الستة المعاصرون ، إمام المديح النبوى (البوصيرى)، كان لكل شاعر منهم لونه الخاص ، ومذاقه المتميز ، على الرغم من توحد الممدوح ، واتفاق القالب الفنى .!

وفى سبيلى إلى ذلك رأيت أن أشفع كل قصيدة بتعليق موجز ، يلفت النظر إلى محتواها ، وينبه إلى مسار الشاعر فيها ؛ حتى تكون قريبة من القارىء ، أيا كان مستواه الثقافى والفكرى .!

وإنى لأرجو أن أكون بذلك قد جلوت صورة المصطفى ﷺ فى آفاق هؤلاء الشعراء السبعة ومرائيهم ـ على اختلاف بيئاتهم ومشاربهم ـ وأن أكون ـ فى الوقت نفسه ـ قد تمكنت من فتح مجال الحوار والمناقشة ، والبحث والتأمل فى ذلك المنهج الفنى ، من مناهج التعبير ؛ توطيداً للعلاقة بين روحانية البحث وفنيته . وأن أكون قد يسرت الوقوف على تلك القصائد ، بعد أن هتكت عنها ـ بذلك ـ ستر الغفلة والنسيان . والله من وراء القصد ، عليه التوكل ، ومنه التوفيق .

رمضان ١٤١٤هـ
فبراير ١٩٩٤م

دكتور إبراهيم عوضين



أولا

البوصيرى

فى بردته[1]

(١) هو شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبدالله بن صنهاج .. كانت أمه من (أبوصير) من أعمال بنى سويف ، وأبوه من (دلاص) ، فركبت له نسبة منها ، وقيل : (الدلاصيرى) ، لكنه أشتهر بالبوصيرى ، ولد سنة ٦٠٨هـ/ ١٢١٢م ، وتوفى سنة ٦٩٦/ ١٢٩٦ بالإسكندرية ، وله بها قبر مشهور ، يتصل به مسجد كبير . وكان شاعرا حسن الديباجة ، إلى جانب معاناته صناعة الكتابة ، وكان إلى هذا وذاك يتولى أمر الشرقية ببلبيس ، فاطلع على سوءات العمال والموظفين الإداريين ، وسجل ما كشفه من ذلك فى شعره ، على نحو ما نرى فى قصيدته المطولة النونية التى يقول فى مطلعها :

نقــدت طوائــف المستخدمينـــا   فلــم أر فيهم رجـــلا أمينـــا
فقــد عاشــرتهم ولبثــت فيهـــم   مع التجــريب من عمــرى سنينــا

انظر : فوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبى جـ ٣ ص ٣٦٢ بتحقيق إحسان عباس ، وخطط على مبارك جـ ٧ ص ٧٠ ، والوافى بالوفيات جـ ٣ ص ١٠٥ ، والأعلام للزركلى جـ ٦ ص ١٣٩

بوردة البوصيرى

للبوصيرى فى مديح النبى ﷺ قصائد عديدة ، منها الهمزية التى يبدؤها بقوله :

كيف ترق رقيك الأنبياء

وقصيدته التى عارض فيها لامية كعب بن زهير ، وفى مطلعها يقول :

إلى متـــى أنت باللـــذات مشغـــول وأنت عن كل ما قدمتـــــه مسؤول

وكان أشهر مدائحه النبوية قصيدته الميمية المعروفة بالبردة ، وترجع شهرتها إلى طولها ، وما تضمنته من معانٍ وأفكار قدم فيها صورة مقربة للمصطفى ﷺ .. وإلى ما ذكره البوصيرى فى سبب نظمها .

فقد قال : كنت قد نظمت قصائد فى مدح رسول الله ﷺ ، منها ما كان اقترحه على الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير ، ثم اتفق أن أصابنى فالج أبطل نصفى ، ففكرت فى عمل قصيدتى هذه (البردة) فعملتها ، واستشفعت به إلى الله تعالى فى أن يعافينى ، وكررت إنشادها ، وبكيت ، ودعوت ، وتوسلت ، ونمت فرأيت النبى ﷺ فمسح على وجهى بيده المباركة ، وألقى على بردة فانتبهت ، ووجدت فىَّ نهضة ، فقمت وخرجت من بيتى ، ولم أكن أعلمت بذلك أحداً ، فلقينى بعض الفقراء ، فقال لى : أريد أن تعطينى القصيدة التى مدحت بها رسول الله ﷺ ، فقلت : أيها ؟ فقال : التى أنشأتها فى مرضك ، وذكر أولها ، وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهى تنشد بين يدى رسول الله ﷺ ، فرأيت رسول الله ﷺ يتمايل ، وأعجبته ، وألقى على من أنشدها بردة .

قال البوصيرى : فأعطيته إياها ، وذكر الفقير ذلك ، وشاع المنام .. إلى أن اتصل بالصاحب بهاء الدين بن حنا ، فبعث إلىَّ ، وأخذها ، وحلف أن لا يسمعها إلا قائماً حافياً ، مكشوف الرأس ، وكان يحب سماعها هو وأهل بيته .

ثم إنه بعد ذلك أدرك سعد الدين الفارقى ، الموقّع ، رمدٌ أشرف منه على العمى ، فرأى فى المنام قائلًا يقول له : اذهب إلى الصاحب ، وخذ البردة واجعلها على عينيك ، فتعافى بإذن الله عز وجل ، فأتى إلى الصاحب وذكر منامه ، فقال : ما أعرف عندى من أثر النبى ﷺ بردة ؛ ثم فكر ساعة ، وقال : لعل المراد قصيدة البردة التى للبوصيرى . يا ياقوت افتح الصندوق الذى فيه الآثار ، وأخرج القصيدة ، وأت بها ، فأتى بها ، فأخذها سعد الدين ووضعها على عينيه فعوفى[1] .

وقد نقل الدكتور زكى مبارك حديث البوصيرى عن البردة ، ثم علق عليه بقوله[2] :

« وفى هذه القطعة دلالة على عقلية البوصيرى ، فهو رجل فيه طيبة وسذاجة ، وكأكثر الصوفية ، فليس من المعقول أن يبرأ مريض من مرضه لآية يتلوها ، أو قصيدة ينشدها ، كما يرى البوصيرى بقصيدته ، ولو مرض مفتى الديار المصرية ــ لا سمح الله ــ ما استغنى بالبردة عن الطبيب » .

وصدور مثل هذا الكلام من مثل الدكتور ليس مفاجأة ولا مثيراً للدهشة ؛ لأن الدكتور كان يعيش تحت تأثير أفيون العقل والعقليين ، الذين هزتهم الكشوف العلمية الحديثة ، ورأوا أن دور العقل فيها ، يؤهله للتأليه والخضوع له فى كل ما يعن ، والرجوع إليه فى كل أمر ، فما قبله سلموا به ، وما رفضه رفضوه .. وغفلوا عن أن الإنسان ليس بالعقل وحده يكشف ، ولا به وحده يعيش ، ولكنه وسيلة من وسائل منحها الله الخالق الإنسان كى يستعين بها على أداء وظيفة الخلافة فى الأرض .

ولو أن الدكتور ومن على شاكلته رجعوا فى ذلك إلى كبار الأطباء المختصين لسمعوا منهم ــ فى مجال العلاج والتطبيب ــ ما لا يخطر على البال من معجزات تلفت الأنظار إلى أن العقل ليس كل شىء .

بل لو أنهم رجعوا بأنفسهم بضع عشرات من السنين ، وسمعوا من يقول لهم إن هناك جهازاً مصنوعاً ينقل صوت المتكلم وصورته من أقصى الأرض إلى أقصاها ، لسارعوا بإنكار ذلك ، متعللين بالعلة نفسها : « ليس من المعقول حدوث مثل ذلك » .

وأما ما ساقه على سبيل التهكم والسخرية ، من أن مفتى الديار لا يستطيع أن يستغنى بالبردة عن الطبيب ؛ فهو إن دل على شىء . فإنما يدل على سذاجة الدكتور نفسه ــ لا على سذاجة البوصيرى ــ وعلى مدى خضوعه لسلطان المادة الذى يعمى عن الحقيقة .

(١) فوات الوفيات جـ ٣ ص ٣٦٨ ، ص ٣٦٩ .

(٢) أحمد شوقى للدكتور زكى مبارك ص ١٥٩ طبع الهيئة المصرية العامة سنة ١٩٦٧ .

فما قال أحد باستغناء مريض بالبردة عن الطبيب ، ولا قال أحد بأن مفتي الديار المصرية أقرب الناس إلى الله بحكم وظيفته ؛ فقد تكون وظيفته تلك سبباً فى بعده عن الله ، كما قد تكون سبباً فى قربه من الله .!

فإذا كان عقل الدكتور يقرر أن القلم فى يده يفعل ما لا يفعله القلم نفسه فى يد رجل أمى ، فكيف يغيب عنه أن الدعاء من فم عمر رضى الله عنه يفعل ما لا يفعله الدعاء من فم زكى مبارك ؟!

وليت الدكتور وقف عند ذلك الحد فى تهكمه من البوصيرى .!

لقد استسلم الدكتور لنزوات عقله فأنحى باللوم على البوصيرى لذكره كلمة (ﷺ) كلما ذكر اسم الرسول ﷺ ، حتى كررها فى الفقرة التى نقلها عنه الدكتور خمس مرات . ورأى أن هذا التكرار من وساوس المتأخرين[1] ، ولا أدرى بأى عقل سوغ تلك الرؤية ، وكان يكفيه أن يتذكر قول الحكيم العليم : « إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » . حتى يعرف أن المؤمنين مأمورون بذلك على إطلاقه ، وليس فى موقف دون موقف ، ولا فى حالة دون حالة .!

ولو أن الدكتور وأمثاله استغلوا عقولهم فى النظر الشامل .. إذن لرأوا ما بين طيات الماضى من وقائع تكشف عن أثر الغرور فى الإنسان ، وكيف أوصله إلى البطر والطغيان ، فلم يفق إلا بعد فوات الأوان ؟!

« **إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى** » [٦ ، ٧ العلق]

« **هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ، ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون** » [٢٢ ، ٢٣ يونس]

وبعد فإلى مصاحبة البوصيرى فى بردته !

لنجده أقام قصيدته على عشر أفكار ، ضمنها طرفا من خصائصه ومناقبه ﷺ ، تلك التى بدت فى سلوكه وطبائعه منذ ولادته ، حتى وفاته ..

ونجده ـ فى أثناء ذلك ـ تناول بالعرض بعض معجزاته ﷺ التى كان أهمها القرآن الكريم ، ثم ختمها مبتهلا متوسلا به ﷺ أن يكون شفيعه لينال رحمة ربه ومغفرته .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٦٠

وفى سبيله إلى ذلك بدأ بمقدمة غزلية ، يمهد بها لإعلان حبه الصافى ، الذى لا يجد فيه ما يلام عليه ، فهو يحب إنسانا يعتز بحبه إياه :

أمِنْ تذكر جيران بذى سلم مزجتُ دمعا جرى من مقلة بدم؟![1]
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق فى الظلماء من إضم؟![2]
فما لعينيك إن قلتَ اكففا هَمَتا وما لقلبك إن قلت استفق يهم؟؟![3]
أيحسب الصب أن الحب منكتم ما بين منسجم منه ، ومُضْطرِمِ؟!
لولا الهوى لم تُرق دمعاً على طلل ولا أرقتَ لذكر البان والعلم[4]
فكيف تنكر حبا بعدما شهدت به عليك عدول الدمع والسَّقَم؟!
وأثبت الوجدُ خطَّىْ عَبْرةٍ وضنى مثلَ البَهَار على خديك والعَنَم[5]
نعم سرى طيفُ من أهوى فأرقنى والحب يعترض اللذات بالألم
يا لائمى فى الهوى العذرى معذرة منى إليك ، ولو أنصفت لم تلم
عَدَتك حالىَ ، لا سرِّى بمُسْتتر عن الوشاة ، ولا دائى بمنحسم

النفس البشرية مأتى الشيطان :

ثم ينتقل – فى براعة – من الحديث عن الحب الصافى إلى التحذير من هوى النفس ، وذلك حين وقف يعلن عن إصراره على التعذب فى الحب ، وعدم إصغائه لنصح النصيح ، فيقول :

محضْتَنى النصحَ لكن لستُ أسمعه إن المحب عن العذال فى صمم[6]
إنى اتهمت نصيح الشيب فى عذل والشيب أبعد فى نصح عن التهم[7]
فإنَّ أمّارتى بالسُّوء ما اتعظت من جهلها بنذير الشَّيْب والهَرَم

وبذلك البيت الثالث ينتقل الشاعر إلى الحديث عن النفس ، فى وقفة متأملة ، تبدو من خلالها وصاياه الحكيمة ، ونظراته العميقة ، وغوصه فى أعماق النفس البشرية ، ومعرفته باتجهاتها وإغراءاتها ونزواتها ، ومدى سطوتها على الإنسان ، ومدى ضعف الإنسان أمام سلطانها إذا ما استسلم لها ، ومدى قوته إذا هو أدرك أسباب تلك القوة ، واستعان بها فى السيطرة على تلك النفس ، وكبح جماحها ، من غير أن يصطدم بحاجاتها الفطرية .

---

(١) ذو سلم : مكان بين مكة والمدينة .
(٢) كاظمة : موضع ، وإضم مثل عنب : الوادى الذى فيه المدينة النبوية .
(٣) همت العين : سال دمعها ، وهام القلب يهيم : أصابه جنون العشق .
(٤) الطلل : آثار الديار الباقية ، والبان : نوع من الشجر ، والعلم : جبل .
(٥) البهار : نبت طيب الريح ، والعنم : شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوب .
(٦) محضتنى : أخلصت النصح .
(٧) نصيح الشيب : خالصه من الشوائب . والعذل – بفتحتين – : اللوم .

كما يبدو ـ من خلال تلك الأبيات ـ إدراك الشاعر قوة العلاقة بين النفس الهابطة وبين الشيطان ، حيث يتوج نصائحه بالحض على مخالفتها ، مهما كانت دعواتها ، حتى لو تزينت بالنصح والحكمة ، لأن وراء ذلك شيطاناً رجيماً يجيد التخفى وراء النفس البشرية ، ليبلغ من الإنسان ما تحدى به الخالق جل وعلا ، حين قال : ﴿ **لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾.

ففى تصوير تلك النفس وخطرها قال :

ولا أعـدَّتْ من الفعـل الجميـل قِرى — ضـيـفٍ ألـمَّ برأسـى غيـرَ مُحتَشِـم
لو كنـتُ أعلـم أنـى ما أوقـره — كتمت سـرا بـدا لى منـه بالكـتم[1]
من لى بـرد جماح من غوايتها — كما يُرد جِماح الخيـل باللجُـم؟!
فلا تـرُم بالمعاصـى كسـر شـهوتها — إن الطعـام يقـوى شـهـوة النهـم
والنفس كالطفل إن تهمله شـب على — حـب الرضـاع ، وإن تفطمـه ينفطـم
فاصرف هواها ، وحاذر أن توليه — إن الهـوى ما تولَّـى يُصْـم أو يَصِـم[2]
وراعهـا وهـى فى الأعمـال سائمة — وإن هى اسْتحلت المرعى فلا تُسِـم[3]
كم حسـنت لـذة للمـرء قاتلـة — من حيث لم يـدر أن السم فى الدسـم
واخش الدسـائس من جـوع ومن شـبع — فـرب مخمصـة شـر من التخـم[4]
واستفرغ الدمع من عيـن قد امتـلأت — من المحارم ، والـزم حِمْيـة النـدم[5]
وخالـف النفس والشـيطان واعصِهما — وإن هما محَّضـاك النصـح فاتهـم
ولا تطع منهما خصـماً ولا حكَمـاً — فأنت تعـرف كيد الخصـم والحكـم
أسـتغفر الله من قـول بلا عمـل — لقـد نَسَـبتُ به نسـلًا لذى عُقُـم

مع الشمائل النبوية :

ثم يتأهب البوصيرى لتقديم الفكرة الثالثة فى رشاقة مدهشة ، تعلن عن تمكن الشاعر ، ووضوح الرؤية ودقة الهندسة الفنية .. حيث يأخذ فى لوم نفسه على أمره غيره بما لم يأتمر هو به ، حتى إنه لا يأتى من العبادة إلا الفرائض . وبذلك يرى أنه أهون شأناً من أن يأمر غيره بفعل الخير ، وأنه ـ فى ضعفه ذلك ـ يظلم سنة رسول الله ﷺ ؛ متخلصاً بذلك إلى الحديث عن الرسول ﷺ ، إذ يقول :

---

(١) الكم ـ بفتحتين ـ : نبت يخلط بالحناء لتثبيت خضاب الشعر .
(٢) يصم ـ بضم الياء وسكون الصاد ـ : يقتل ، وبفتح الياء وكسر الصاد : يصيب .
(٣) السوم : الرعى .
(٤) المخمصة : المجاعة ، والتخمة : كثرة الطعام فى المعدة لدرجة الفساد .
(٥) الحمية ـ بكسر فسكون ـ : التخلص مما يضر .

أمرتُك الخيرَ ، لكن ما ائتمرتُ به ... وما استقمتُ . فما قولى لك استقم ؟!
ولا تزودتُ قبل الموت نافلة ... ولم أصلِّ سوى فرض ولم أصم
ظلمتُ سنة من أحيا الظلام إلى ... أن اشتكتْ قدماه الضُّرَّ من ورم

فهو بوقفته تلك مع نفسه يتخلص من أدران الغرور ، ويتجرد من أسباب الزهو ، تهيؤاً للإقدام على الحديث عن رسول الله ﷺ ؛ إذ يرى أنه لا يليق به الحديث عن رسول الله ﷺ إلا وهو طاهر البدن ، خالص النفس من أسباب الانحراف .

ومن حديثه عن قيام الرسول ﷺ الليل مصلياً حتى تورمت قدماه ، ولحق بها الضر ، فجأرت بالشكوى .. من هذا الحديث يأخذ فى استعراض بعض شمائله ﷺ وسلوكياته ، مبيناً فى ذلك تحمله الجوع فى سبيل الدعوة ، وترفعه على مغريات الحياة المادية .. على الرغم من حاجته الشديدة إلى شىء منها ، معلناً أنه أرفع من أن يخضع لتلك الحاجات المادية ، وأنه أقوى من أن يضعف أمام إغرائها .. وأنه لذلك ولغيره كان سيد الكونين ، وفاق النبيين ، واصطفاه البارى جل وعلا لرسالته الخاتمة ، فجاء قوله :

وشد من سغب أحشاءه وطوى ... تحت الحجارة كشحا مُترف الأدم[1]
وراودته الجبال الشم من ذهَب ... عن نفسه ، فأراها أيمَّا شمم
وأكدتْ زُهده فيها ضرورتُه ... إن الضرورة لاتعدو على العِصَم[2]
وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورةُ مَنْ ... لولاه لم تُخْرج الدنيا من العدم
محمدٌ سيدُ الكونين والثقليـ ... ـن والفريقين من عُرْبٍ ومن عجم[3]
نبينا الآمر الناهى ، فلا أحدٌ ... أبرَّ فى قول (لا) منه ، ولا (نَعَم)
هو الحبيبُ الذى ترجى شفاعته ... لكل هولٍ من الأهوال مُقتَحِم[4]
دعا إلى الله ، فالمستمسكون به ... مستمسكون بحبل غير منفصم
فاق النبيين فى خَلْق وفى خُلُق ... ولم يدانوه فى علم ولا كرم
وكلهم من رسول الله ملتمس ... غَرْفا من البحر، أو رشفا من الديَم[5]
وواقِفون لديه عند حدهِم ... من نقطة العلم، أو من شكلةِ الحكم
فهْو الذى تم معناه وصورتُه ... ثم اصطفاه حبيبًا بارىءُ النسم[6]

(١) السغب ـ بفتح الغين ـ : الجوع ، والكشح ـ بفتح الكاف وسكون الشين ـ من الإنسان : ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف ، وطوى عنه كشحه : تركه وأعرض عنه .

(٢) الضرورة : الحاجة . والعصم ـ بكسر العين ـ : جمع عصمة : ملكة إلهية تمنع من فعل المعصية والميل إليها ، مع القدرة عليها .

(٣) الثقلان : الجن والإنس .

(٤) اقتحم الأمر العظيم : رمى بنفسه فيه بغير روية والهول المقتحم ـ بكسر الحاء ـ الهول الشديد الذى يفاجئ الإنسان ولا يقدر على مواجهته ، والمراد : هول يوم القيامة .

(٥) الديم ـ بكسر ففتح ـ جمع ديمة ؛ المطر الذى يدوم وليس فيه رعد ولا برق .

(٦) بارئ النسم : خالق النفوس .

وفى ثنايا تعداد مناقبه وصفاته ، يتنبه الشاعر إلى ضرورة الاحتراس والحرص من أن يجرفه الشيطان إلى الزيغ فى تقدير رسول الله ﷺ ، فيقعَ فيما وقع فيه النصارى ، حين أوصلهم تعظيم نبيهم إلى الزيغ عن الجادة ، فجعلوه إلهًا . وفى ذلك يقول :

منــزَّه عن شــريكٍ فى محاســنــه	**فجوهــر الحســن فيــه غيــرُ منقســم**
دَعْ ما ادعتــه النصــارى فى نبيهــم	**واحــكم بما شئتَ مدحًا فيه واحتكم**
وانسُــبْ إلى ذاتــه ما شــئتَ من شرف	**وانسُــبْ إلى قدره ما شئت من عِظــم**

ثم يستأنف الشاعر مسيرته فى تعداد مناقبه ﷺ ، وذكر ما أثر من صفاته ونعوته التى كانت فيه سجايا فطرية ، تقوم عليها ذاته ، وأخلاقه فى سلوكياته ، وألفاظه ، وتفكيره ، وتصوراته ، حتى كان أدق تعبير عنها هو قول الحق تبارك وتعالى[1] : « **وإنك لعلى خلق عظيم** » ، مما ينبىء بأنه ﷺ متمكن من الخلق ــ على إطلاقه ــ وأنه فى حياته كلها يقوم على هذا الخلق .

ولذا رأى البوصيرى أن فضل رسول الله ﷺ شامل غير محدود ، تلمسه فى كل نبضة ، وتدركه فى كل لفظة ، حتى حارت العقول فى متابعة فضائله ، واضطربت الأفكار فى تفسير حقائقه :

فإنَّ فضــل رســـول الله ليس لــه	**حــدٌ فيُعْــرِبَ عنــه ناطقٌ بفــم[2]**
لو ناسَبَتْ قدرَه آياتُــه عِظمــا	**أحيا اسمُه ــ حين يُدعىَ دارسَ الرِّمم[3]**
لم يمتحنــا بمــا تعيــا العقــول بــه	**حرصــا علينا ، فلم نَرْتب ، ولم نهم[4]**
أعيــا الورى فهمُ معناه ؛ فليس يُرى	**للقرب والبعد منه غيرُ مُنفحِــم[5]**
كالشمس تظهر للعينين ــ من بُعُدٍ ــ	**صــغيرةً ، وتُكِل الطــرف من أمَم[6]**
وكيــف يُدرك فى الدنيــا حقيقتــه	**قومٌ نيــامٌ تسلَّــوْا عنــه بالحُلــم ؟![7]**
فمبلــغ العلــم فيــه أنــه بشــرٌ	**وأنــه خيــر خــلق الله كلهــم**

ويربط البوصيرى بين المصطفى عليه الصلاة والسلام فى تميزه هذا ، وبين غيره من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ، فيقرر أن معجزات الرسل السابقين منبثقة من نوره ﷺ ، وأنه شمس ورسل الله حولها الكواكب التى تعكس نورها للناس فيبدد الظلام .

---

(١) القلم ٤

(٢) أعرب الرجل عن الشئ : أبانه .

(٣) الرمم الدارسة : العظام البالية . يقول : لو أن آياته وأماراته التى تدل على رفعته كانت تماثل عظم قدره ، إذن لكان من هذه الآيات إحياء الموتى ، بأن يتوسل بك يا محمد إلى الله فى إحياء الميت ، فيحيه الله .

(٤) لم نرتب : لم نشك ، ولم نهم : لم نغلط ولم نسه .

(٥) فحم فلان ــ بفتحتين ــ : سكت وعجز عن الجواب بسبب عيه أو لزومه الحجة .

(٦) البعد ــ بضمتين ــ البعيد ، أكله ــ بتضعيف اللام : أضعفه ، الأمم : القرب .

(٧) يعلل الشاعر عدم إدراك بعض الناس حقيقته ﷺ بانصرافهم عن الطريق السوى ، واعتمادهم على الخرافات والأوهام .

وكل آى أتى الرسلُ الكرام بها ... فإنما اتصلت من نوره بهم
فإنه شمس فضل همْ كواكبها ... يظهرن أنوارها للناس فى الظلم

ثم يأخذ فى ذكر بعض شمائله المادية ، وأفضاله الجسمية ، التى زانتها شمائله الروحية ، وأفضاله الخلقية ، متوسلا فى ذلك بشتي الأساليب البيانية ، فى انطلاقة صادقة خالصة :

أكرم بخَلْق نبيٍّ زانه خُلُق ... بالحسن مشتملٍ ، بالبشر مُتَّسِم
كالزهر فى ترف ، والبدر فى شرف ... والبحر فى كرم ، والدهر فى همم[1]
كأنه ـ وهو فرد من جلالته ـ ... فى عسكر حين تلقاه ، وفى حشم[2]
كأنما اللؤلؤ المكنون فى صَدَف ... من مَعْدِنَىْ منطق منه ومبتَسِم
لا طيبَ يعدل تُربا ضم أعظمهُ ... طوبى لمنتشق منه وملتثم

فلقد ألقت عليه تلك الشمائل ـ فى عمومها ـ وتلك المكارم فى أصالتها .. من المهابة والجلال ما جعله يبدو ـ فى انفراده ـ كأنه قائد فارس تحوطه الجنود ، ويحف به الحشم والخدم من كل جانب ؛ فإذا ما نطق أو ابتسم تناثر اللؤلؤ الخالص من أصدافه التى تكنه وتحفظه ... ولقد بدت تلك الشمائل والمكارم ـ فى أعظمه بعد دفنه ـ طيبا يفوق ما عرفه الناس من ألوان الطيب ، حتى غبط عليه كل من يستنشق رائحته أو يلثم تربه !

مولده وملابسه من أحداث :

ومن هنا يعود البوصيرى إلى تذكر مولده ، وما كان له من آثار وأمارات ، دلت على مكانته ، ونبهت إلى ما يعنيه هذا الميلاد لأهل الأرض جميعاً ؛ فلقد كان مولده نذيراً بنهاية الطغيان الفارسى ، حيث زلزل إيوان كسرى ، إيماء إلى تفريق شمله وشمل من حوله ، وخمدت نار الفرس التى ظلت مشتعلة ألف عام ،تنبيها إلى خمود سلطانهم ، وغاصت بحيرة ساوى ، إشارة إلى تقلص ملكهم ، وزواله بعد هذا الانتشار والذيوع :

أبان مولدُه عن طيب عُنصره ... يا طيب مبتدأ منه ومختتم
يومٌ تفرَّسَ فيه الفرس أنَّهمُ ... قد أنذروا بحلول البؤس والنِّقم[3]
وبات إيوان كسرى وهو منصدع ... كشمل أصحاب كسرى ، غير ملتئم[4]
والنارُ خامدة الأنفاس من أسف ... عليه ، والنهر ساهى العين من سَدَم[5]

---

(١) ترف النبات : كثر ماؤه ونضر . وشرف المكان : ارتفع .

(٢) حشم الرجل : خاصته الذين يغضبون لغضبه من أهل أوجيرة أو عبيد .

(٣) تفرس فى الشىء : نظر فيه وتثبت .

(٤) الإيوان : مجلس كبير على هيئة صفة واسعة ، لها سقف محمول من الأمام على عقد ، يجلس فيها كبار القوم . وانصداع الإيوان : إنشقاقه .

(٥) النار : هى نار الفرس التى كانوا يعبدونها ، انطفأت حين ولد المصطفى بعد أن ظلت مشتعلة ألف عام ، والنهر : نهر الفرات ، ساهى العين : ساكن عن الجريان ، من سدم : من حزن وهم .

وساء ساوةَ أن غاضت بحيرتُهـــــا　　　ورُدَّ واردهــا بالغيـظ حين ظمــى[1]
كأن بالنـــار ما بالماء من بلـــــل　　　حُزنا ، وبالماء ما بالنـار من ضَـرَم[2]

من هنا سجل البوصيرى بعض أمارات الفرحة التى عمت الكون لمقدم هذا الوليد الكريم ، فرأى تلك الفرحة بادية على الجن فى هتافهم المرحب ، ورآها من خلال ما سطع فى تلك اللحظة من أنوار أضاءت ما بين المشرق والمغرب ، إيماء إلى ما يعنيه مولده من تبديد للظلام ، ونشر لنور الفكر والعلم والعقيدة ، وإظهار للحق ونصر له ، ودحض للباطل وخلاص منه .

والجـن تهتـف ، والأنـوار سـاطعة　　　والحـق يظهـر من معنـى ومن كلـم

ومع توافر أسباب الظهور ، فإن الكثرة الكاثرة لم تلتفت إلى شىء من تلك الأمارات ، حتى كأنهم أصيبوا بالعمى ، فلم يروها على وضوحها ، أو أصيبوا بالصمم ، فلم يسمعوا شيئا من هتاف الفرحة التى تردد صداها فى كل مكان ، ولم يستجيبوا لما ردده كهانهم من أخبار تنبىء بأن دينهم المعوج لم يعد له وجود ، ولم يلتفتوا إلى ما كان من ظواهر كونية طارئة :

عَمُـوا وصـمُّوا ، فإعلان البشـائر لم　　　تُسْـمع ، وبارقـة الإنـذار لم تُشَـم[3]
من بعـد ما أخبـر الأقـوامَ كاهنُهــم　　　بـأن دينَهــم المعــوجَّ لم يَقُـــم
وبعـد ما عاينوا فى الأفق من شـــهب　　　منقضَّــةٍ وفق ما فى الأرض من صـنم

لقد كان مولده ﷺ بداية عهد جديد ، أوقفت فيه الشياطين عند حدودها ، ونالهم بمقدمه هزيمة لم تخطر لهم ببال ، فأصبحوا عاجزين عن اختراق الفضاء ، تسمعا للغيب ، ولم يعد لهم على الإنس ما كان لهم من سلطان :

حتى غـدا عن طـريق الوحى منهـزم　　　من الشـياطين يقفـو إثـر منهـــزم
كأنهـم ـ هربـا ـ أبطـالُ أبرهـــة　　　أو عســكر بالحصـى من راحتيـه رُمى
نبـذًا بـه بعـد تسـبيح ببطنهمــا　　　نبــذ المسبِّح من أحشاء ملتقِــم[4]

من المعجزات التى واكبت مولده صلى الله عليه وسلم :

ومن هنا .. أخذ فى ذكر أطراف من معجزاته ﷺ ، التى واكبت مولده ، لفتا لأنظار الناس إليه ، وتمهيدا لبعثته .. كى يخلص من ذلك إلى الحديث عن المعجزة الكبرى ـ وهى القرآن الكريم ـ حديثا مستفيضا ، فقال :

فجـاءت لدعوتـه الأشـجار سـاجدة　　　تمشــى إليـه على سـاق بلا قـــدم

---

(١) ساوة : مدينة من مدن الفرس كانت تضم بحيرة مقدسة عندهم . وغاضت البحيرة : جف ماؤها وذهب ، ووارد الماء : طالبه .

(٢) الضرم : شدة الحر ، أو شدة الاتقاد والاشتعال .

(٣) شام السحاب : نظر إليه يتحقق أين يكون مطره .

(٤) الملتقم : الحوت الذى التقم يونس عليه السلام ، والمسبح : هو يونس عليه السلام .

كأنما سطَّرت سطرا لما كَتبت ... فروعُها من بديع الخط باللَّقَم[١]

مثلَ الغمامة أنىَّ سار سائرة ... تقيه حر وطيس للهجير حمى[٢]

أقسمت بالقمر المنشق إنَّ له ... من قلبه نسبة مبرورة القسم[٣]

وما حوى الغار من خير ، ومن كرم ... وكل طرف من الكفار عنه عمى

فالصدق فى الغار ، والصديق ، لم يرما ... وهم يقولون ما بالغار من أرِم[٤]

ظنوا الحمام ، وظنوا العنكبوت على ... خير البرية لم تنسج ، ولم تحم

وقاية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع ، وعن عال من الأُطم[٥]

ما سامنى الدهر ضيما ، واستجرت به ... إلا ونلت جوارا منه لم يضم[٦]

ولا التمست غنى الدارين من يده ... إلا استلمت الندى من خير مُستلَم[٧]

لا تنكر الوحيَ من رؤياه ، إن له ... قلبا ، إذا نامت العينان لم ينم[٨]

وذاك حين بلوغ من نبوته ... فليس ينكر فيه حال محتلم

تبارك الله ما وحىٌّ بمكتسَب ... ولا نبىٌّ على غيب بمتهم[٩]

كم أبرأت وصِبا باللمس راحتُه ... وأطلقت أرباً من ربقة اللَّمم[١٠]

وأحيت السنةَ الشهباءَ دعوتُه ... حتى حكت غُرةً فى الأعصُر الدهُم[١١]

بعارض جادَ ، أو خِلْت البطاحَ بها ... سَيْبٌ من اليم ، أو سيلٌ من العَرِم[١٢]

وقد ذكر البوصيرى تلك الطائفة من معجزاته ﷺ فى براعة فنية رائعة ، حيث قدمها ممزوجة بالحياة ، مقررا أنها واقع ، فالأشجار جاءت مقرة بدعوته ، معلنة ـ بما خطته أغصانها ـ ترحيبها بالداعى والدعوة ، والغمامة لازمته ﷺ فى تنقلاته ، لتقيه شدائد الحر ، وتجاوب القمر مع مبعثه فلم يتمالك نفسه من الاستجابة الخالصة ، وقام الغار ـ حين حل فيه مع

---

(١) اللقم ـ بالتحريك ـ : الطريق الواضح .

(٢) الوطيس : حفيرة يختبز فيها ، والمعركة ، والهجير : نصف النهار فى القيظ خاصة .

(٣) القسم المبرور : الصادق .

(٤) رام ، يريم : برح ، لم يرما : لم يبرحا ، أرمت الأرض ـ بفتح فكسر ـ : لم تنبت شيئاً ، والمقصود هنا : الأثر ، وأراد بالصدق رسول الله ﷺ ، وبالصديق : أبا بكر رضى الله عنه .

(٥) الأطم ـ بضمتين ـ : الحصن ، والبيت المرتفع .

(٦) سامه ذلا : أولاه إياه وأراده عليه ، الضيم : الذل والظلم .

(٧) الداران : الدنيا والآخرة .

(٨) يقول : إن محمدا له قلب لا ينام إذا نامت عيناه ، فلا يصح لأحد يعرف ذلك أن ينكر رؤياه الوحى فى منامه .

(٩) يشير إلى ما يدعيه بعض الناس من أن النبوة مكتسبة ، مقرراً أن النبوة وحى من الله تعالى واصطفاء .

(١٠) الوصب ـ بالتحريك ـ : التعب ، وبكسر الصاد : المريض ، والأرب ـ بكسر الراء ـ : العاقل ، واللمم : الصغير من الذنوب .

(١١) السنة الشهباء : السنة ذات القحط والجدب ، الغرة من كل شىء : أوله وأكرمه ، والدهم ـ جمع أدهم ـ : الأسود ، يريد : أن دعوة محمد ﷺ حولت الجدب رخاء ، وجعلت الأيادى السود بيضاء .

(١٢) العارض : ما اعترض فى الأفق من سحاب ، والسيب : مجرى الماء ، العرم ـ بفتح فكسر ـ : السيل الجارف .

الصديق ـ بدوره على خير وجه ، فكانت تلك الظواهر الكونية معزوفة كونية ترحب بالوليد الكريم ، وتؤيده فى الوقت نفسه ، وتؤدى وظيفة الحياطة له والحفظ، استجابة لأمر الله إياها ، ثم عرج على ما تحقق بمقدمه ﷺ من خير ، فذكر بعض هذه الأحداث ، ليخلص من ذلك إلى الحديث عن المعجزة الكبرى ـ وهى القرآن الكريم ـ حديثا مستفيضا ، تعرض فيه لما تضمن من أسباب الإعجاز ومظاهره ، وفى سبيله إلى الخلوص للحديث عن المعجزة القرآنية ، تسلل فى خفة ، مجملا الحديث عن آيات نبوته ﷺ التى ظهرت فى وضوح لا يحتمل الشك ، معتذرا عن عدم تقديم تلك الآيات مرتبة ، بأن تلك الآيات ـ كالدر ـ الذى إن زاده الانتظام حسنا ، فان عدم انتظامه لا يفقده قيمته ، وعذر البوصيرى فى ذلك يرجع إلى العجز الذى يصيب كل من يطمح إلى استيعاب شمائله ﷺ ، فذاك لا يخرج عن نطاق الآمال .

دعْنى ووصْفىَ آيات له ظهرت ظهور نار القِرى ليلا على علم[1]
فالدر يزداد حسنا وهو منتظم وليس ينقص قَدْرًا غيرَ منتظم
فما تطاوُلُ آمال المديح إلى ما فيه من كرم الأحلام والشيم ؟!

المعجزة القرآنية :

ومن هنا يخلص إلى الحديث عن الآية الكبرى ، والمعجزة الخالدة ، حديثا مستفيضا ، مشيرا إلى بعض ما دار حوله من نقاش فكرى مثل (حدوث القرآن وقدمه) ، مبديا ما يرتاح إليه من تلك الآراء فى لباقة فنية ، اعتمد فيها على المقابلة :

آياتُ حق من الرحمن محدَثَةٌ قديمة ، صفةُ الموصوف بالقدم
لم تقترن بزمان ، وهى تخبرنا عن المعاد ، وعن عاد ، وعن إرَم[2]

ثم يومىء إلى ما تمتاز به المعجزة القرآنية عن معجزات الأنبياء السابقين : ويأخذ فى الحديث عن بعض مظاهر الإعجاز فى القرآن الكريم ، فهو ـ إلى دوامه ـ كلام محكم ، لا يُبقى لذى عقل واع شبهة ، ولا يصمد أمامه خصم ، فسرعان ما يعود محاربه مستسلماً ، ولا يقوى على معارضته أديب ـ مهما كانت مقدرته الفنية ـ فسرعان ما ترده بلاغة القرآن على عقبه خاسئاً مهزوماً ، وأنى لمخلوق بأن يأتى بشىء من مثل هذه الآيات ، ومعانيها ممتدة متوالية ، لا تتوقف عن العطاء ، بحيث تفى كل إنسان ـ فى بيئته الخاصة ، وظروفه المتفردة ـ بكل حاجاته ، فهى كموج البحر فى مددها المستمر الذى لا يتوقف ، وهذا هو سر عجز المحصين عن إحصاء عجائب تلك الآيات ، كما هو سر تجددها الدائم ، بحيث لا يلحق تاليها أى ملل على الرغم من

(١) العلم : الجبل ، والقرى ـ بكسر القاف ـ : طعام الضيفان ، كان من عادة العرب إيقاد النار على مرتفع ليراها الطارئ والغريب ، فيهتدى بها ، وينزل بهم ضيفاً .
(٢) إرم ـ بكسر ففتح ـ : قصر شاهق ، كان مقر ملك عاد قوم هود عليه السلام .

إكبابه على تلاوتها ، وتكرار ذلك مراراً ، بل إن هذه الآيات لَتقرُّبها عين من يقرؤها ؛ إذ يجد فيها راحة الروح ، وطمأنينة النفس ، ورضا العقل واقتناعه ، حتى أصبحت تلك الآيات ظفراً للمؤمن ، توثق علاقته بالله ، وتبدد عنه المخاوف من حر نار جهنم ، حتى كأنها الماء البارد الذى تطفأ به النيران ، بل كأنها الحوض المشتمل على وسائل النقاء والصفاء ، تزال به عن العصاة خطاياهم ، ويوجهون به إلى ما يبرىء ساحتهم ، وينأى بهم عن الخطأ ؛ فتبيض به وجوههم بعد أن وردوا عليه سود الوجوه من كثرة خطاياهم ومعاصيهم . وعلى الرغم من أنها – إلى هذا وذاك – أصل العدالة والاستقامة والتوازن ، لم تسلم من حسود راح ينكر قيمتها إما متجاهلا حقيقتها لحاجة فى نفسه ، وإما جهلا منه بها ، كما يحول الرمد بين العين ، ورؤية الحقيقة الصارخة ، ويحول طول المرض بين المريض وتذوق المطعومات حتى ينكر طعم الماء .

دامت لدينا ، ففاقت كلَّ معجزةٍ ... من النبيين ، إذ جاءت ، ولم تدم

محكَّماتٌ ، فما يبقين من شُبَهٍ ... لذى شقاق ، وما يَبْغين من حكَم

ما حوربت قطُّ إلا عاد من حَرَبٍ ... أعدى الأعادى إليها مُلقِىَ السَّلَم[1]

ردَّت بلاغتُها دعوى معارضها ... ردَّ الغيور يدَ الجانى عن الحُرَم[2]

لها معان كموج البحر فى مدد ... وفوقَ جَوهره فى الحسن والقيم[3]

فما تُعَد ولا تحصى عجائبُها ... ولا تُسامُ على الإكثار بالسأم[4]

قرَّت بها عَيْن قاريها ، فقلتُ له ... لقد ظَفِرتَ بحبل الله فاعتصم[5]

إن تتلُها خِيفةً من حر نار لظى ... أطفأت حرَّ لظى من وردها الشَّبِم[6]

كأنها الحوضُ تبيضُ الوجوه به ... من العُصاةِ ، وقد جاءوه كالحُمَم[7]

وكالصراط ، وكالميزان مَعدِلةً ... فالقِسْطُ من غيرها فى الناس لم يَقم[8]

لا تعجبَنْ لحسودٍ راح يُنكرها ... تجاهُلًا ، وهو عَينُ الحاذق الفهم[9]

(١) الحرب – بفتح الحاء والراء – : الويل والهلاك ، السلم – بالتحريك – الاستسلام .

(٢) المعارض : الذى يدعى أنه يأتى بمثل القرآن ، الحرم – بضم ففتح – جمع حرمة : ما لا يحل انتهاكه من ذمة ، أو حق ، أو صحبة ، أو نحو ذلك .

(٣) الجوهر : ما خلقت عليه جبلة الشىء .

(٤) السأم : الملل ، وسامه الشىء : ألزمه إياه ، والمعنى : لا توصف الآيات القرآنية بالملل إذا أكثر التالون تلاوتها .

(٥) قرّ ، يقر – بكسر العين – : برد ، وسكن ، وعلى المعنيين قرت عينه : سكنت وبردت ، اعتصم بالله : لجأ إليه واعتز به .

(٦) اللظى : لهب النار الخالص لا دخان فيه ، ولظى : اسم من أسماء جهنم ، وهو علم لا ينون ، شبم – بفتح فكسر – فهو شبم – بكسر العين – : برد ، يقال : ماء شبم : بارد .

(٧) الحوض : مجتمع الماء ، والحمم – بضم ففتح – : الفحم ، وكل ما احترق من النار .

(٨) عدل فى أمره – بفتح العين والدال – عدلا ، وعدالة ، ومعدلة بكسر الدال – : استقام ، والقسط – بكسر القاف – العدل ، وهو من المصادر الموصوف بها ، يوصف به الواحد والجمع نحو قوله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ .

(٩) حذق – بفتحتين – يحذق – بكسر العين – ، يقال : حذق فلان الشىء أو حذق فيه : أوغل فى ممارسته حتى مهر فيه . والفهم – بكسر الهاء – من جاد استعداده للتصور والاستنباط .

قد تنكر العينُ ضوءَ الشمس من رَمَـد ... ويُنكرُ الفـم طعـمَ الماء من سَقَـم[١]

الأسراء والمعراج :

ومن هذا الحديث عن القرآن الكريم يحس البوصيرى أنه مهد بذلك لينال شرف الالتقاء بالمصطفى ﷺ ، فيلتفت إليه موجهاً خطابه له بنداء ندى ، يرجو به أن ينال ما يصبو إليه من رضوان وتكريم ؛ ولذلك كنى عنه ﷺ ببعض صفاته التى تناسب المقام ، فرآه خير من يقصده طالبو المعروف ، ورآه الآية الكبرى ، والنعمة العظمى . ثم أخذ فى استذكار طرف من مظاهر تكريم الله إياه وتعظيمه ، قاصداً بذلك عرض إحدى معجزاته التى كانت من دلائل صدقه ، وإعزاز الله إياه ، وهى معجزة الإسراء والمعراج ، حيث أسرى به من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى فى رحلة ليلية قطع فيها تلك المسافة فى جزء يسير من الليل ، ثم عرج به مجتازاً السماوات العلا ، منتقلا من سماء إلى سماء إلى أن نال المنزلة التى تقف دونها الرغبات والآمال ، بعد أن صلى بأنبياء الله إماماً ، وبارتقائه ﷺ إلى ذلك المكان وتلك المكانة فاز بما لم يفز به غيره ، وحاز من الفخار ما لا يشاركه فيه أحد ، ونال جليل الرتب ، وعظيم النعم ، مما يُعدُّ لنا نحن ــ أمته ــ مفخرة نتيه بها ، فكنابه أكرم الأمم ، ومما يثقل كاهلنا بما يمليه علينا من واجبات ، حتى نظل محتفظين بما أوصلنا إليه من مكانة :

يا خير من يمَّـم العافـون ساحتـه ... سعياً ، وفـوق مُتُون الأينـقُ الرسُـم[٢]

ومـن هو الآية الـكبرى لمعـتبر ... ومـن هو النعمـة العظمـى لمغتنـم

سريت من حرم ليـــلا إلى حرم ... كما سرى البـدر فى داج من الظلـم[٣]

وبت ترقى إلى أن نلت منزلـــة ... من قاب قوسين لم تُدرَك ولم تُرَم[٤]

وقدمـتك جميـع الأنبيـــاء لها ... والـرسل ، تقـديم مخدوم على خدم

وأنت تخترقُ السبـعَ الطبـاق بهمْ ... فى موكب، كنت فيـه صاحب العلم[٥]

حتـى إذا لم تدعْ شأوا لمستبـق ... من الدنُـوِّ ، ولا مرقـىً لمُستَنِـم[٦]

خفضت كل مقـام بالإضافـة ، إذ ... نوديت بالرفـع ، مثلَ المفرد العلم[٧]

---

(١) الرمد : داء يصيب العين ، يقال : رمدت العين : انتفخت وتورمت ، والسقم : ــ بالتحريك بالفتح ــ المرض المزمن .

(٢) يممه : قصده ، العافون : طالبو المعروف ، الساحة : فضاء يكون بين الدور ، السعى : المشى ، متون جمع متن : الظهر ، الأينق جمع ناقة والأينق الرسم : التى تعدو عدوا شديدا يحدث الأثر فى الأرض من شدة الوطء .

(٣) سرى : سارليلا ، الظلام الداجى : الشديد الظلمة .

(٤) القاب : المقدار ، والقاب من القوس : ما بين المقبض وطرف القوس ، وهما قابان ، ويقال : بينهما قاب قوسين ، كناية عن القرب ، رامه يرومه : طلبه .

(٥) السبع الطباق : السماوات السبع ، صاحب العلم : كناية عن التقدم والريادة .

(٦) الشأو : الشوط ، والأمد والغاية ، الدنو : القرب ، المرق : المصعد ، والمستنم : طالب السنام والرافعة .

(٧) خفضت كل مقام بالإضافة : كل من يقارن بك أو يضاف إليك يكون أقل منك ، وذلك لأن رفعتك كانت بنداء ربانى ، فأصبحت فى رفعتك مثل الجبل المفرد فى ارتفاعه .

كيمــا تفــوز بوصل أى مستتــرِ — عن العيــون ، وسر أى مكتتــمِ[1]

فحزت كل فخــار غيــرَ مشْتَــرَك — وجزت كل مقــام غيــرَ مزْدَحِــمِ[2]

وجَــلَّ مقــدارُ ما وُلِّــيت من رُتب — وعــزَّ إدراك ما أُولــيت من نِعَــمِ[3]

بشرى لنــا معشرَ الإسلام ، إن لنــا — من العنايــة ركنــا غيــرَ منهدم [4]

لما دعــا الله داعينــا لطاعتــه — بأكرم الرسْــل ، كنــا أكــرمَ الأمم

موقف المشركين من البعثة :

ويخلص من الحديث عن تكريم الله رسوله ، وإكرام أمته ببعثته ، إلى الحديث عن موقف المشركين من تلك البعثة ، وتصوير ما نالهم من فزع حين وصلتهم تلك الأنباء ، على الرغم من الخير العميم الذى جاءهم به ، مصوراً ما نشأ عن معارضة المشركين له ، ومعاداتهم إياه ، من حروب توالت فى مواقع مختلفة ، واجه فيها هؤلاء المشركون من الموت والإذلال ما أفقدهم الوعى ، وأسلمهم للخوف والاضطراب ، حتى أصبحوا يتمنون الموت ليستريحوا مما أوقعوا أنفسهم فيه من معاناة ، ووصلوا إليه من حرج ؛ إذ فوجئوا بما لم يخطر لهم على بال ، حين واجههم محمد ﷺ بهذا الجيش الصامد القوى ، على الرغم من قلة عددهم وعتادهم ، فأذهلتهم فعالهم فى الحروب ، واستبسالهم الذى لم يعرف له مثيل . وكأنى بالبوصيرى يرسم بهذه اللوحة وما قبلها صورتين متقابلتين ، ليثير بهذا التقابل سخرية المتلقين من هؤلاء المشركين ؛ إذ يكشف بتلك المقابلة خطل رأى المشركين ، وسوء تقديرهم ، وجهلهم الأعمى ، الذى دفع بهم إلى هذا الموقف الهزيل ، ففضح نواياهم ومقاصدهم :

راعت قلــوبَ العــدا أبنــاءُ بَعثِتِــه — كنبأةٍ أجْفَــلتْ غُفْــلا من الغنــم [5]

مازال يلقاهــــمُ فى كل معتـــــرك — حتى حكوا بالقنا لحماً على وَضَمَ[6]

ودُّوا الفــرار فكــادوا يغبِطــون به — أشلاءَ شالت مع العِقْبان والرخَــم[7]

---

(1) كيما : كى التعليلية . وما حرف وصل يفيد التأكيد ، أى مستتر : وصل مستتر استتارا شديدا .

(2) حاز : نال وملك ، وجاز المكان : سار فيه وقطعه .

(3) جل : عظم ، الرتب جمع رتبة : المنزلة والمكانة . ولاه الأمر ، وأولاه الأمر : جعله واليا عليه ، ومتمكنا منه .

(4) المعشر : كل جماعة أمرهم واحد ، والركن : ما يتقوى به من ملك وجند وقوم ، ويكنى بالعناية عن الله سبحانه وتعالى ، تنبيها إلى رضاه عنا ، ومناصرته إيانا .

(5) راعه : أفزعه ، النبأة : الصوت ، أجفله : أزعجه وأفزعه ، الغنم الغفل : الغنم الغافلة غير المتنبهة .

(6) المعترك : المعركة ، القنا ــ بفتح القاف ــ : الرماح ، جمع قناة ، الوضم : ما يوضع عليه اللحم من خشب وغيره حتى يتمكن الجزار من تقطيعه .

(7) غبط فلانا : تمنى مثل ماله من النعمة . أشلاء ــ جمع شلو بكسر الشين ــ : العضو . شال الميزان : ارتفعت إحدى كفتيه ، والعقبان ــ جمع عقاب ــ والرخم نوعان من الطيور القوية آكلة اللحوم ، يقول : إنهم من شدة معاناتهم ورعبهم أصبحوا يتمنون أن لو كانوا قطعا من اللحم ارتفعت بها الطيور المفترسة .

تمضى الليـــــالى ، ولا يدرون عدَّتها ... ما لم تكن من ليالى الأشهــر الحرم[1]
كأنما الديــنُ ضيــــفٌ حلَّ ساحتهم ... بكـــل قَرْم إلى لحم العِــــدا قَرِمِ[2]
يجر بحر خميس فوق سابحة ... يرمـــى بموج من الأبطـــال مُلْتَطِــمِ[3]
من كل منتـــــــدِبٍ لله محتسِب ... يسطو بمستأصِلٍ للكفــر مُصْطَلِـمِ[4]

لقد اندفع أعداء الحق من غير وعى يحاولون أن يوقفوا مد الإسلام ، بعد أن صور لهم الوهم أن محمداً جاءهم بالشر الجارف الذى يقضى على زعاماتهم ، ويبدد سلطانهم ، فأشعلوها حرباً مستعرة ، قابلها الرسول فى مبتدأ الأمر بالحلم والصبر ، ولكن إصرارهم على المواجهة كان داعياً لمناجزتهم الحرب ، وملاقاتهم فى مواطن عديدة . ذاقوا فيها مرارة الهزيمة ، ورأوا ظلام الخيبة ، خصوصاً حين أصبح للإسلام وللمسلمين دولة منيعة ، تواصل نموها وامتدادها فى كل وجهة ، يرعاها الله ، ويكفلها رسوله ، ويقودها صفوة الرجال ، وواجه هؤلاء المشركون فى حروبهم تلك جبالا رواسى ، لا يعرف صمودهم فى الحرب ، ولا مضاء عزائمهم إلا من اصطلى بنارهم ، وكتب عليه أن يلقاهم ، حتى أصبحت ميادين المعارك شهوداً تنطق بمعجزات الحرب ، وما جرى فيها على أيدى هؤلاء الفرسان البواسل من أهوال ، زلزلت الشرك وأعوانه ، ومن شاء أن يتأكد من ذلك فليسأل حنيناً ، وبدراً ، وأحدا عما لاقاه المشركون ، حين كانت جيوش المسلمين تعود من المعركة وسيوفهم قد صبغت باللون الأحمر ، من كثرة ما شربت من دماء الأعداء :

حتى غدت ملةُ الإسلام ، وهى بهم ... من بعد غُربتها ، موصولــةَ الرحــم
مكفولــــةً أبـــــداً منهم بخير أب ... وخير بَعْل ، فلم تَيْتَــم ، ولم تَئِــمِ[5]
همُ الجبـــال ؛ فسل عنهم مُصادِقهــم ... ماذا رأى منهمُ فى كلِّ مُصْطَـــــــدم
وسل حنيناً ، وسل بدراً ، وسل أحدا ... فُصولُ حَتْف لهم أدهى من الوَخَم[6]
المصدرى البيضِ حُمرًا ، بعدما وردت ... من العدا كلَّ مُسْـوَدٍّ من اللِّمَــم[7]

(١) الأشهر الحرم (ذو القعدة ، ذو الحجة ، المحرم ، ورجب) .

(٢) القرم ـ بفتح فسكون ـ : السيد ، والقرم ـ بفتح فكسر ـ شديد الشهوة إلى اللحم . يقول : لقد أذهلت المفاجأة أعداء الإسلام فأصبحوا لا يميزون الأيام ، ولا يدرون عدتها ، حتى لكأن الإسلام رماهم بسادة مفترسين .

(٣) الخميس : الجيش الجرار ، سمى بذلك لتكونه من خمس فرق ، السابحة : الخيل السريعة ، الموج الملتطم : ضرب بعضها بعضا ، والبيت كله كناية عن كثرة الجيش .

(٤) المنتدب بكسر الدال : المستجيب لأمر الله ، المحتسب ـ بكسر السين ـ : الذى يدخر أجره عند الله ، سطا بالكفار : بطش بهم وقهرهم ، اصطلمه : استأصله وأباده .

(٥) كفله : تعهده ورعاه ، البعل ـ بفتح فسكون المهملة ـ الزوج . يتم الصبى ـ بفتح التاء فى الماضى وكسرها فى المضارع ـ : فقد أباه قبل البلوغ ، ويتم الصغير من الحيوان : ماتت أمه أو انقطع عنها . آمت المرأة تئيم : فقدت زوجها ، أو أقامت بلا زوج بكرا أو ثيبا .

(٦) الفصول جمع فصل : الفروع والأنواع ، الحتف : الهلاك . أدهى : أشد بلاء . الوخم ـ بفتح الواو والخاء ـ الوباء .

(٧) أصدر : عاد بدوابه بعد أن أوردها وسقاها ، والمصدرو البيض : الراجعون من المعركة بالسيوف . وردت الدواب : شربت ، اللمم ـ بكسر اللام ـ جمع لمة : شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن .

ومن هذا البيت الأخير يسترسل البوصيرى فى الحديث عن أبطال المسلمين ، الذين تحققت على أيديهم هزائم المشركين المتتالية ؛ فهؤلاء الأبطال الذين يقوم عليهم هذا الجيش ، والذين نهضوا مستجيبين لأمر الله ــ كما أوضح فى الأبيات السابقة ــ ومحتسبين أجرهم على الله ، يخوضون الحروب فوق خيول قوية ، كأنهم الجبال الرواسى .. هؤلاء الفرسان يعودون من تلك المعارك وقد أصبحت سيوفهم حمراء اللون من كثرة ما أراقت من دماء ، حتى يخيل لمن يشاهد المعركة أنهم كاتبون يتقنون الكتابة كانت أقلامهم السيوف والرماح ، وكانت أوراقهم أجسام الأعداء التى لم يتركوا فيها مكاناً خالياً من خطوطهم . ولا غرابة فى ذلك ؛ فهم جنود باعوا أنفسهم لله ، وهم ــ لذلك ــ دائمو الاستعداد لمواجهة العدو كاملوه ، حتى أصبحوا معروفين بعلاماتهم الخاصة التى تميزهم من غيرهم ، كما يميز الورد من غيره رائحته الفواحة ، فإذا هبت رياح النصر تحمل إلينا أنباء انتصاراتهم ، جاءتنا محملة بروائحهم الطيبة ، حتى لكأن كل جندى زهرة عطرة ، وكأنهم فى ثباتهم على ظهور خيولهم مع حركتهم الدائبة نبت برز فى قمم المرتفعات ، فملأوا قلوب العدا رعباً وفزعاً ، لم يجدوا إزاءه بديلا من الهرب والفرار ، من غير تدبير ولا نظام :

والكاتبين بسُمْر الخطِّ ما تركتْ	أقلامهم حرف جسم غيرَ مُنْعَجم[1]
شاكى السلاح ، لهم سِيما تميزهم	والوَرْد يمتاز بالسِّيما من السَّلَم[2]
تُهدى إليكَ رياحُ النصر نشرهمُ	فتحسَبُ الزهر فى الأكمام كمى[3]
كأنهم فى ظهور الخيل نبت رُبا	من شدة الحَزْم، لا من شدة الحُزُم[4]
طارت قلوب العدا من بأسهم فَرَقا	فما تُفَرِّق بينَ البَهْم والبُهَم[5]

والبوصيرى ــ فى مدحه صحابة رسول الله ﷺ ، وجنود الإسلام ــ لا يمدحهم لأشخاصهم ، ولكنه يمدح فعالهم التى استمدوها من هدى المصطفى ﷺ ، وإخلاصه ، وحكيم قيادته ، ووطيد اتصاله بالله سبحانه وتعالى ؛ ولذلك لم يستغرق فى مدح أبطال المسلمين

---

(١) السمر ــ بضم السين وسكون الميم ــ جمع أسمر : الرمح ، الخط : السطر ، والكتابة ، الحرف من كل شىء : طرفه وجانبه ، المنعجم ، يقال : عجم الحرف : أزال إبهامه بالنقط والشكل ، يقصد أن جنود المسلمين لم يتركوا فى أجسام أعدائهم مكاناً خالياً من الضرب أو الطعن .

(٢) شاكى السلاح : تام السلاح وكامل الاستعداد ، السيما : العلامة ، والسلم ــ بالتحريك بالفتح ــ شجر له شوك يشبه شجر الورد .

(٣) النشر : الريح الطيبة ، الأكمام جمع كم ــ بضم الكاف ــ : وعاء النور ، والكمى ــ بفتح الكاف وكسر الميم ــ : الشجاع المقدام الجرىء ، كان عليه سلاح أم لم يكن ، وهو أيضاً لابس السلاح .

(٤) الربا ــ بضم الراء ــ جمع ربوة : ما ارتفع من الأرض ، الحزم فى الأمر والرأى ــ بفتح فسكون ــ : ضبطه وإتقانه ، جمعه حزمة بالتحريك ، والحزم ــ بضم الحاء والزاى ــ جمع حزام : ما حزم به من حبل ونحوه .

(٥) البأس : الشدة فى الحرب ، والفرق ــ بفتح الفاء والراء ــ : الخوف والرعب واشتداد الجزع ، البهم ــ بفتح فسكون ــ جمع بهمة بفتح الباء : صغار الضأن ، والبهم ــ بضم الباء وفتح الهاء ــ جمع بهمة ــ بضم الباء وسكون الهاء ــ : الشجاع يستبهم على قرنه وجه غلبته .

طويلا ، ثم عاد إلى موضوعه الأصيل ، فربط هذه البطولات الرائعة بصحبة رسول الله ﷺ ، وولايته إياهم ، وتوجيهه الربانى ، حتى جعل منهم سيوف الله المشرعة فى وجه المعاندين والمشركين .

وبذلك الوعى الفنى يبرهن البوصيرى على أن موضوعه لم يغب عنه لحظة واحدة ، وأنه يتنقل فيه من فكرة إلى فكرة وفق تخطيط فنى بارع ، يماثل فى دقته التخطيط الهندسى ، ويؤكد أن قصيدته ذات وحدة موضوعية وفنية متواصلة ، تتلاحق فيها الدفقات النفسية ، والسبحات الروحية الواعية ، من غير شتات ولا تمزيق .

نعم .. إن البوصيرى وظف مديحه جنود المسلمين ، فى مديحه المصطفى ﷺ ؛ لأن العلاقة وطيدة بينهم فى فعالهم الطيبة وبين رسول الله ﷺ ، فما يمدحون به ، إنما هو بعض ما نالوه بصحبتهم رسول الله ﷺ ، والتزامهم أثره وهداه .

ومن هذا المنطلق رأى البوصيرى أن كل جندى ينصره رسول الله ﷺ يصبح مصدر رعب للأسد فى حصونها ، وأن كل جندى يواليه رسول الله ﷺ يلازمه النصر ، ولا غرو فى ذلك ، فرسول الله ﷺ قد حصن أمته بقيم هذه الملة الحنيفية المستقيمة ، فنال كل فرد مسلم يتمسك بإسلامه كل أسباب النصر والعز ، كأنه ﷺ بذلك ليث قاد أشباله إلى حصنه الحصين :

ومن تكن برسول الله نُصرتُه	إن تلْقَه الأُسْدُ فى آجامها تَجِم
ولن ترى من ولىٍّ غير منتصر	به ، ولا من عدو غيرِ منْقصَم
أحلَّ أمتَه فى حِرز مِلَّته	كالليث حلَّ مع الأشبال فى أجَم

غاية البوصيرى من مدحته :

هذا الرسول الذى كان وراء تلك الانتصارات الباهرة ، وتلك التغييرات الجذرية التى حولت العرب البداة إلى مصادر إشعاع حضارى تزهو بهم الإنسانية .. هذا الرسول لم يسلم من طعن الطاعنين ، ومحاولاتهم الدائبة للانتقاص منه ، حتى كان موضع جدل دائم على مدى هذه القرون المتطاولة ، اشتبك فيها الطاعنون مع أنصار الحقيقة الذين تؤازرهم الآيات الكريمة فى الكشف عن مكانه ومكانته وتصرع بما تمدهم به من براهين واضحة صادقة ـ فى النهاية دائماً ـ كل أولئك الجدلين .

وفى الحقيقة ... إن هؤلاء الجدلين لم يكونوا فى حاجة إلى جدل وحوار ـ لو كانوا حريصين على الحقيقة ـ إذ هم سخروا عقولهم ـ بعد تجريدها من الهوى وأسباب الزيف ـ فى النظر العقلى ، والبحث العلمى عن حقيقة محمد ﷺ فى ثنايا الوقائع التاريخية منذ ولد بين الجاهليين يتيما ، لا راعى له إلا الله جل شأنه ، وتأملوا فيما قدمه من فكر وعلم خلق وآداب ، على الرغم من أميته .!

ثم يقرر أنه شرف بتجريد نفسه خادماً لرسول الله ﷺ بتقديم تلك المدائح لحاجته هو إلى ما يعود عليه من ورائها ، لا لحاجة المصطفى ﷺ إلى مدح مادح ، فهو إنما يمدح الرسول الكريم ﷺ سعياً إلى تخلصه مما ارتكبه طوال عمره من ذنوب وآثام ، تمثلت فى قوله الشعر فى أغراض غير إسلامية ، ومدحه الآخرين بقصد التقرب إليهم ، والحصول على عطاياهم ، حتى كنت بهذا وذاك كالأنعام الضالة ، فقد كنت أثناء ذلك منستسلماً لغى الصبا ، فلم أحصل من مسعاى إلا على الآثام والندم على ما أضعته من عمرى فى تلك التجارة الخاسرة ، وبيعى آخرتى بتلك الملاذ الدنيوية الفانية :

كم جدَّلت كلمـــــات الله من جَدِل ... فيـه، وكم خصم البرهـانُ من خَصِمِ[1]

كفـاك بالعلـم فى الأمـى معجـزةً ... فى الجاهليـة والتـأديب فى اليُتـمُ

خدمتـه بمديح ، أستقيـل به ... ذنوبَ عُمْرٍ مضى فى الشعر والخَدَمُ[2]

إذ قلَّدانـىَ ما تُخشى عواقبـه ... كأننـى بهمـا هَدْىٌ من النَّعـم[3]

أطعت غَىَّ الصِّبا فى الحالتين، ومـا ... حَصَلْتُ إلا على الآثام والنـدم[4]

فيـا خسارة نفسٍ فى تجارتها ... لم تشتر الدين بالدنيا، ولم تَسُـم[5]

ومـن يبـع أجـلا منـه بعاجلـةٍ ... يَبِنْ له الغَبـن فى بيـع وفى سلـم[6]

وبعد أن استعرض البوصيرى بعض ما كان عليه فى أوائل حياته ، مما تأسف له أخيراً ، وندم على صدوره منه ، ورجا الله أن يغفره له ، ويعفو عنه ، ويقبل عودته إلى الاستقامة ... كان له من الصفاء النفسى ، والروحى ، والذهنى ، ما أنطقه بذلك الكلام الحكيم !

ثم انطلق ــ مع آماله فى العفو والقبول ــ غامراً نفسه فى جو تلفه تلك الآمال العريضة الباسمة ، مبديا حسرته ، وخوفه الشديد من أن يتخلى عنه رسول الله ﷺ يوم المعاد ، معللا ذلك الأمل بعودته إلى الاستقامة ، وإكرامه باسم محمد ، الذى قد يمنح به من الذمة لديه ﷺ ما يطمئنه إلى شفاعته له .

ولكنه يعود فيزيح عن نفسه استشعار القنوط واليأس ، وينتقل بها إلى جو تنتشر فيه رحمة

---

(١) جدلته : صرعته ، الجدل ــ بفتح فكسر ــ : من يبالغ فى الجدل ، ويشتط فى الخصومة ، خصمه البرهان : غلبه فى الخصام ، الخصم ــ بفتح فكسر ــ : العالم بالخصومة وإن لم يخاصم .

(٢) أستقيل : أطلب الإقالة من الذنوب ، بالعفو عنها ، والخدم ــ بكسر ففتح ــ جمع خدمة : القيام بحاجة الغير تقرباً إليه ، يريد أنه تقرب إلى رسول الله ﷺ بمديح يرجو به من الله أن يعفو عما سلف منه بشعره ، حين توسل به لتحقيق مكاسب دنيوية .

(٣) قلده : جعل القلادة فى عنقه ، الهدى : ما يهدى إلى الحرم من النعم ، والنعم ــ بفتح النون والعين ــ : المال السائم .

(٤) الغى ــ بالفتح ــ : الضلال .

(٥) سام المشترى السلعة : طلب ابتياعها .

(٦) غبنه فى البيع غبنا : غلبه ونقصه ، والسلم ــ بالتحريك ــ : نوع من البيع ، وهو بيع شىء موصوف فى الذمة بثمن عاجل .

الله تعالى ، انتشاراً شاملًا ، ويتوسل فى ذلك بالإقبال على رسول الله ﷺ ، منادياً ، مستجيراً ، راجياً من جاهه ﷺ ، وسعة صدره ، وكرمه الفياض العميم أن لا يضيق به ، وأن يشفع له عند الكريم المنتقم جل شأنه ؛ فإن جوده ﷺ شمل الدنيا والآخرة .. فيقول :

إن آت ذنباً ، فما عهدى بمنتقض ... من النبى ، ولا حبلى بمنصرم[1]

فإن لى ذمة منه بتسميتى ... محمداً ، وهو أوفى الخلق بالذمم[2]

إن لم يكن فى معادى آخذا بيدى ... فضلا ، وإلا فقل : يازلة القدم[3]

حاشاه أن يُحْرم الراجى مكارمَه ... أو يرجعَ الجار منه غيرَ محترم[4]

ومنذ ألزمت أفكارى مدائحه ... وجدته لخلاصى خير ملتزم

ولن يفوت الغنى منه يداً تربت ... إن الحيا يُنبت الأزهار فى الأكَم[5]

ولم أرد زهرة الدنيا التى اقتطفت ... يدا زهير ، بما أثنى على هرم[6]

يا أكرم الخلق ، ما لى من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم[7]

ولن يضيق ــ رسولَ الله ــ جاهُك بى ... إذا الكريم تحلَّى باسم منتقم

فإن من جودك الدنيا وضَرَّتها ... ومن علومك علمَ اللوح والقلم[8]

البوصيرى بين الأمان والخوف :

وفى هذا الجو الروحانى الشفيف ، يشعر البوصيرى ــ مع توجهه إلى رسول الله ﷺ ــ بشىء من الأمان والطمأنينة ؛ فيتجه إلى نفسه لينشر حولها ما شعر به ، ويطمئنها إلى حصولها على ما ترجوه من عفو ورحمة ، ويدعوها إلى أن تنضو عنها ثوب القنوط الذى ألقاه عليها خوفها من عذاب الله ، معللا ذلك بأن الكبائر عند عفو الله تعالى ، تصير كالصغائر من الذنوب .

والبوصيرى ــ فى هذا الموقف الروحانى الرخى ــ يخشى أن يبلغ به الأمل مبلغاً يغفله عن واقعه ، وينسيه ما وقع فيه من أخطاء وآثام .. فيعترف بما ارتكب من معاص ، ولكنه ــ بآماله الرحيبة فى الله ــ يرجو أن يمنحه الله من الرحمة بقدر ما وقع فيه من عصيان ؛ اطمئناناً منه إلى سعة رحمة ربه .

---

(١) نقض العهد : نكثه ، الحبل : يعنى ما به الوصل ، المنصرم : المنقطع .

(٢) الذمة : العهد والأمان والكفالة ، والذمم : جمع ذمة .

(٣) المعاد : المرجع والمصير ، والحياة الآخرة ، والفضل : الإحسان ابتداء بلا علة ، والزلة ــ بالفتح ــ : السقطة والخطيئة .

(٤) المكارم : جمع المكرمة .

(٥) ترب فلان ــ بفتح فكسر ــ : افتقر ، يقال فى الدعاء : تربت يداه : خسر ، الحيا : المطر ، والأكم ــ جمع الأكمة ــ : الربوة .

(٦) زهير بن أبى سلمى ، الشاعر الجاهلى ، اشتهر بمدائحه ، وهرم : ابن سنان ، أحد الساعين لإقرار السلم ، وقد نال الكثير من مدائح زهير .

(٧) لاذ بالشىء : لجأ إليه واستتر به ، واستغاث ، العمم ــ بفتح فكسر ــ والعميم : الشامل ، التام الطويل من كل شىء ، والحادث العمم : يقصد يوم القيامة .

(٨) الضرة ــ بفتح الضاد ــ : إحدى زوجتى الرجل ، والمقصود بضرة الدنيا : الآخرة

ولأنه يدرك أن ذلك على خلاف المعهود فى تعامل المخلوقين ، يتجه بالنداء إلى الله ربه ، راجياً منه أن يحقق له ما يرجوه منه ، وما يؤمله فيه ، وأن يلطف به ، ولا يحاسبه على ذنبه ؛ فيعامله بالرحمة والفضل ، ولا يعامله بالقسطاس والعدل .

وحرصاً منه على استجابة الله تعالى لما يرجوه ، يتقرب إلى الله بسؤاله لنبيه ﷺ الصلاة عليه صلاة دائمة ممتدة . وتتآزر المشاعر الفنية مع المشاعر الروحية ، فيجعل من سؤاله هذا خاتمة مدحته ، مؤكداً أنه ــ فى كل ما قدم ــ لم يشذ عن الصدق الفنى ، ولا الصدق الروحى .. رضى الله تعالى عنه .. وذلك قوله :

يا نفسُ لا تقنطى من زلة عظمت ... إن الكبائر فى الغفران كاللَّمَم[1]

لعل رحمة ربى حين يقسمها ... تأتى على حسب العصيان فى القِسَم[2]

يا رب ، واجعل رجائى غيرَ منعكِس ... لديك ، واجعل حسابى غيرَ منخرم[3]

والطف بعبدك فى الداريــن ، إن له ... صبراً ، متى تدْعُه الأهوالُ ينهزم[4]

وأذن لسُحب صلاة منك دائمة ... على النبى ، بمنهل ، ومنسجم[5]

ما رنَّحت عَذبات البان ريحُ صَبَا ... وأطرب العيسَ حادى العيس بالنغم[6]

التقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعاء لصحابته :

وهنا .. يجد البوصيرى فرصة سانحة ، ينطلق لسانه فيها بالدعاء لصحابة رسول الله ﷺ ، ورضى الله تعالى عنهم جميعاً ، متقرباً بذلك إلى رسول الله ﷺ ؛ لعلمه بحبه إياهم ، طمعاً منه فى أن يكون ذلك وسيلة لتحقيق آماله ، ويبدأ ذلك بتخصيص الخلفاء الراشدين الأربعة ، ثم يعمم ، فيذكر الآل والصحب والتابعين ؛ فما كان عليه هؤلاء جميعاً من تقى وصلاح يؤهلهم لأن يتوسل إلى الله بالدعاء لهم ، وتكريمهم .

عندئذ يستشعر البوصيرى بوادر رحمة ربه تنهل عليه ، فيتجه إلى الله بالرجاء متوسلا بالمصطفى ﷺ أن يبلغه مقاصده ، وأن يحقق له آماله ، وأن يغفر له ما مضى . متعلقاً فى ذلك

(١) الكبائر ــ جمع الكبيرة ــ : الإثم الكبير المنهى عنه شرعا واللمم ــ بالفتح ــ : الصغير من الذنوب .

(٢) القسم ــ بكسر ففتح ــ جمع القسمة : النصيب .

(٣) انعكس الشىء : ارتد آخره على أوله ، وانقلب ، والمراد : غير مخالف لأملى فيك . الحساب : التقدير والاعتقاد . المنخرم : المنقطع أو الناقص ، يقول : يا رب اجعل أملى حقيقة ، واعتقادى فيك واقعاً ، تنفيذاً لوعدك بالاستجابة .

(٤) الداران : الدنيا والآخرة . الأهوال ــ جمع الهول ــ : الفزع والأمر الشديد ، يريد : إن صبرى لا يحتمل الأهوال ، فأنا فى حاجة إلى لطفك يا رب .

(٥) السحب ــ بضم فسكون ــ جمع السحابة ، هل المطر : اشتد انصبابه ، المنهل : المطر نزل منصباً ، المطر المنسجم : المنصب .

(٦) رنحت الريح الغصن : أمالته يميناً وشمالا ، عذبات ــ جمع عذبة بفتحتين ــ : طرف الشىء ، البان : ضرب من الشجر ، سبط القوام ، لين ، ورقه كورق الصفصاف ، ويشبه به الحسان فى الطول واللين ، الصبا ــ بالفتح ــ : ريح مهبها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار ، العيس ــ جمع عيساء ــ من الإبل : الذى يخالط بياضه شقرة ، الحادى : الذى يسوق الإبل بالحداء (وهو الغناء) .

بكرمه الواسع جل شأنه ، وتدفعه ثقته بالله إلى أن يعم المسلمين جميعاً بما يرجوه لنفسه من مغفرة ، متوسلا فى ذلك بكتاب الله المبين ، وجاه رسوله العظيم .

وبذلك يتهيأ لختم قصيدته ، ولكنه يجدها فرصة ليكمل إفراغ الشحنة الإيمانية الروحية فيحمد الله ابتداء وانتهاء على ما أمده به من منطق وقدرة بيانية استطاع بهما أن ينقل إلينا صورة من مشاعره الفياضة بحب رسول الله ﷺ ، فجاءت تلك المدحة على تلك الهيئة ، متضمنة ستين ومائة بيت ، أملا منه فى أن يفرج الله بها كرب المسلمين .

ثم الرضا عن أبى بكر ، وعن عمر ... وعن على ، وعن عثمان ذى الكرم
والآل ، والصحب ، ثم التابعين ؛ فهم ... أهل التُّقى والنَّقى والحلم ، والكرم[1]
يا رب بالمصطفى بلغ مقاصدنا ... واغفر لنا ما مضى يا واسع الكرم
واغفر إلهى لكل المسلمين بما ... يتلونَ فى المسجد الأقصى ، وفى الحرم[2]
بجاه من بيته فى طَيْبةٍ حرمٌ ... واسمه قسم من أعظم القَسَم[3]
وهذه بُرْدة المختار قد ختمت ... والحمد لله فى بدءٍ وفى خَتَم
أبياتها قد أتت ستين مع مائة ... فرِّج بها كربَنا يا واسع الكرم

من هنا ... يتبين للناظر المتأنى بجيدة أن البوصيرى لم يكن المداح الذى يجتلب المحاسن ليلصقها بممدوحه ، ولا بالذى يعميه الغرض عن المعايب ، فلا يرى إلا محاسن ممدوحه ، ولا بالذى يتأثر بالموقف الطارىء فيرى فى ممدوحه ما قد لا يراه فى حالة أخرى إذا ما تغيرت ملابسات الموقف .. ولكنه الوصاف ، دقيق الحس ، الذى لم يقف بوصفه عند حدود السطح ... ولكنه الإنسان المؤمن ، الأمين ، البصير ، اليقظ ، الذى تفيض نفسه بمشاعر الحب ، والذى يتحرك لسانه وقلمه بعواطفه ، ووجدانه ، وعقله ، فى تلك الرحلة الإيمانية مع سيدنا ومولانا محمد ﷺ ، فى بعض مراحله الحيوية ، ليقدم لنا ما اجتمعت على رؤيته مشاعره وعواطفه ، ووجدانه ، وعقله ، وبصيرته ، وبصره ، حيث كانت تلك القصيدة .

ولذلك ... نرى أن البوصيرى قد تحرر من أسر التاريخ والمؤرخين ، فقدم الحدث التاريخى بعد أن مزجه بروحه ووجدانه ، فسلم من جفاف المادة العلمية ، وبدا لنا فيض وجدان ، ممزوجاً بتحليق خيال ، فى أجواء تعبق بصفاء الروح ، فلا يدرى المتلقى أهو أمام مؤرخ شاعر ، أم هو أمام شاعر مصور ؟! أهو أمام أحداث تروى ، أم هو أمام عواطف تتدفق ؟! أهو أمام عقل ينطق الحكمة ، أم هو أمام صوفى يحلق فى الكون بأبعاده ؟!

فإذا ما رجع بصره ، واستقرأ بصيرته تبين له أنه أمام هذا كله !

---

(١) النقى : الصفاء والنقاء والنظافة .

(٢) ما يتلون : كناية عن القرآن الكريم

(٣) طيبة : أحد أسماء مدينة رسول الله ﷺ ومن بيته فى طيبة كناية عنه ﷺ .

ثانياً

شعراؤنا المعاصرون في معارضاتهم

محمود سامى البارودى

فى قصـــــيدته

(كشف الغمة فى مدح سيد الأمة)

لا ريب فى أن رائد الشعراء المعاصرين محمود سامى البارودى كان من بين عشرات للشعراء الذين تلقوا قصيدة البردة النبوية ، ووقعت من نفوسهم موقع البلسم الشافى ؛ إذ وجدوا أنفسهم بها فى حالة من التجرد ، والصفاء ، تهيئهم لاجتياز الشدائد والآلام ، أياً كان مصدر تلك الشدائد والآلام .

ولقد كان تلقى البارودى لقصيدة البردة متميزاً عن تلقى غيره ، شأن الشعراء والأدباء ، فقد وجد فيها ـ إلى الآثار النفسية ـ مؤثراً فنياً ، وجهه إلى أن يحتذى البوصيرى فيها ، ويقدم على منهجه ما يرجو به أن يكون أهلا لشفاعة سيد المرسلين . فينال رضوان ربه ، وينجو من هول المحشر .

ولقد حرص البارودى على أن يعلن عن مقاصده فى مفتتح القصيدة ؛ إذ يقول :[1] « وبعد فهذه قصيدة ضمنتها سيرة النبى ﷺ ، من حين مولده الكريم ، إلى يوم انتقاله إلى جوار ربه ، وقد بنيتها على سيرة ابن هشام ، وسميتها (كشف الغمة فى مدح سيد الأمة) ، ورغبتى إلى الله أن تكون لى ذريعة أمت بها يوم المعياد ، وسلماً إلى النجاة من هول المحشر ، اللهم فحقق رغبتى إليك ، واكسها بفضلك رونق القبول . آمين » .

---

(١) كشف الغمة فى مدح سيد الأمة . ص ٢ قام بطبعها ومراجعتها عثمان خليل طبع المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر فى رمضان سنة ١٣٥٥هـ

فالقصيدة ــ كما أوضح البارودى ــ تاريخ حياة ، وسيرة ذات ، ووصف صادق ، قدم فيه تصوره لسيد الأمة ﷺ ، وليست مجالا يقتنص فيه المدحة من هنا أو من هناك لينسبها إلى ممدوحه ، سواء كان ذلك عن رؤية سديدة صادقة ، أم كان عن رؤية مرجوة لتحقيق مأرب ، أم كان عن رؤية ملفقة مزيفة ، نفاقاً للمدوح وتملقاً ، على نحو ما استقر عليه كثيرون من دارسى الأدب وناقديه !

وعنوان القصيدة يكشف عن السر وراء توجه البارودى إلى مدح سيد الأمة صلوات الله وسلامه عليه ، فهى (كشف الغمة) ؛ إيماء منه إلى أنه يأمل من ورائها إلى التخلص مما تضيق به حياته ، وتبديد تلك الغمم التى تغشى نفسه !

ولقد أشار البارودى صراحة إلى ذلك فى تعليله تسمية قصيدته ، كما نبه إلى اعتماده على البوصيرى فى بردته ، واحتذائه إياه ، بما ذكره فى مطلع قصيدته من ألفاظ استعار بعضها من البوصيرى ، إلى جانب المنهج الفنى ، والإيقاع الموسيقى ، حيث التزم فيها بحر البسيط الذى التزمه البوصيرى .

وإذا كان نفس البوصيرى الشعرى وقف به عند حدود ستين ومائة بيت فحسب ، أفرغ فيها ما ماجت به نفسه من دفقات شعورية نحو رسول الله ﷺ فإن نفس البارودى كان أطول حيث امتدت به القصيدة فشغلت مساحة سبعة وأربعين وأربعمائة بيت ، اشتملت على نحو عشر أفكار ، فصل فيها ما أجمله البوصيرى ، وقدم ما استقرت عليه نفسه ، واهتدى إليه فكره من سيرة سيدنا محمد ﷺ .

فالبارودى لم يرتبط بالبوصيرى فى تناول الأحداث وتتابعها ؛ لأن البوصيرى أسلس قياده الفنى للدفقات الوجدانية الفوارة التى كانت تمور بها نفسه ، بينما حرص البارودى على أن يقوده الواقع التاريخى للسيرة النبوية ، كما قدمه ابن هشام فى كتابه ، على نحو ما صرح به البارودى نفسه فى مقدمة قصيدته .

★ ★ ★

ومن النظر إلى مطلع البارودى فى قصيدته ، يتضح أنه بدأها ــ على عادة الكثيرين من شعراء العربية الأقدمين ــ ناسباً ، مستنجداً بمن يخف إليه ليعينه على اجتياز ما يعانى من خطوب ألمت به ، لمقامه فى بلدة مثل جوف العير ؛ فيتوجه إلى البرق ، يناشده أن يقصد (داره العلم) ، سائقاً الغمام إلى حى بذى سلم ــ حيث منازل أحبابه ــ كى تعم أرض الروحاء بغيثها الغزير الذى يروى الزرع والنعم ، ويجعلها لوحة فنان بما يمنح أزهارها من رونق يكسو التلال العارية ... يتوجه إلى البرق بهذه المناشدة ، على الرغم من أن ما به من ظمأ يجعله أحوج إلى الرى من تلك الدار ، ولكنه الكرم الذى فطرت عليه ؛ خصوصاً أن جوانحى تنطوى على هوى مكتوم لأهل هذه المنازل ، لم أتفوه به لأحد ؛ لأن الصبابة وشدة الوجد قد تلعب بى ، فيبدو علىَّ ما

حرصت على كتمانه ، وتجعلني أسعى إلى من يحدثني عنها ، ويحرك نحوها أشجاني ، فشوق إلى تلك الأيام أقوى من حازم الرأى ، وعالى الهمم .. وفى ذلك يقول :

يا رائد البرق ، يمم دارة العلم ... واحْد الغمام إلى حيٍّ بذى سلم[1]

وإن مررت على الروحاء فامر لها ... أخلاف سارية ، هتَّانة الديم[2]

من الغزار اللواتى فى حوالبها ... رِىُّ النواهل من زرع ومن نَعَم[3]

إذا استهلت بأرض نمنمت يدها ... بُرداً من النَّور ، يكسو عارى الأكَم[4]

ترى النبات بها خضراً سنابله ... يختال فى حُلة مَوْشية العلم[5]

أدعو إلى الدار بالسُّقيا ، وبى ظمأ ... أحق بالرِّى ، لكننى أخو كرم

منازلٌ لهواها بين جانحتى ... وديعةٌ سرُّها لم يتصل بفمى[6]

إذا تنسَّمْتُ منها نفحة لعبت ... بىَ الصبابةُ لِعْبَ الريح بالعَلَم[7]

أدرْ على السمع ذكراها ، فإن لها ... فى القلب منزلةً مرعيَّة الذمم

عهدٌ تولى ، وأبقى فى الفؤاد له ... شوقاً يفُل شباة الرأى والهمم[8]

إذا تذكرته لاحت مخايلُهُ ... للعين ، حتى كأنى منه فى حُلُم[9]

فما على الدهر لو رقت شمائلُهُ ... فعاد بالوصل ، أو ألقى يد السَّلم[10]

ولكن ذكريات الأحباب ، تنتقل بالشاعر إلى استعادة ما تناوشه من خطوب لا تثبت أمام وقعها مناكب الأرض ؛ كانت عليه أعنف مما تركه شوقه للأحبة الذين تولى عهدهم ؛ فقد شب فى بلدة خربة ، لا يرى فيها واحداً يسلك مسلك العقلاء ؛ فالجميع — من حوله — يتخذون من الأصنام آلهة يسجدون لها ، ويحنون عليها ، حتى أصبح بينهم غريباً ، لا ينال الاستقرار إلا على

---

(١) الدارة : كل أرض واسعة بين جبال ، والعلم : اسم جبل ، وذو سلم : مكان بين مكة والمدينة .

(٢) مرى فلان الشيء — بالتحريك — : استخرجه ، ومرى الريح السحاب : أنزلت منه المطر ، والأخلاف — بالفتح — جمع خلف بكسر الخاء : ضرع الناقة ، والسارية من السحاب : الممطرة ليلا ، هتنت السماء : هطلت وتتابع مطرها ، الديم جمع الديمة — : مطر يدوم فى سكون بلا رعد ولا برق .

(٣) الغزار — بكسر الغين — جمع الغزير : الكثير ، الحوالب — جمع الحالب — : منابع اللبن ، النواهل — جمع الناهلة — : الإبل الجياع ، والنعم — بالتحريك — : المال السائم .

(٤) استهل المطر : اشتد انصبابه ، واستهل السحاب : قطر قطرا له صوت ، نمنم الشيء : نقشه وزخرفه ، البرد — بضم فسكون — : كساء مخطط يلتحف به . والنور — بفتح فسكون — : الزهر الأبيض ، والأكم — جمع الأكمة — : التل .

(٥) الحلة — بالضم — : الثوب الجديد ، الموشية : المنقوشة ، والعلم — بالتحريك — : رسم فى الثوب .

(٦) الجانحة : الضلع القصيرة مما يلى الصدر .

(٧) تنسم الرجل : تنفس ، النفحة : الطيب الذى ترتاح له النفس ، الصبابة — بالفتح — : الشوق ، العلم — بالتحريك — : الراية .

(٨) فل السيف : كسره فى حدة ، الشباة لكل شيء : حد طرفه ، الهمم — جمع الهمة — : العزم القوى .

(٩) مخايل — جمع مخيلة — بفتح فكسر — : الدلائل ، الحلم — بضمتين — : ما يراه النائم فى نومه .

(١٠) الشمائل : الخلق — بالضم — ورقة الشمائل : سهولتها ولينها ، ألقى الشيء : طرحه ، وألقى إليه القول : أبلغه إياه ، والسلم — بالتحريك — الاستسلام والتسليم .

قلق ، ولا يستشعر لذة إلا على ألم ، يبحث عن واحد يأنس إليه فلا يجد إلا خياله هو ، ويتنصت إلى صوت يزيل وحشته فلا يسمع إلا كلام نفسه ، حتى تملكته الحيرة ، واستبدت به الأسقام ، فلم يكن إلا أن يتمنى أن تحمل القطا رسائل أشواقه إلى الوادى الذى فيه مدينة الرسول ﷺ ، أملا فى أن يشع على نفسه من أنواره ما يبدد عنه ما نزل به من شقاء وعناء ... فقال :

تكاءَدَتْنى خطوبٌ لو رميتُ بها	مناكب الأرض لم تثْبتْ على قدم[1]
فى بلدة مثلِ جَوْف العَيْر لستُ أرى	فيها سوى أُمَمٍ تحنو على صنم[2]
لا أستقر بها إلا على قلق	ولا ألَذُّ بها إلا على ألم
إذا تلفتُّ حولى لم أجد أثرا	إلّا خيالى ، ولم أسمع سوى كلمى
فمن يَرُدُّ عَلَى نَفْسى لُبانتها	أو مَن يُجير فؤادى من يد السَّقَم[3]
ليْت القَطا حين سارتْ غُدوةً حملتْ	عنى رسائلَ أشواقى إلى أضَم[4]
مرتْ علينا خِماصاً وهْى قاربةٌ	مَرَّ العواصف لا تلوى على إرَم[5]
لا تدرك العينُ منها حين نلْمحها	إلا مثالًا كلمح البرق فى الظُّلَم
كأنها أحرفٌ برقيَّةٌ نبضَتْ	بالسِّلْك فانتشرتْ فى السَّهْل والعَلم
لاشىء يسبقها إلا إذا اعتَقلتْ	بنانتى - فى مديح المصطفى - قلمى

محمد صلى الله عليه وسلم من أصوله :

وهكذا .. خلص الشاعر إلى تدوين الحديث عن الممدوح ﷺ ، كى يسبق تلك الطير السريعة فى إيصال أشواقه وآماله إليه ﷺ ، فبتلك المدائح وحدها يرجو الخلاص مما أصابه ، وبذلك الحديث الريق فحسب يجد متعة نفسه ، وراحة روحه ، واستشراف عقله !

وإذا كان تواضع البوصيرى ، وتهيبه الحديث عن رسول الله ﷺ إلا إذا كان على الهيئة المناسبة ، وسيطرة مشاعره ووجدانه العاطفى على مساره . إذا كان هذا قد جعل البوصيرى يحوم حوله ﷺ ، ويقصر حديثه على بعض شمائله ، دون التعرض المباشر لصلب الأحداث الواقعية .. فإن البارودى كان أجرأ من سلفه ، وأقوى عقلا ، وأملك لزمام عواطفه منه ؛ فقدم طرفاً عريضاً من الحوادث الحيوية التى واجهها ﷺ ، والتى دارت حول ميلاده ، ولابست

---

(١) تكاءده الأمر : شق عليه وصعب . الخطوب - جمع خطب - : الأمر الشديد يكثر فيه التخاطب ، مناكب - جمع منكب بفتح الميم وكسر الكاف - : النواصى .

(٢) العير - بفتح فسكون - الحمار الوحشى والأهلى .

(٣) اللبانة - بضم اللام - : الحاجة . السقم - بفتح السين والقاف - : طول المرض .

(٤) القطا - جمع قطاة - : نوع من اليمام يعيش فى الصحراء ، والغدوة - بضم فسكون - ما بين الفجر وطلوع الشمس وإضم - بكسر ففتح - : الوادى الذى فيه المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام .

(٥) الخماص - بكسر الخاء ، جمع خميص وخميصة - : من أضعفه الجوع ، الإرم - بكسر ففتح - : حجارة أو نحوها تنصب فى المفازة ليهتدى بها ، وإرم : مدينة كبيرة لعاد .

مساره ؛ مستمتعاً باجترار كل تلك المعلومات ، فى امتداد شعرى جعل قصيدته تقارب ثلاثة أمثال قصيدة البوصيرى – على ما أشرت إليه سابقاً – نافحا كل تلك الأحداث من عواطفه الجياشة ما يخرجها من دائرة البحث التاريخى ، ويجعلها تنبض بروح العمل الفنى ذى الوجدان الصادق !

ولذلك نراه فى الحديث عن نسبه ﷺ ، والتبشير بمقدمه ، يبدأ بالقفزات التاريخية فيقدم صورة مجملة له عرفه بها القاصى والدانى بعد أن عرفته الدنيا ؛ وكأنه بذلك يمهد السبيل أمام المتلقى ، كى يقع الحديث التالى منه موقع القبول – على ما فيه من غرابة مدهشة – فلا يتردد فى التسليم بمفرادته وإجماله !

إنه محمد ﷺ .. هو من سوف يدار حوله الحديث .. هو خاتم الرسل ، الذى خضعت له البرية على اختلاف أجناسها ؛ لأنه جاء مصطفى مختاراً ، تميز عن غيره بأنه سمير وحى الله تعالى ، وثمرة حكمة ربانية ومصدرها ، وعطاء سماحة ، وأمل كل محتاج .. بشر بمجيئه الرسل السابقون فى صور مختلفة ، فكان دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام ، إذ قال :[1] ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ ،

وكان سر ما قاله عيسى عليه السلام ، حين بشر قومه بمجيء رسول من بعده اسمه أحمد ؛ فانتقل بين سلسلة محجلة من الآباء ، بعد أن ظل نوراً مدخراً فى علم الله تعالى لذلك الدور الخطير ، ينتقل بين سلسلة منتقاه من الآباء والأمهات ، حتى استقر هذا النور فى أبيه المباشر عبدالله بن عبدالمطلب ، الذى وجه إلى اختيار آمنة بنت وهب لتكون زوجه التى شرفها المولى سبحانه بأن تكون أمه ﷺ :

محمد ، خاتم الرسل الذى خضعت — له البرية ، من عرب ، ومن عَجَم[2]
سميرُ وحى ، ومَجْنى حكمةٍ ، ونَدى — سماحةٍ ، وقِرى عافٍ ، ورىُّ ظم[3]
قد أبلغ الوحىُ عنه قبل بعثته — مسامع الرسْل قولا غيرَ مُنْكتم
فذاك دعوةُ إبراهيم خالقَه — وسرُّ ما قاله عيسى من القدم
أكرم به ، وبآباءٍ مُحجَّلةٍ — جاءت به غرةً فى الأعصر الدُّهُم[4]

(١) الآية ١٢٩ البقرة .

(٢) البرية : الخلق .

(٣) السمير : المسامر الذى يتحدث مع الآخرين ليلا ، ومجنى – بفتح فسكون – : مكان جنى الثمرة ، والندى : الجود والسخاء ، والسماحة : الجود والكرم ، والقرى – بكسر القاف – : ما يقدم إلى الضيف ، والعافى : كل طالب معروف .

(٤) المحجل : ما كان البياض منه فى موضع الخلاخيل ، والغرة : بياض فى جبهة الفرس . الدهم – بضمتين – جمع أدهم دهماء : ليلة تسع وعشرين من الشهر القمرى .

قد كان فى ملكـــوت الله مدَّخـــراً	لدعــوةٍ ، كان فيها صاحبَ العلَـــم[1]
نورٌ تنقـلَ فى الأكــوان ساطعُـــه	تنقُـلَ البـدر من صُلْب إلى رحـم[2]
حتـى استقـــر بعبـــدالله ، فانبلـــجت	أنـوارُ غرتــه ، كالبــدر فى البُهُـــم[3]
واختـــار آمنـــةَ العـــذراءَ صاحبـــةً	لفضلهـــا بين أهـــل الحل والحرم
كلاهما ــ فى العـلا ــ كفْءٌ لصاحِبـه	والكـفءُ فى المجد لا يُسْتام بالـــقيَم[4]
فأصبـــحت عنـــده فى بيت مكرُمـــةٍ	شيـدتْ دعائمـــه فى مَنْصبِ سَنِـــم[5]

ومن هذا الحديث المجمل عن محمد ﷺ ، انتقل البارودى ليحدثنا عن مولده ﷺ ، ابتداء من حمل أمه به ؛ قاصداً من وراء ذلك تقديم صورة عن تميزه ﷺ فى كل مراحل حياته ونموه .

مولده وماواكبه من أحداث :

فإذا كان قد قدم جزءاً من هذا التميز الذى بدا فى تسلسل آبائه ، وتنقله ــ قبل أن يولد ــ من أب إلى أب ، حتى استقر بعبدالله بن عبدالمطلب ، الذى ألهم التزوج من آمنة بنت وهب ... فإنه ــ فى مواصلته طريقه ــ ينتقل من ذلك إلى الحديث عن الحمل به ، وما عرض لآمنة فى أثناء حملها به من مظاهر التميز ؛ حتى كانت أما تختلف فى كل شىء عن مثيلاتها من الأمهات ، فلم تعان آمنة من مشقة الوحم ، وشع جسمها بأنوار أضاءت من بعيد قصور بصرى فى الشام ، وعندما حانت لحظة الوضع قدمت للإنسانية روحاً متسماً بنور الله ، فكان إشراقاً ليوم الاثنين يوم مولده من بين أيام الأسبوع ، وكان إشراقاً لشهر ربيع الأول شهر مولده من بين شهور السنة . وألهمت حليمة السعدية أن تتولى إرضاعه ، مستجيبة لدافع خفى تغلب فيها على ما واجهته من محاذير تدعوها إلى البعد عن إرضاع الأيتام لقلة ما ينتظر وراءهم من منح ؛ فكان ذلك فاتحة خير لها ولأسرتها ، حيث فاض بالدر ثدياها على الرغم من هزالها وضعفها ، وفاض بيتها بالخير الذى أفاءه الله عليها من كل حدب وصوب ، حتى اقتلع الجدب والعوز من بيتها وبيوت جيرانها .

وفى هذا البيت السعدى ظل الوليد اليتيم ينمو مكلوءاً برعاية الله من كل سوء ، حتى إذا تم ميقات الرضاع وانقضى الحولان وتهيأ للفطام عاد قوياً صحيح الجسم ، تبدو عليه محيا المجد والنجابة .

وفى مكة ــ بعد أن اجتاز مرحلة الطفولة ــ قام برعى الغنم ، فصرفه ذلك عما ينجرف فيه

---

(١) ملكوت الله : سلطانه وعظمته ، وعالم الغيب المختص بالأرواح .

(٢) الصلب : فقار الظهر .

(٣) بلج الصبح : أسفر فأنار ، والبهم ــ بضمتين ــ جمع بهيم : الأسود .

(٤) استام البائع بالسلعة : غالى .

(٥) المنصب ــ بفتح الميم وكسر الصاد ــ : الأصل ، والسنم ــ بفتح فكسر ــ : عالى القدر .

أترابه من أسباب اللعب واللهو . وفى أثناء رعيه الغنم طاف به ملكان كلفا بشق صدره ، ليزيلا عنه شوائب الهوى ، عصمة له وحفظاً .

ولما أشرك فى الرحلة التجارية التى ضمت تجارة عمه أبى طالب ، مر عند بصرى فى طريقه إلى الشام بصومعة الراهب بحيرا الذى أبصره محاطاً بأمارات التميز الإلهى ـ من تظليل الغمامة إياه وانعطاف الأغصان عليه ـ فنطق منبهاً عمه إلى أنه خاتم الرسل ، ومحذراً إياه من تعرض اليهود له بالإيذاء إذا ما عرفوا فيه ما أبصره فيه اليوم :

وحينما حملت بالمصطفى وضعت ... يدُ المشيئة عنها كُلفَة الوحَم[1]
ولاحَ من جسمها نورٌ أضاء لها ... قُصُورَ بُصرى بأرض الشّام من أمَمَ[2]
ومُذ أتى الوَضْع ـ وهْو الرفع منزلةً ـ ... جاءت بُروحٍ بنور الله متَّسِم[3]
ضاءت به غرة الإثنين ، وابتسمت ... عن حسنه فى ربيع روضةُ الحرم[4]
وأرضعته ـ ولم تيأس ـ حليمةُ من ... قول المراضع : إن البؤس فى اليَتَم[5]
ففاض بالدُّر ثدياها ، وقد غَنِيَتْ ... لياليا ، وهى لم تطعم ولم تَنَم[6]
وانهل بعد انقطاع رِسلُ شارِفها ... حتى غدت من رَفِيه العيش فى طُعُم[7]
فيمَّمَتْ أهلَها مملوءةً فَرَحا ... بما أتيح لها من أوْفَر النِّعَم[8]
وقلَّصَ الجَدبُ عنها فهى طاعمة ... من خير ما رفَدَتها ثَلَّةُ الغَنَم[9]
وكيف تُمْحَلُ أرض حلَّ ساحتها ... محمد ، وهو غيث الجودِ والكرم[10]
فلم يزل عندها ينمو وتكلؤُهُ ... رعايةُ الله من سَوْءٍ ومن وَصَم[11]

(١) الكلفة ـ بضم فسكون ـ : ما تتكلفه على مشقة . وحمت الحبلى ـ بكسر الحاء ـ : اشتهت شيئا على حبلها .

(٢) لاح الشىء يلوح : ظهر ، الأمم ـ بفتحتين ـ : القرب .

(٣) وضعت الحامل ولدها : ولدته ، متسم : متميز .

(٤) الغرة ـ بضم الغين ـ من كل شىء : أوله وأكرمه ، الاثنين : يوم الإثنين الذى ولد فيه رسول الله ﷺ ، وربيع : شهر ربيع ، الروضة : الأرض ذات الخضرة .

(٥) اليم ـ بفتحتين ـ : الحاجة .

(٦) فاض الإناء : امتلأ حتى طفح ، الدر ـ بفتح الدال ـ : اللبن ، غنى ـ بفتح فكسر ـ : استغنى .

(٧) انهل : ظهر ، وانهلت السماء : نزل مطرها ، والرسل ـ بكسر فسكون ـ : اللبن ، الشارف ـ بكسر الراء ـ من الدواب : المسن ، ومن الأشياء : القديم والعتيق ، والعيش الرفيه : المتسع اللين ، والطعم ـ بضم الطاء والعين ـ جمع طعوم ـ بفتح الطاء ـ : السمين .

(٨) يمم : قصد .

(٩) قلَّص الجدب : انضم وانكمش ، رفض فلانا ـ بفتح الراء والفاء ـ : أعانه ، والثلة ـ بفتح الثاء واللام المضعفة ـ : الصوف ، وجماعة الغنم .

(١٠) محل المكان ـ بفتح الميم والحاء ـ : أجدب .

(١١) كلأه الله : حفظه ، السوء ـ بفتح فسكون ـ : القبح ، والوصم ـ بفتح فسكون ـ : العيب ، والصدع ، ويبدو أن الشاعر حرك الصاد لضرورة الشعر .

حتى إذا تمَّ ميقاتُ الرضاع له ... حَوْلين أصبح ذا أيْدٍ على الفُطُم (١)

وجاء كالغصن مجدولًا ترِف على ... جبينه لمحاتُ المجد والفَهَم (٢)

قد تمَّ عقلًا ، وما تمتْ رضاعتُه ... وفاض حلماً ، ولم يبلغ مَدَى الحُلُم (٣)

فبينما هو يَرْعَى البَهْم طاف به ... شخصان من ملكوت الله ذى العِظَم (٤)

فأضجعاه ، وشقَّا صَدرَه بيدٍ ... رفيقةٍ ، لم يَبِتْ منها على ألَم

وبعد ما قضَيا من قلبه وَطَرًا ... توَليا غَسْله بالسلسبيل الشَّبِم (٥)

ما عالجا قَلْبه إلا ليَخلُص من ... شَوْب الهَوى ويعى قُدسيَّة الحِكَم (٦)

فيالها نِعْمةٌ لله خصَّ بها ... حَبيبَه وهو طفل غير مُحْتَلِم (٧)

وقال عنه بَحيرا حين أبْصره ... بأرض بُصْرى مقالًا غيرَ مُتَّهم (٨)

إذ ظلَّلته الغمامُ الغُرُّ وانْهَصرتْ ... ـ عَطفاً عليه ـ فروعُ الضَّالِ والسَّلَم (٩)

بأنه خاتم الرُّسل الكرام ، ومن ... به تزولُ صُرُوف البؤسِ والنِّقَم (١٠)

هذا ، وكم آية سارت له فَمحتْ ... بنورها ظُلْمةَ الأهوال والقُحَم (١١)

ما مر يوم له إلَّا وقلَّده ... صنائعا لم تَزَل فى الدهر كالقلم (١٢)

---

(١) الأيد : القوة ، الفطم ـ بضم الفاء والطاء ـ جمع الفطيم : المفطوم .

(٢) جدل الحبل ، فهو مجدول : أحكم فتله ، رف الطائر : رفرف ، والجبين : ما فوق الصدغ عن يمين الجبهة أو شمالها ، فهما جبينان . الفهم ـ بفتح فسكون ـ : جودة استعداد الذهن للاستنباط ، ويبدو أن التحريك هنا لضرورة الشعر .

(٣) فاض الإناء : امتلأ حتى طفح ، الحلم ـ بكسر فسكون ـ : الأناة وضبط النفس ، والحلم ـ بضمتين ـ : بلوغ الصبى مبلغ الرجال ، والمدى ـ بفتحتين ـ المسافة والغاية .

(٤) البهم ـ بفتح فسكون ـ جمع بهمة ـ بفتح فسكون ـ : الصغير من الضأن ، الملكوت : عالم الغيب المختص بالأرواح والنفوس والعجائب ، وملكوت الله : سلطانه وعظمته ، وملكه الخاص .

(٥) الوطر ـ بفتحتين ـ : الحاجة فيها مأرب وهمة ، السلسبيل : اسم عين فى الجنة ، أو وصف لكل عين عذبة سريعة الجرية ، والشبم ـ بفتح فكسر ـ : البارد .

(٦) الشوب ـ بفتح فسكون ـ : ما اختلط بغيره من الأشياء وبخاصة السوائل . الهوى : الميل والحب ، والقدسية : مصدر صناعى من القدس ـ بضم فسكون : البركة ، والحكم ـ جمع حكمة ـ : معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، والمقصود : يعى خصائص الحكم المقدسة .

(٧) المحتلم : احتلم الصبى : بلغ مبلغ الرجال .

(٨) بحيرا : اسم راهب .

(٩) الغر ـ بضم الغين ـ جمع أغر غراء : يقال : غر وجهه : أبيض ، انهصرت أغصان الشجرة : انعطفت ومالت حتى انكسرت من غير فصل . والضال : شجر السدر البرى ، والسلم ـ بفتحتين ـ : شجر من العضاه يدبغ به والعضاه ـ بكسر العين ـ كل شجر له شوك صغر أو كبر .

(١٠) الصروف جمع صرف ـ بفتح فسكون ـ : النوائب .

(١١) الهول : الأمر الشديد ، والقحم ـ بضم ففتح ـ جمع قحمه : الأمر العظيم الشاق لا يكاد يركبه أحد .

(١٢) الصنائع جمع صنيعة : كل ما عمل من خير أو إحسان .

محمد في صباه وشبابه :

ثم أخذ البارودى فى استعراض مرحلة الشباب لسيدنا محمد ﷺ ، لافتاً النظر إلى أبرز ما صادف فى تلك المرحلة من أحداث ، ولما كان له فيها من مواقف ، تكشف عن تواصل تلك السيرة ، وانطلاقها فى خط مستقيم إلى الغاية المرسومة له أزلًا فى علم الله تعالى .

والبوصيرى هنا ــ كما رأيناه فى الحديث عن مولده وصباه ــ يكاد يلتزم بالمنهج التاريخى العلمى ، حتى لتكاد الصورة تخلص لذلك البعد المادى الواقعى ، فلا نلمس من تصوراته هو ، وانفعلاته ، ووجدانياته إلا النذر اليسير الذى يختفى فى ثنايا الحقائق التاريخية المستمدة من كتب السيرة .

فإن هذا الصبى المصون المحفوظ قد استتم خمساً وعشرين عاماً وهو على ما هو من الرعاية الإلهية والحياطة ، فلم يلحقه فى تلك السن من النقائص ما يلحق أمثاله من الشباب ، ولكنه واصل نموه ونضجه العقلى ، وسلامته السلوكية ، حتى لقبته قريش بالأمين ، اعترافاً منهم بصدقه الملازم ، وأمانته ووفائه فى كل أحواله ، وحتى تمنت خديجة بنت خويلد أن يقبل إسناد تجارتها إليه ، سعياً منها إلى ما توسمته من خير تنتظره على يديه ، ولما وافق على الاتجار لها فى مالها اصطحب غلامها ميسرة فى رحلته التجارية إلى الشام ، حيث حقق أكبر ما يصبو إليه تاجر من ربح ، ولم يكن هذا منه ليثير الدهشة ، إذا تذكرنا أنه أعد لما هو أعظم من هذه التجارة وأضخم ، وهو أمر الدعوة إلى الدين الجديد !

ولما عاد من رحلته التجارية ، قص ميسرة على سيدته خديجة ما رأى فى تلك الرحلة على يدى محمد ﷺ ، وما كان من حديث أحد الرهبان عنه فى طريقهم ، حيث أخبر بأنه نبى هذه الأمة ، وما كان من الملكين اللذين كانا يحومان على جبينه ليظللاه ويحمياه من حر الشمس ؛ فوجه ميسرة بهذه الأحاديث والروايات رغبة خديجة إلى الزواج منه ، وجعلها تعيد التفكير فى أمر الزواج بعد أن ظلت ترفض راغبى الزواج من سادة قريش . وما درت أنها إنما تتحرك بقوة إلهية دبرت هذا الأمر ، فأصبحت هى وهو ﷺ بهذا الزواج فى صفاء دائم ، وود غير مقطوع :

حتى استتمَّ ــ ولا نُقصان يلْحقُه ــ خمسا وعشرين ، سِنَّ البارعِ الفَهِمِ[1]

ولقَّبتْه قريشٌ بالأمين على صِدْقِ الأمانةِ والإيفاءِ بالذِّمَمِ[2]

ودَّت خديجةُ أن يَرْعى تجارتَها ودادَ منتهِزٍ للخيرِ مُغْتَنِمِ[3]

فشدَّ عَزْمتها منه بمقتدرٍ ماضى الجَنَان إذا ماهَمَّ لم يَخِمِ[4]

---

(١) برع ــ بفتحتين ــ : فاق نظراءه فى أمر ، الفهم ــ بفتح فكسر ــ : من جاد استعداده للتصور والاستنباط .

(٢) الإيفاء بالعهد والوفاء به : إتمامه ، الذمم ــ جمع ذمة ــ : العهد والأمان والكفالة .

(٣) منتهز الفرصة : من اغتنمها وبادر إليها ، المغتنم : من عد الشىء غنيمة ، والتهزه : غنمه .

(٤) العزم والعزمة : إرادة الفعل وعقد النية عليه ، المقتدر : المتمكن من الشىء ، الجنان ــ بفتح الجيم ــ من كل شىء جوفه ، والقلب ، والماضى : النافذ ، الحاد السريع ، والجنان الماضى : القلب اليقظ النافذ إلى المقصود ، والوخم ــ بالتحريك وبالسكون ــ والوخامة : الثقل من كثرة الأكل .

وسـار مُعتزِمـاً للشــأم يَصْـحَبُـه ... فى السَّيْرِ مَيْسَرةُ المرضِىُّ فى الحَشَـمِ[1]

فما أنـاخَ بها حتى قضـى وطـرًا ... من كُلِّ ما رامه فى البيـع والسَّلَـم[2]

وكيف يخسر مَنْ لولاه ما رَبِحتْ ... تجـارةُ الدينِ فى سَهْلٍ وفى عَلَـم

فقـصَّ ميسـرةُ المأمـونُ قصتـه ... على خديجـة سَرْدًا غيـرَ مُنْعَجِـم[3]

ومـا رواه له كهـلٌ بصـومعـةٍ ... من الرَّهابيـن عن أسلافه القُـدُم[4]

فى دَوْحـةٍ عاجَ خير المرسلين بهـا ... من قبـل بعثتـه للعُـرب والعَجَـم[5]

هـذا نَبِـىٌّ ولم ينـزل بسـاحتها ... إلا نبـى كريـم النفـس والشِّيَـم[6]

وسيرةُ الملكيـن الحائميـن علـى ... جبينـه ليُظِـلَّاه مِـنَ التَّهَـم[7]

فكـان ما قَصَّـه أَصْـلًا لما وصَلَتْ ... به إلى الخَيْر عن قَصْـد ومُعتَـزَم[8]

أَحْسِنْ بها وُصْلـةً فى الله قد أخـذتْ ... بها على الدهـر عَقْدًا غَيْـرَ منْفَصِـم[9]

فأصبحـا فى صفـاءٍ غيـرِ منقَطِـع ... على الزمـان وَوُدٌّ غَيـرِ منْصَـرِمِ[10]

وفى ختام حديثه عن مرحلة شبابه ﷺ ، وما وقع فيها من أحداث ومواقف ، عرج ـ بمزيد من التفصيل ـ على حادث بناية الكعبة قبل بعثته ﷺ ، وما نشب فى أثناء بنائها من خلاف بينهم حول من ينال شرف وضع الركن فى مكانه ، وكل قبيلة تسعى لنيل هذا الشرف ، حتى كاد الخلاف يصبح حرباً لا يعلم مداها ولا نهايتها إلا الله تعالى ؛ لولا أن من الله عليهم بصوت حصيف نطق بالقول الفصل ، حين أشار بأن يحكموا بينهم أول من يأتى ، فارتضوا هذا الرأى ، وانتظروا الآتى ، فكان محمداً ، الذى نال من قبل ثقة قريش جميعها ، وحظى بصفة

---

(١) اعتزم للأمر : احتمله وصبر عليه ، ميسرة : غلام خديجة ، حشم الرجل : خاصته الذين يغضبون لغضبه ولما يصيبه من مكروه ، من عبيد أو أهل أو جيرة .

(٢) أناخ بالمكان : أقام به ، الوطر : الحاجة فيها مأرب وهمة ، رام الشىء يرومه : طلبه ، السلم ـ بالتحريك ـ : بيع شىء موصوف فى الذمة بثمن عاجل .

(٣) سرد الحديث ـ بفتحتين ـ سردًا : أتى به على ولاء وتتابع جيد السياق ، أعجم الكلام : أبهمه وذهب به إلى العجمة .

(٤) الكهل : من جاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين . الصومعة : متعبد الناسك ، وبيت العبادة عند النصارى . الرهابين ـ جمع رهبان ـ : المتعبدون فى صومعة من النصارى ، زهدا فى الدنيا ، واعتزالا لأهلها .

(٥) الدوحة : الشجرة العظيمة المتشعبة ذات الفروع الممتدة ، عاج بالمكان : أقام به .

(٦) الساحة : المكان الواسع ، يقال : نزل بساحته : نزل به ، الشيم ـ بكسر الشين وفتح الياء ـ جمع شيمة : الخلق .

(٧) السيرة : الحالة التى يكون عليها الإنسان وغيره . حام حول الشىء : دار حوله ، التهم ـ بفتح التاء والهاء ـ : الأرض المتصوبة إلى البحر ، وتهامة ـ بكسر التاء ـ أرض منخفضة بين ساحل البحر وبين الجبال فى الحجاز واليمن .

(٨) اعتزم الأمرَ : عزم عليه وقصده .

(٩) الوصلة ـ بضم فسكون ـ : الاتصال ، يقال بينهما وصلة ، والعقد ـ بفتح فسكون ـ : العهد ، والاتفاق بين طرفين يلتزم كل منهما بمقتضاه تنفيذ ما اتفقا عليه ، المنفصم : المنحل .

(١٠) الصفاء : الخلوص من الكدر ، والود ـ بضم الواو وفتحها ـ : الحب ، المنصرم : المنقطع .

الأمانة والعقل والحكمة . ولما أطلعوه على المشكلة كان عند حسن ظنهم به ، إذا استحضر ثوباً ، ثم بسطه ، ووضع الركن فوقه ، ثم طلب من ممثل كل قبيلة أن يمسك بأحد أطراف الثوب ، ثم يرفعوه بالركن ، حتى إذا حاذى مكانه من الكعبة ، مد ﷺ يده المباركة ليضعه فى مكانه ؛ فكان بذلك المسلك الحكيم برداً وسلاماً على قومه ، وتحقق للركن بذلك ما يزداد به تيهاً على أمثاله ، حيث أضيف إلى ما ناله من تكريم سابق ، هذا التكريم الجديد الذى توَّجه به حمل محمد إياه ووضعه فى مكانه ؛ إذ لولا نجاحه ﷺ فى فض تلك الخصومة ، لما عاد البناء كما كان ، ولولا مس الركن بيده ﷺ لما كان مهوى أفواه الحاج من كل حدب وصوب لينال كل فم رضوان الله بلثمه .

ومن هنا ... لا يملك البوصيرى نفسه من مواصلة المسيرة ، فلا يستطيع إلا أن يلتفت من الحديث عن الكعبة والركن وقريش ومحمد إلى الحديث عن أمانيه وآماله فى أن ينال من رضوان الله ما يمكنه من معانقة الركن والتزامه . والحديث عن إعجابه بلون الحجر الذى اشتهر به أمارة تكريم وحسن فكان هذا اللون منحة جمالية لشعر الشباب ، وللخال فى وجنة حسناء ليزيدها حسناً .

ثم يتساءل البارودى فى استنكار متعجب ممن لا يتوقع فخر البيت العتيق بمحمد وبما كان منه نحوه ؛ فلولا هدايته ﷺ لم يظهر العدل فى الأرض ، ولولا حكمته لم يعصم الله الأنام من كارثة كادت تتحقق ، وتصيب الجميع بالأهوال الجسام :

وحينما أجمعت أمرًا قريشٌ على	بناية البيت ذى الحُجَّاب والخَدم[1]
تجمَّعت فِرقُ الأحلاف واقتسمت	بناءه عن تراضٍ خيرَ مُقْتَسَم[2]
حتى إذا بلَغ البُنيانُ غايته	من موضعِ الركن بعد الكد والجَشَم[3]
تسابقوا طلباً للأجر واختصموا	فيمن يشد بناهُ كلُّ مُختصَم
وأقسم القومُ أن لاصُلح يعصمهم	من اقتحام المَنايا أيَّما قَسَم[4]
وأدخلوا حين جدَّ الأمرُ أيديَهُم	للشر فى جَفنَةٍ مملوءةٍ بِدم[5]

(١) الحجاب ـ جمع حاجب ـ : البواب ، خدم ـ جمع خادم ـ : من يقوم بحاجة البيت .

(٢) الأحلاف ـ جمع حلف ـ : المعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق .

(٣) الركن : أحد الجوانب التى يستند إليها الشيء ويقوم بها ، والمقصود به هنا الحجر الأسود ، الجشم ـ بفتحتين ـ : تكلف الأمر على مشقة ، والكد ـ بفتح الكاف ـ : الإلحاح فى محاولة الشيء .

(٤) عصم الشيء ـ بفتحتين ـ : حفظه ووقاه ومنعه ، اقتحم المكان : دخله عنوة ، والمنايا ـ جمع المنية ـ : الموت .

(٥) الجفنة ـ بفتح فسكون ـ : القصعة ، وكان من عادة العرب إذا جد الأمر المكروه أن يجتمع القوم حول قصعة مملوءة بالدم ، فيدخل كل يده فيها ، إعلانا منهم نشوب الحرب .

فقالَ ذو رأيهم : لا تَعْجلوا وخـــذوا بالحزْم ، فَهْو الذى يشفى من الحَزَم [1]

ليرضَ كل امرىءٍ منـــا بأول مَـــنْ يأتى ، فيَقْسِطُ فينا قِسْط مُحْتَكِـم [2]

فكان أول آت ـ بعدمـا اتفقـو ـ محمـــدٌ ، وهـــو فى الخيرات ذو قَدَمِ

فقـــالَ كلٌ : رضينـــا بالأمين على عِلْم ، فأكْـرِمْ به من عادلٍ حَكَـم

فأعلَمُـوه بما قد كـان ، واحتكمـوا إليه فى حَـلِّ هذا المُشكِلِ العَمَـم [3]

فمدَّ ثوبـاً ، وحطَّ الركنَ فى وَسَـطٍ منه ، وقال : ارفعوه جانبَ الرَّضَـم [4]

فنـالَ كل امرىءٍ حظـا بما حَمَلـت يـداه منه ، ولم يَعْـتِبْ على القِمَـم

حتـى إذا اقتربـوا تِلْقـاءَ مَوْضِعـه من جانب البيت ذى الأرْكان والدَّعَم [5]

مَدَّ الـرسولُ يدًا منــه مباركـــةً بَنَتْـــه فى صَدَفٍ من باذخٍ سَنِـم [6]

فَلْيـزْدَد الركـنُ تيها ، حيث نالَ به فخْرًا أقام له الدنيـا عَلَـى قَدَم [7]

لو لم تكـن يدُه مسَّتْه حين بُنى ما كان أصبـح ملْثومـاً بكـل فم [8]

يا ليتنـى ـ والأمـانى ربما صَدَقت ـ أحظـى بمعتَنَـق منــه وملتَـزَم ! [9]

يا حبذا صِبْغةً من حُسنـه أخـذتْ منها الشبيبـةُ لونَ العُـذْر واللِّمَـم [10]

كالخال فى وَجْنـةٍ زيـدتْ محاسنُهـا بنقطـةٍ منــه أضعافـاً من القِيَـم [11]

---

(1) الحزم ـ بفتح فسكون ـ : فى الرأى : ضبطه وإتقانه ، يقال : حزم أمره ـ بفتحتين ـ يحزم بكسر العين ـ والحزم ـ بفتحتين ـ الإصابة بالغصة ، وأصل فعله حزم ـ بفتح فكسر ـ يحزم بفتح العين .

(2) اقسط ـ بفتحتين ـ : عدل ، واحتكم فى الشىء والأمر : تصرف فيه كما يشاء .

(3) احتكم إليه : رفع إليه خصومته ، والعمم ـ بفتحتين ـ العام من كل شىء .

(4) الرضم ـ بفتحتين ـ جمع رضمة ـ بفتحتين ـ : الحجر أو الصخرة العظيمة .

(5) تلقاء : مصدر لقى ، يقال : سرنى لقاؤك وتلقاؤك ، وتوسعوا فيه فاستعملوه ظرف مكان بمعنى جهة اللقاء والمقابلة ، الدعم ـ بكسر ففتح ـ جمع الدعمة ـ بكسر فسكون ـ : ما يسند به الشىء .

(6) الصدف ـ بفتحتين ـ : كل شىء مرتفع عظيم كالهدف والحائط والجبل ، وهو كذلك : الناحية والجانب . الباذخ : العالى فعله : بذخ من باب نصر وفهم ، والسنم ـ بفتح فكسر ـ : الشىء المرتفع على وجه الأرض .

(7) التيه : التكبر .

(8) لثم فمه : قبله .

(9) الأمانى ـ جمع أمنية ـ : البغية ، حظى بالشىء : نال منه حظا ، المعتنق ـ بفتح النون ـ : مصدر ميمى بمعنى الاعتناق ، يقال : اعتنق الأمر : لزمه ، والملتزم ـ بفتح الزاى ـ : مصدر ميمى بمعنى الالتزام .

(10) الصبغة ـ بكسر الصاد ـ : ما يصبغ به ، والهيئة المكتسبة بالصبغ ، والمقصود هنا لون الحجر ، الشبيبة : الشباب ، العذر ـ بسكون الذال لضرورة الشعر ـ هو العذر ـ بضم العين والذال ـ جمع عذار ـ بكسر العين ـ : جانب لحية الغلام ، واللمم ـ بكسر ففتح ـ : جمع لمة : شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن .

(11) الخال : شامة أو نكتة سوداء فى البدن ، الوجنة : ما ارتفع من الخدين ، والقيم ـ بكسر ففتح ـ جمع القيمة : القدر .

وكيف لا يفخر البيتُ العتيق به	وقد بنَتْه يدٌ فياضَةُ النِّعَم[1]
أكرِمْ به وازعاً ، لولا هدايتُهُ	لم يَظْهر العدلُ فى أرض ولم يقُمُ[2]
هذا الذى عَصَم الله الأنام به	من كل هَوْلٍ من الأهوال مخترِمِ[3]

البعثة وما استقبلت به من قريش :

وينتقل البارودى من حديثه عن مرحلة الشباب ، وما تحقق على يديه ﷺ فيها من معجزات ، أشار إلى طرف منها ، ليبدأ الحديث عن مرحلة البعثة ؛ فحين أدرك ﷺ سن الأربعين ، حباه الله كثيراً من الأمارات اللافتة للنظر إلى ما هو مقبل عليه ، فما مر على صخرة أو شجرة إلا استقبلته من بعيد بالتحية ، حتى إذا حانت اللحظة المقدرة فى علم الله تعالى لابتداء بعثه ، وتكليفه بأمر الدعوة إلى الله ، نهض ملبياً أمر الله تعالى ، جاهراً بندائه الجميع ، فلم يبق أحد من المحيطين به إلا وصلته تلك الدعوة .

ومن هنا ... بدأ يواجه مرحلة جديدة من الجهاد والكفاح ؛ إذ لم يجد من كل من بلغته الدعوة ما هو منتظر مرجو من الاستجابة ، فقد انقسم الناس فى هذا الشأن أحزاباً ، وكان أول من استجاب لدعوته ، وتابعه فى هديه عن يقين وثبات من أهل بيته الأقربين السيدة خديجة ، وعلى ابن أبى طالب ، ثم بدأت الاستجابات تتوالى من معارفه وأصدقائه وغير هؤلاء وأولئك ممن تكشفت لهم الحقيقة ، وأراد الله بهم الخير والرشاد . بينما المصطفى ﷺ فى طريق الدعوة مستمر دون توقف ، لا يترك مناسبة إلا ينتهزها ، ولا يقابل أحداً إلا دعاه فى غير تردد ، على الرغم من أن من الناس من استقبل ذلك منه بالترحاب والاستجابة ، ومنهم من صد وعاند ، فى غير مبالاة ولا حياء .

وكانت الكثرة من قريش فى جبهة الرفض والمعارضة ، مستسلمين لما استبد بهم من جهل هوى بهم فى الحضيض ، ودفعهم إلى اتخاذ الموقف المضاد ، فواجهوا كل من استجاب لدعوة الحق بالتعذيب والتنكيل ، منتهكين فى سبيل ذلك الحرمات ، متجاهلين ما استقر على المدى البعيد من أعراف ، وتزعم أبو جهل هذه الطائفة الضالة فى حربها تلك ، منفسا عن أحقاده الدفينة ، وحسده محمد ﷺ ، فجاهر محمداً بالعداء ولم يقصر عداءه عليه بل شمل به كل من يفكر فى متابعة محمد ، وأخذ على عاتقه تسفيه كل من تحدثه نفسه بذلك ، متوسلا إلى ذلك بشتى الوسائل ، من تهديد ووعيد ، ومكر وخداع ، شافيا بذلك أحقاده الدفينة ، وغله

---

(١) البيت العتيق : الكعبة . الفياض : مبالغة الفائض ، يقال رجل فياض : كثير العطاء . النعم ـ بكسر ففتح ـ جمع النعمة : ما أنعم به من رزق ومال وغيره .

(٢) الوازع : المانع والزاجر .

(٣) عصمه ـ بفتحتين ـ من الشر أو الخطأ ـ : حفظه ووقاه ومنعه ، الأنام : الخلق ، الهول ـ بفتح فسكون ـ : الأمر الشديد المفزع ، المخترم ـ بكسر الراء ـ : اسم فاعل فعله اخترم ، يقال : اخترمته المنية : أخذته .

المضطرم ، فلم يفده نور الحق على الرغم من انتشاره ، ولم يستجب لداعى الهدى على الرغم من بلوغه كل أذن ، ومخالجته كل عقل ؛ لأن الحقد الدفين استبد به فأعماه ، ولأن الغل المضطرم ملك عليه حسه فأصمه ..!

وكان موقف أبو جهل من محمد ﷺ ودعوته مثيرا حرك تفكير البارودى ، فانتقل به من خصوصية أبى جهل إلى النظرة العامة التى تمثلت فى مجموعة من النظرات الحكيمة ، توالت فى تصويره الموقف الشاذ الذى يكون عليه كل ضال مماثل لأبى جهل ، فالقلب الذى يلم به الغل لا يخلص إلى الحق والهدى ، والحقد دائما كالنار يبدو أثره على وجه الحقود مهما حاول إخفاءه ، ولا عجب فى ذلك لأن الأعمى لا يمكن أن يبصر النور .

ومن هنا ينتقل بنظراته العامة إلى عالم الجزاء ، حيث يتقرر أن الجزاء من جنس العمل ، وأن النفس مسئولة عما تجترمه ، فإذا توهم ظالم أن ما جنت يداه قد طواه النسيان ، فلا ينس أن عين الله لا تنام ، وإذا اشتد النكال بأصحاب الدعوات فلا عجب فى ذلك لأن هذه هى سنة الله التى أقام الدنيا عليها .

وحين أدرك سِنَّ الأربعين وما ... مِنْ قبله مَبْلَغٌ للعِلْم والحِكَم[١]
حباه ذو العرش برهاناً أراه به ... آيات حكمته فى عالم الحُلُم[٢]
فكان يَمضى ليرعَى أنسَ وحشته ... فى شاسع ما به للخَلْق من إِرَم[٣]
فما يَمُرُّ على صخرٍ ولا شجر ... إلا وحياه بالتسليم مِنْ أَمَم[٤]
حتى إذا حان أمرُ الغيْب وانحسرت ... أستارُه عن ضَمير اللوح والقَلَم[٥]
نادى بدعوته جَهْرًا فأسمعها ... ـ فى كل ناحيةٍ ـ مَنْ كان ذا صمم
فكان أولُ من فى الدين تابَعه ... خديجةٌ وعلىٌّ ثابتُ القدم
ثم استجابت رجالٌ دون أسرته ... وفى الأباعد ما يُغنى عن الرَّحِم[٦]

---

(١) الحكم ـ بكسر ففتح ـ جمع حكمة : معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم .

(٢) حبا فلان حباء وحبوة : أعطاه ، العرش : الملك ، وذو العرش : الله سبحانه وتعالى ، البرهان : الحجة البينة الفاصلة ، والآية العلامة والأمارة ، حلم الصبى ـ بفتحتين ـ يحلم حلماً ـ بضم اللام وسكونها ـ : أدرك وبلغ مبلغ الرجال .

(٣) يمضى : يذهب ، الأنس : ذهاب الوحشة ، شسع الشىء : بعد ، الإرم ـ بكسر ففتح ـ : الحجارة أو نحوها تنصب فى المفازة ليهتدى بها .

(٤) الأمم ـ بفتحتين ـ : القرب .

(٥) حان : قرب وقته ، وأمر الغيب : يعنى موعد البعثة ، انحسر الشىء : انكشف ، الأستار ـ جمع الستر ـ بكسر السين ـ : ما يستر به ، اللوح : اللوح المحفوظ ، والمقصود بضمير اللوح : ما ضمنه اللوح من أسرار .

(٦) دون : ظرف مكان منصوب ، وهو بحسب ما يضاف إليه ، وهو هنا بمعنى : غير ، والأباعد جمع الأبعد : مقابل الأقرب ، والرحم ـ بفتح فكسر أو سكون أو كسر فسكون ـ : القرابة أو أسبابها ، يذكر ويؤنث .

ومن أراد به الرحمن مكرُمَةً ... هداه للرشد فى داجٍ من الظلَم[1]
ثم استمر رسول الله معتزمًا ... يدعو إلى ربِّه فى كل مُلْتأَم[2]
والناس منهم رشيد يستجيب له ... طوعاً ، ومنهم غوى غيرُ محتَشِم[3]
حتى استرابت قريش ، واستبد بها ... جهلٌ تردَّت به فى مارِج ضَرِم[4]
وعذبوا أهل دين الله ، وانتهكوا ... محارما أعقبتهم لهفة الندم[5]
وقام يدعو أبو جهل عشيرته ... إلى الضلال ، ولم يجنح إلى سلم[6]
يُبدى خِداعاً ، ويُخفى ما تضمنه ... ضميرُه من غَمَرات الحقْد والسَّدَم[7]
لا يعلم القلبُ من غِلٍّ ألمَّ به ... يَنْقَى الأديمُ ، ويَبْقى موضِعُ الحَلَمَ[8]
والحقدُ كالنار ، إن أخفيته ظهرت ... منه علائم فوق الوجه كالحُمَم[9]
لا يُبصر الحقَّ من جهل أحاط به ... وكيف يبصر نورَ الحق ، وهو عَمِ
كل امرىء واجدٌ ما قدَّمت يُده ... إذا استوى قائماً من هُوة الأَدَم[10]
والخيرُ والشر فى الدنيا مكافأةٌ ... والنفسُ مسئولة عن كل مجترَم
فلا ينمْ ظالم عما جنت يُده ... على العباد ، فعَيْن الله لم تنم
ولم يزل أهل دين الله فى نصب ... مما يلاقون من كَرْب ومن زَأَم[11]

ولما نجح أبو جهل وأمثاله من تأليب قريش على محمد ومن تابعه ، اشتدوا فى تعذيب المستضعفين ، وتتبع محمد والمسلمين عموماً فى كل موقع بالكيد والإعنات حتى أصبح ذلك الموقف منهم معلنا من غير مواربة ، لم يجد محمد ﷺ بدا من توجيه من يخشى على نفسه الفتنة

(١) الليل الداجي : الذى تمت ظلمته حتى ألبست كل شيء ، والظلم ـ بضم ففتح ـ جمع ظلمة : ذهاب النور .

(٢) اعتزم للأمر : احتمله وصبر عليه ، واعتزم فلان الطريق : مضى فيه ولم ينثن . الملتأم ـ بفتح الهمزة ـ : المجتمع ، يقال : التأم الشيء : اجتمع .

(٣) الرشيد : حسن التقدير ، الغوى ـ المبالغة فى الغى بفتح الغين ـ : الممعن فى الضلال ، المحتشم : المستحيى .

(٤) رابه الأمر : جعله شاكا ، استبد الجهل بهم : غلبهم فلم يقدروا على ضبطه ، تردى : سقط ، المارج : الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد ، الضرم ـ بفتح فكسر ـ : شديد الاتقاد .

(٥) انتهك حرمة الله : نقض العهد ، اللهفة : الحسرة على الفائت .

(٦) جنح ـ بفتحتين ـ : مال .

(٧) يبدى : يظهر ، الغمرات ـ بفتحتين ـ جمع غمرة : الشدة ، الحقد : الانطواء على العداوة ، سدم ـ بفتح فكسر ـ سدماً ـ بفتحتين ـ : أصابه هم مع حزن .

(٨) الغل ـ بكسر الغين ـ : العداوة والحقد الدفين ، ألم به : أتاه فنزل به ، نقى ـ بفتح فكسر ـ ينقى : نظف ، الأديم : الجلد ، حلم الجلد ـ بفتح فكسر ـ حلما ـ بفتحتين ـ : وقع فيه دود فتثقب وفسد .

(٩) الحمم ـ بضم ففتح ـ : كل ما احترق من النار ، والعلائم جمع علامة .

(١٠) الأدم ـ بفتحتين ـ جمع أديم : الأرض ، وهوة الأدم : القبر .

(١١) النصب ـ بالتحريك ـ : التعب ، الكرب ـ بفتح فسكون ـ : الحزن والغم ، زأم فلانا : ذعره ، وزأم البرد فلانا : ملأ جسمه حتى ارتعد .

والإيذاء من أصحابه إلى الهجرة للحبشة ، فكانت تلك الهجرة الأولى ، حيث استقبلهم النجاشي ملك الحبشة بالتكريم والترحيب ، ومنحهم من حرية الحركة الآمنة ما مكنهم من استرداد شيء من راحة وطمأنينة فقدوه فى وطنهم ، وبين ظهرانى أهلهم .

ولكن المشركين لم يستسلموا أمام تلك الانتصارات التى حققها محمد ﷺ فى نشر دعوته ، فانبرى طائفة من حاقديهم يؤلبون رءوس القبائل القرشية لاتخاذ إجراء آخر يضيقون به على المسلمين الخناق ، ويكرهون بقية الهاشميين على إسلام محمد إليهم ؛ فكانت تلك الصحيفة التى تضمنت اجتماعهم على مقاطعة المسلمين وسائر بنى هاشم ، حتى يلجئوهم إلى التسليم والخضوع لما يرون من العودة إلى دين الآباء .

بيد إن هذه الصحيفة أثمرت غير ما توقع المشركون ، فقد جاءت وصمة عار فى أوجه المشركين ، حيث أصبحوا مضغة فى أفواه العرب ، لما فيها من خروج على الأعراف العربية ، حتى اضطر طائفة من عقلاء القوم إلى إعلان الخروج على ما تضمنته من عهود ومواثيق ، فكان مكر الله خيراً من مكرهم ، وتبين أن تدبير الله أقوى من تدبيرهم ، مما هيأ بعض القبائل إلى رؤية الحقيقة . فاهتدوا بعد ضلال ، وتابعوا محمداً فى دعوته ، وتخلصوا مما كانوا فيه من ضلال وتيه ، كما كان من قبيلة دوس على الرغم من محاولات المشركين .

حتى إذا لم يَعُد فى الأمر منزَعةٌ ... وأصبح الشر جَهْرا غير منكتِم[١]
ساروا إلى الهجرة الأولى وما قصدوا ... غيرَ النجاشىِّ مَلْكاً صادق الذمم[٢]
فأصبحوا عنده فى ظلِّ مملكة ... حصينةٍ ، وذمامٍ غير منجذِم[٣]
من أنكر الضيْمَ لم يأنس بصحبته ... ومن أحاطتْ به الأهوالُ لم يُقِم[٤]
ومُذْ رأى المشركون الدينَ قد وضحت ... سماؤه ، وانجلت عن صِمَّة الصِّمِم[٥]
تألَّبوا رغبةً فى الشر وائتمروا ... على الصحيفة من غيظٍ ومن وَغَم[٦]
صحيفة وسَمَت بالغَدْر أوجُهَهُم ... والغدرُ يعلَقُ بالأعراض كالدَّسَم[٧]

(١) المنزعة ـ بفتح الميم وكسرها ، وفتح الزاى ـ : الخصومة .

(٢) الذمم ـ جمع ذمة ـ : العهد والأمان والكفالة .

(٣) الذمام : العهد والأمان والكفالة جمعه أذمة ، انجذم الشيء من أصله : انقطع .

(٤) أنكر الشيء : جهله ، الضيم : الظلم أو الإذلال ، أنس بالشيء وإليه ـ بفتح العين وكسرها ـ : سكن إليه وذهبت به وحشته ، الأهوال ـ جمع الهول ـ : المفزع ، والأمر الشديد ، أقام بالمكان : لبث فيه واتخذه موطنا .

(٥) جلا فلان الأمر فانجلى : أظهره وكشفه ووضحه ، الصمة ـ بكسر الصاد وتشديد الميم المفتوحة ـ : السداد ، والصمم ـ بفتح فكسر ـ مبالغة فى الصمة ، يقال رجل صمة : رجل شجاع .

(٦) تألبوا : تجمعوا ، ائتمر القوم : تشاوروا ، الوغم ـ بفتحتين ـ : الحقد .

(٧) وسم فلانا بالغدر : ميزه به ، الغدر : نقض العهد وترك الوفاء به ، الأعراض ـ جمع عرض بكسر العين وسكون الراء ـ : ما يمدح ويذم من الإنسان ، الدسم ـ بفتحتين ـ : الوسخ والقذر .

فكشَّـــف اللهُ منها غُمـــةً نزلت ... بالمؤمنين ، وربِّـــيِّ كاشفُ الغُمَـــم[1]

من أضمـرَ السوءَ جازاه الإلـــه به ... ومن وعى البغْىَ لم يَسْلم من النِّقم[2]

كَنى الطفيلَ بنَ عمرٍو لُمعةٌ ظهرت ... فى سَوْطه ، فأنارت سُدْفةَ القَتَم[3]

هدى بها الله دَوْساً من ضلالتها ... فتابعت أمْــر داعيها ، ولم تَهِــم[4]

من معجزاته صلى الله عليه وسلم :

ومن حديثه عن الآية التى أعان الله بها عمرا فى دعوته قومه الدوس ، بعد أن أسلم ، وسأل رسول الله ﷺ أن يدعو الله له بأن يجعل له آية تعينه فى دعوة قومه حين يعود إليهم .. من هذا الحديث انطلق البارودى مستعرضا بعض المعجزات التى وقعت على يديه ﷺ ، وفى مقدمة تلك المعجزات ما كان بينه ﷺ وبين أبى جهل حين قدم مكة رجل من إراش بإبل له ، فابتاعها منه أبو جهل ، ثم مطله بأثمانها ، فأقبل الإراشى حتى وقف على ناد من قريش ، ورسول الله ﷺ فى ناحية المسجد جالس ، فقال : يا معشر قريش ، من رجل يؤدينى على أبى الحكم بن هشام ، فإنى رجل غريب ، وقد غلبنى على حقى ، فقال له أهل ذلك المجلس : أترى ذلك الرجل الجالس – يقصدون رسول الله ﷺ ، وهم يهزءون به لما يعلمون ما بينه وبين أبى جهل من العداوة – اذهب إليه فإنه يؤديك عليه ، فأقبل الإراشى حتى وقف على رسول الله ﷺ ، فقال : يا عبد الله إن أبا الحكم بن هشام قد غلبنى على حق لى قبله ، وأنا رجل غريب ، وقد سألت هؤلاء القوم على من يؤدينى عليه ، فأشاروا لى إليك ، فخذ لى حقى منه ، يرحمك الله ، قال : انطلق إليه ، وقام معه رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قام معه ، قالوا لرجل ممن معهم : اتبعه ، فانظر ماذا يصنع . فلما جاءه ﷺ ضرب عليه بابه ، فقال : من هذا ؟ قال : محمد ، فاخرج إلى ، فخرج إليه وما فى وجهه من رائحة ، قد انتقع لونه ، فقال : أعط هذا الرجل حقه . قال : نعم ، لا تبرح حتى أعطيه الذى له ، قال : فدخل ، ثم خرج إليه بحقه فدفعه إليه . فأقبل الإراشى حتى وقف على ذلك المجلس ، فقال : جزاه الله خيراً ، فقد والله أخذ لى حقى . فلما جاءهم التابع وأخبرهم بما رأى ، قالوا لأبى جهل حين جاء : ويلك ! ما لك ؟! قال : ويحكم ! والله ما هو

---

(1) كشف – بالتضعيف – : مبالغة فى كشف الشىء عنه : رفع عنه ما يواريه ، الغمة – بضم الغين – : الغم والكرب ، أو الحزن يحصل للقلب بسبب ما حصل ، والغمم – بضم ففتح – : جمع الغمة .

(2) أضمر فى نفسه أمرا : عزم عليه بقلبه ، وعى الشىء : جمعه فى وعاء ، البغى : الظلم ، النقم – بكسر ففتح – جمع النقمة : العقوبة .

(3) كنى الرجل بكذا : سماه به ، اللمعة – بضم فسكون – : كل لون خالف لونا ، أو النقعة من السواد خاصة ، السوط : ما يضرب به من جلد سواء كان مضفورا أم لم يكن ، السدفة – بضم فسكون – : الظلمة ، القتم : الغبار ، يشير البارودى بذلك إلى ما كان من أمر الطفيل بن عمرو الدوسى حين أسلم ، ودعا رسول الله ﷺ أن يجعل الله له آية يستعين بها فى هداية قومه ، فكانت نورا فى رأس سوطه .

(4) دوس – بفتح فسكون – : قبيلة الطفيل بن عمرو ، هام يهيم : خرج على وجهه فى الأرض لا يدرى أين يتوجه .

إلا أن ضرب على بابى ، وسمعت صوته ، فملئت رعباً ، ثم خرجت إليه ، وإن فوق رأسه لفحلا من الإبل ، ما رأيت مثل هامته ولا قصرته[1] ولا أنيابه لفحل قط ، والله لو أبيت لأكلنى .

ثم أشار البارودى إلى ما كان من أمره ﷺ حين نادى شجرة عظيمة ، فلبت نداءه ، ناشرة أغصانها عليه لتظلله وتقيه حر الشمس حانية عليه حنو الأم الشقيقة .

وانتقل من ذلك إلى الحديث عن ليلة الإسراء ، وما كان فيها من تكريم له ﷺ ، سواء فى إسرائه إلى بيت المقدس ، أم فى عروجه إلى السماوات العلا ، حيث نال شرف لقاء ربه ، ومناجاته هناك ، حيث أكرم الله أمته بفرض الصلاة عليها تطهيراً لها من دنس الحياة الدنيا :

وفى الإراشِىِّ للأقوام معتَبر	إذ جاء مكة فى ذَوْد من النَّعم[2]
فباعها من أبى جهل فماطله	بحقه ، وتمادى غيرَ محتشِم[3]
فجاء منتصِرًا يشكو ظُلامته	إلى النبى ، ونعم العونُ فى الإِزَم[4]
فقام مُبتدِرًا يسعى لنُصرته	ونُصرةُ الحق شأنُ المرء ذى الهمم[5]
فدقَّ بابَ أبى جهلٍ فجاء له	طوعا يجُرُّ عِنانَ الخائفِ الرَّزِم[6]
فحين لاقى رسولَ الله لاحَ له	فحل يمُدُّ إليه النابَ من أطَم[7]
فهاله ما رأى ، فارتدَّ منزعجاً	وعاد بالنقد بعد المطل عن رَغَم[8]
أتلك أم حينَ نادى سرحة فأتت	إليه منشورة الأغصان كالجُمَم[9]

(١) هامة العمل : رأسه ، وقصرته ـ بفتحتين ـ : أصل عنقه .

(٢) الإراشى : نسبة إلى إراش ، رجل بدوى وقعت له الأحداث مع أبى جهل ، اعتبر بالحدث : اتعظ به ، الذود : القطيع من الإبل بين الثلاث إلى العشر ، النعم ـ بفتحتين ـ : المال السائم ، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل .

(٣) ماطله بحقه : أجل موعد الوفاء به مرة بعد الأخرى ، تمادى فى الأمر : بلغ فيه الغاية ، احتشم : استحيا .

(٤) الظلامة ـ بضم الظاء ـ : ما تظلمه الرجل ، الإزم ـ بكسر ففتح ـ جمع الأزمة : الضيق والشدة .

(٥) ابتدره بكذا : عاجله به ، الهمم ـ جمع الهمة ـ : العزم القوى .

(٦) العنان ـ بكسر العين ـ : سير اللجام الذى تمسك به الدابة ، الرزم ـ بفتح فكسر ـ : مبالغة فى الرازم : الساقط من الإعياء والهزال ، أو القائم فى مكانه لا يتحرك من الهزال .

(٧) لاح له : ظهر ، الفحل : الذكر القوى من كل حيوان ، الناب : السن بجانب الرباعية ، أطم ـ بفتح فكسر ـ أطما ـ بالتحريك ـ : غضب .

(٨) هال الأمر فلانا : أفزعه ، الرغم ـ بالتحريك ـ : الإكراه على العمل .

(٩) السرحة : الشجرة العظيمة الطويلة ، الجمم ـ بضم ففتح ـ جمع الجمة : ما ترامى من شعر الإنسان على المنكبين .

حَنَت عليــه حُنُـــو الأم من شفـــق ورفرفت فوقَ ذاك الحسن من رَحِم[١]
جاءتـه طوعـاً ، وعـادت حين قال لها عودى ، ولـو خُلِّيَتْ للشوق لم تَرِم[٢]
وحبَّـــذا ليلـــةُ الإسراء حين سرى ليـلا إلى المسجــد الأقصى بلا أتَــم[٣]
رأى به من كرام الرسْــل طائفـــةً فأمَّهـــم ، ثم صلى خاشعـــا بِهِـــمِ
بل حبـــذا نهضةُ المعـــراج حين سما به إلى مشهـــد فى العـــز لم يُرَم[٤]
سما إلى الفـــلَك الأعلى فنــــال به قدرا يَجِـل عن التشبيــه فى العِظَـم[٥]
وسار فى سبَحـاتِ النُّـور مُرْتقيـــا إلى مدارجَ أعــيت كل معتـــزم[٦]
وفـاز بالجوهـــر المكنـــون من كِلَـــم ليْست إذا قُرنت بالـوصف كالكَلِـمَ[٧]
سِـــرٌّ تَحــارُ به الألبـــابُ قاصِرةً ونِعمةٌ لم تكـن فى الدهـــر كالنِّعَــم[٨]
هيهات يبلـغُ فهـــمُ كنـــه ما بلَـــغت قُرباه منه ، وقـد ناجاه من أمَـــم[٩]
فيـــا لها وُصلـــةً نال الحبـــيبُ بها ما لم يَنَلْه من التكـريم ذو نَسَــم[١٠]
فاقت جميـعَ الليـــالى ، فهـــى زاهــرةٌ بحسنها ، كزهـور النــار فى العَلَــم[١١]
هذا ، وقـــــد فرض الله الصلاة على عبـاده ، وهداهـــم واضح اللَّقَـــم[١٢]
فسارَعـوا نحو ديـــن الله ، وانتصبـــوا إلى العبـــادة ، لا يألـــون من سأم[١٣]

الصمود أمام محاولات قريش :

وبعد هذا الاستعراض لبعض المعجزات التى جرت تنبيها إلى حقيقة محمد ﷺ ، وتصديقاً له فى دعوته .. عاد البارودى إلى الحديث عنه ﷺ فى دعوته ، ونهوضه بأمرها فى غير كلل

(١) الرخم ـ بفتحتين ـ : المحبة والمودة ، يقال : رخمه ـ بكسر العين ـ رخما : عطف عليه .
(٢) خليت : تركت ، لم ترم : لم تفارق ، يقال : رام مكانه : فارقه .
(٣) الأتم ـ بالفتح ـ : البطء ، يقال : أتم ـ بكسر العين ـ فى سيره : أبطأ .
(٤) المعراج : المصعد والسلم ، سما : علا وارتفع ، المشهد : المجتمع ، رامه يرومه : طلبه .
(٥) الفلك ـ بالفتح ـ : الفضاء يدور فيه النجم أو الكوكب . يجل : يعظم .
(٦) السبحات ـ بالتحريك ـ جمع سبحة ـ بفتح فسكون ـ : الجرى والعوم ، المدارج : جمع مدرج : المسالك والطرق المنعطفة ، أعيا عليه الأمر : أعجزه ، المعتزم للأمر : من احتمله وصبر عليه .
(٧) الجوهر من الأحجار : كل ما يستخرج منه شىء ينتفع به ، المكنون : المخفى لم تصل إليه الأيدى ، الكلم ـ بفتح فسكون ـ جمع كلمة ، وكذا الكلم بكسر ففتح .
(٨) الألباب ـ جمع لب ـ / العقل ، قاصرة : عاجزة ، النعمة ـ بكسر فسكون ـ : ما أنعم به من رزق ومال غيره ، جمعها : النعم بكسر ففتح .
(٩) هيهات : اسم فعل ماض يفيد البعد ، الكنه ـ بضم فسكون ـ : جوهر الشىء وحقيقته ، ناجاه : ساره ، الأمم : القرب .
(١٠) الوصل ـ بضم فسكون ـ : الاتصال ، النسم ـ بالتحريك ـ : نفس الروح .
(١١) فاق أصحابه : فضلهم وصار خيرا منهم ، الزاهرة : المشرقة المتلألئة ، زهر زهورا : تلألأ وأشرق ، العلم ـ بفتحتين ـ : الجبل .
(١٢) وضح : ظهر وبان ، اللقم ـ بفتحتين ـ : الطريق الواضح .
(١٣) انتصب للعبادة : قام لها وتهيأ ، ألا ، يألو : فتر وضعف ، وألا الشىء : تركه ، سئم سأما : مل .

ولا ضعف ، يستقبل بها ساكنى البادية ، كما يستقبل ساكنى الحاضرة ، من غير تمييز إلا فى المنهج والأسلوب ، ويسعى لنشر الإسلام فى كل مكان ، لا يعوقه عن مسعاه صد الصادين ، ولا عوائق الطبيعة ، حتى حقق أبرز انتصار له فى ذلك الميدان ، حين هدى الله به طائفة من أهل يثرب كانوا هم نواة الأنصار ، الذين كانوا نقطة تحول خطيرة فى مسار الدعوة ـ بعد أن طال صدود أهل مكة وصدهم ـ حيث كانت استجابة الأنصار منطلقاً جديداً للداعية الصامد ، وصل عن طريقه بدعوته إلى آفاق العالم المختلفة ، فشرق نور الإسلام وغرب ، مبدداً ظلمات الجهل والجاهلية الكثيفة ، التى أطبقت على العالم ، حتى كادت تودى بالخير فيه .

ولعلم مشركى قريش بخطر استجابة اليثربيين لمحمد ، ثاروا ثورة عارمة حين بلغتهم أبناء تلك البيعة التى تعاهد فيها ممثلو يثرب مع محمد ﷺ على مناصرته والوقوف معه فى وجه كل معتد ؛ فزادوا من عنادهم وإصرارهم على مناهضة الدعوة الإسلامية ، مما ألجأهم إلى مزيد من الاضطهاد والتعذيب ، مهتضمين حقوقهم الإنسانية ، فترصدوا للمسلمين كل سبيل ، وتتبعوهم فى كل مكان بالتضييق والتنكيل ، يسجنون هذا ، ويستولون على مال ذاك ، ويعتدون على بيت آخر ، فى تحرك جنونى أعماهم عن آثاره فوجهوهم بذلك من غير إدراك للهجرة إلى يثرب التى كانت فاتحة الخير على الإسلام والمسلمين ، استجابة لتوجيهات رسول الله ﷺ :

ولم يزل سيدُ الكونين منتصباً ... لدعوة الدين ، لم يفتُر ، ولم يَجِم[1]
يستقبل الناس فى بدو وفى حضر ... وينشر الدين فى سهل ، وفى علم
حتى استجابت له الأنصار واعتصموا ... بحبله ـ عن تراض ـ خير معتصَم[2]
فاستكملت بهم الدنيا نضارتها ... وأصبح الدين فى جمع ـ بهم ـ تِمَم[3]
قوم أقروا عمادَ الحق واصطلموا ... بأسهم كلَّ جبار ومصطلِم[4]
فكم بهم أشرقت أستار داجية ... وكم بهم خمدت أنفاس مختصِم[5]
فحين وافى قريشاً ذكرُ بيعتهم ... ثاروا إلى الشر ، فعلَ الجاهل العرِم[6]

---

(١) الكوتان : الدنيا والآخرة ، انتصب للحكم أو للأمر : قام له وتهيأ ، فتر : لان بعد شدة ، أو سكن بعد حدة ، وجم : سكت غيظا أو حزنا أو فزعا .

(٢) الأنصار : أهل مدينة الرسول الأمين ناصروه حين هاجر اليهم ، اعتصم به : امتنع به ولجأ إليه .

(٣) نضر ـ بفتحتين ـ النبات أو الوجه : كان ذو رونق وبهجة ، التمم ـ بكسر ففتح ـ جمع التم : الشىء التام .

(٤) العماد : ما رفع شيئا وحمله ، اصطلم : استأصل ، البأس : الشدة فى الحرب .

(٥) الأستار ـ جمع الستر بكسر السين ـ : ما يسدل على نوافذ البيت وأبوابه حجبا للنظر ، الداجية ، الظلمة ، خمدت النار : سكن لهبها ، أو ماتت فلم يبق فيها شىء .

(٦) وافاه النبأ : أدركه وبلغه ، البيعة ـ بفتح الباء ـ : العقد ، العرم ـ بفتح فكسر ـ : الشرس الشديد .

وبادهوا أهل دين الله ، واهتضموا   حقوقهم بالتمادى شر مهتضَم[1]
فكم ترى من أسير لا حراك به   وشاردٍ سار من فج إلى أكَمِ[2]
فهاجر الصحب إذ قال الرسول لهم   سيروا إلى طيبة المرعية الحَرَم[3]

الهجرة إلى مدينة يثرب :

ثم خلص البارودى إلى الحديث عن المؤامرة الكبرى التى اجتمعت لها قريش ، حين وجدوا أن كثيراً من المسلمين يهاجرون إلى مدينة يثرب ، بينما رسول الله ﷺ مقيم فى مكة ، فتوجسوا الخوف من ذلك ؛ لجهلهم بما سوف يكون منه غداً ، وما دروا أنه ينتظر إذن الله تعالى له بالهجرة فى اللحظة المناسبة ، وقد دفع الخوف قريشاً إلى أن تعيد النظر فيما تفعله بمحمد ؛ فاتخذت فى منتداها قرارها بأن تتسلل إلى منزله فى الظلام عصبة من الشباب تمثل القبائل لتضربه ضربة واحدة يتخلصون بها منه ، ويضيع دمه فى القبائل ، فلا يعلق بقبيلة دون أخرى ، من كل ما يثير التعجب ، إذ كيف يتأتى لقوم ذوى فطن أن يسلكوا هذا المسلك الشائن ، ويفضلوا العمى على الهدى والبصيرة ، ويطلبوا النفع مما لا يملك نفعاً ولا ضراً ؟!

ولكنهم ــ مع هذا الخلل والاضطراب ــ أصروا على التخلص من محمد ، وإنفاذ ما دبروا ، غافلين عن أنه فى رعاية رب قدير ، أرسل إليه جبريل عليه السلام لينبئه بما أضمروا ، ولما رأى العصبة القرشية تحيط منزله بما يتأبطون من شر ، استخلف علياً ليبيت مكانه ، بعد أن طمأنه على نفسه ، وألبسه رداءه ، ثم خرج من بين المتربصين به ، وهو يتلو سورة (يس) ، معتصماً بما فيها من شفاء ، فلم يروه ، ولا شعروا به ، واتجه إلى الغار هو والصديق أبو بكر ، فما استقرا به حتى أتى زوج من الحمام ، بنيا فى فتحته عشاً ليقيما فيه ، كأنهما حارسان يحميان من بداخل الغار ، بما يبديانه من سلوك عادى ينبه الباحثين إلى استحالة اختباء أحد به ، فينصرفون دون أن يمسوا محمداً وصاحبه بسوء ، وأكمل العنكبوت حبكة التدبير ، إذ جاء فسجف الغار بنسيجه ، ليؤكد أن أحداً لا يمكن أن يلج هذا الغار ، مع بقاء هذا النسيج على حاله ، فكأن العنكبوت إنما نسج خيمة تقى محمداً وصحبه شر الأعداء ، ويخفيهما عن أعين الباحثين ، على الرغم مما يشعه محمد من نور يزيل عن البصائر أحلك الظلمات .

وفى هذا الغار مكث رسول الله ﷺ معتكفاً ، كأنه الدر الذى يؤويه البحر ، وظل كذلك هو وصحبه ، حتى إذا اطمأنا إلى بلوغ القوم درجة اليأس ، وتوقفوا عن البحث ، طلب من

---

(١) بادهه : فجأه ، اهتضم حقه : نقصه ، مبالغة فى هضم ، تمادى فى غيه : لج فيه ، ودام عليه ، الحراك ــ بكسر الحاء ــ : الحركة ، الشاردة ، يقال : شرد فلان : ذهب مطرودا ، فهو شارد ، وشريد .

(٢) الفج ــ بفتح الفاء ــ : الطريق الواسع ، الأكَم ــ جمع الأكمة ــ : التل .

(٣) الصحب ــ جمع الصاحب ــ : المرافق ، طيبة : من أسماء مدينة رسول الله ﷺ ، المرعية : المحفوظة ، يقال : رعى الشيء : حفظه ، حرم الرجل : ما يقاتل عنه ويحميه ، والحرم : حرم مكة ، والحرمان : مكة والمدينة .

عبدالله بن أبى بكر وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر أن يأتياهما بالذى استأجراه دليلا فى الرحلة ، حيث بدأت رحلة الهجرة إلى يثرب :

وظـل فى مكـةَ المختـارُ منتظـراً ... إذنـا من الله فى سَيْـر ومُعْتَـزَم[1]

فأوجست خيفـة منـه قريش ولم ... تقبل نصيحاً ، ولم ترجع إلى فَهَم[2]

فاستجمعت عُصَبـا فى دار ندوتها ... تبغى به الشر من حقد ومن أَضَم[3]

ولو درت أنها فيمـا تحاولـه ... مخذولةٌ لم تسُمْ فى مَرْتع وَخِم[4]

أولى لها ثم أولى أن يحيـق بها ... ما أضمرته من البأساء والسَّخَم[5]

إنى لأعجب من قوم أولى فِطَن ... باعوا النُّهى بالعمى ، والسمعَ بالصمم[6]

يعصون خالقهم جَهْلًا بقدرته ... ويعكفون على الطاغوت والصنم[7]

فأجمعوا أمرهم أن يبتغوه إذا ... جَنَّ الظلام ، وخفت وطأة القدم[8]

وأقبلوا مَوْهِنا فى عُصبة غُدَّر ... من القبائل باعوا النفس بالزَّعَم[9]

فجاء جبريل للهادى ، فأنبأه ... بما أسروه بعد العهد والقَسَم[10]

فمذ رآهم قياماً حول مأمنه ... يبغون ساحتَه بالشر والفقَم[11]

نادى عليا فأوصاه ، وقال له : ... لا تخش ، والبس ردائى آمنا وَنَم[12]

---

(١) المختار : هو سيدنا محمد ﷺ .

(٢) أوجس القلب شيئاً : أحس به ، والخوف : توقع حلول مكروه ، أو فوت محبوب ، النصيح : الخالص من كل شىء ، الفهم ـ بالتحريك ـ : الفهم .

(٣) استجمع القوم : تجمعوا من كل صوب ، العصب ـ بضم ففتح ـ جمع العصبة : الجماعة من الناس أو الخيل أو الطير ، الندوة : الجماعة يلتقون فى ناد أو نحوه للبحث والمشورة فى أمر معين ، بغى الشىء : طلبه ، الحقد : الانطواء على العداوة والتربص لفرصتها ، الأضم ـ بفتحتين ـ : إضمار الحقد .

(٤) سامت الماشية : رعت حيث شاءت ، المرتع : الموضع ترتع فيه الماشية ، وخم المكان ـ بفتح وضم ـ : كان غير موافق لأن يسكن .

(٥) أولى لك ثم أولى : يقال فى التهديد والوعيد ، أى قاربك الشر فاحذر . حاق به الشىء : أصابه وأحاط به ، أضمر الشىء : أخفاه ، البأساء : المشقة ، السخم ـ بفتح السين والخاء ـ : الحقد والضغينة والموجدة فى النفس .

(٦) الفطن ـ بكسر ففتح ـ جمع الفطنة : جودة استعداد الذهن لإدراك ما يرد عليه ، النهى ـ جمع النهية ـ : العقل ، الصمم : فقدان حاسة السمع .

(٧) عكف على الشىء : أقبل عليه ولزمه ، الطاغوت : كل رأس فى الضلال يصرف عن طريق الخير .

(٨) ابتغى الشىء : أراده وطلبه ، جن الظلام : اشتد ، الوطأة : الضغطة .

(٩) الموهن ـ بفتح فسكون فكسر ـ : نحو من نصف الليل ، أو بعد ساعة منه ، العصبة : الجماعة من الناس ، غدر ـ بضم ففتح ـ معدول عن غادر للمبالغة : تارك الوفاء ، الزعم ـ بفتحتين ـ : الطمع .

(١٠) أسروه : كتموه .

(١١) الساحة : الفضاء يكون بين الدور ، فقم الأمر يفقم فقماً : لم يجر على استواء .

(١٢) الرداء : ما يلبس فوق الثياب كالجبة والعباءة .

ومرَّ بالقـوم يتلو ـ وهـو منصـرف ـ يس ، وهى شفاء النـفس من وَصَـم[1]

فلـم يـروه ، وزاغـت عنـه أعينُهـم وهل ترى الشـمسَ جَهْرًا أعينُ الحَمَم[2]

وجـاءه الوحـــى إيذانًــا بهجـرتـه فيمم الغار بالصديق فى الغَسَـم[3]

فمــا استقـــر به حتـــى تبـــوأه من الحمــائم زوجٌ بــارع الرَّنَــم[4]

بنـى به عشـــه ، واحتلَّــه سكنــا يأوى إليـه غداة الــريحْ والرِّهَــم[5]

إلفـان ، ما جَمَـع المقـدار بينهمــا إلا لسـرٌّ بصـد الغـار مكتتـم[6]

كلاهمـــا دَيْدبــان فـــوق مَربـــأةٍ يرعى المسـالك من بُعد ، ولم ينم[7]

إن حَنَّ هـذا غرامــا ، أوْ دعا طربــا باسـم الهديل ، أجابت تلك بالنغـم[8]

يخالهـا من يراهـا ـ وهـى جَاثمــة فى وكرهـا ـ كُرةً ملسـاءَ من أَدَمَ[9]

إن رفـرفت سـكنت ظِـلا ، وإن هبطت روت غليلَ الصَّـدى من حائـر شَبِم[10]

مرقومـة الجيـد من مسكٍ وغاليــة مخضـوبة السـاق والكفيـنْ بالقَنَـم[11]

كأنمـا شَـرعت فى قانِـــىء شـــرب من أدمعى ، فغـدت محمرَّة القـدم[12]

وسجَّـف العنكبــوتُ الغـارَ محتفِيــا بخيمـة حاكاهـا من أبـدع الخِيَـم[13]

---

(١) تلا الكتاب : قرأه ، الوصم : العار ، والعيب ، والصدع .

(٢) زاغ البصر : مال عن مستوى النظر ، جهر الشىء جهرا : رآه بلا حجاب ، حم الشىء حما : اسود .

(٣) يمم : قصد ، الغار : كل منخفض من الأرض ، والبيت المنقور فى الجبل ، الغسم ـ بفتحتين ـ : الظلمة .

(٤) تبوأ المكان وبه : نزله وأقام به ، البارع : من فاق نظراءه فى أمر ، رنم المغنى رنما بوزن فرح : رجع صوته .

(٥) احتل المكان وبه : حله ، أوى إلى المكان وإليه : نزله ، الغداة : ما بين الفجر وطلوع الشمس ، الرهم ـ بكسر ففتح ـ جمع الرهمة : المطرة الضعيفة الدائمة .

(٦) الإلف ـ بكسر فسكون ـ المألوف ، المقدار : القضاء والحكم ، جمعه المقادير . اكتتم الحديث : بالغ فى كتمانه .

(٧) الديدبان ـ بفتح فسكون ففتح ـ الحارس والرقيب ، المربأة ـ بفتح فسكون ـ : موضع الطليعة الذى يرقب العدو من مكان عال لئلا يدهم قومه ، يرعى الشىء : يحفظه ، المسالك ـ جمع المسلك ـ : الطريق .

(٨) حنت الناقة : مدت صوتها شوقا إلى ولدها ، الغرام : التعلق بالشىء ، تعلقا لا يستطاع التخلص منه ، الطرب : خفة وهزة تثير النفس لفرح أو حزن أو ارتياح ، الهديل : ذكر الحمام الوحشى ، النغم : جرس الكلام .

(٩) خال الشىء موجودا : ظنه كذلك ، جثم الحيوان فى مكانه : لزم مكانه ولم يبرح ، الوكر : عش الطائر الذى يبيض فيه ويفرخ ، الأملس والملساء : ما لان ونعم ملمسه ، الأدم ـ بفتحتين ـ جمع الأديم : الجلد .

(١٠) الغليل : شدة العطش وحرارته ، الصدى : العطش الشديد ، الشبم ـ بفتح فكسر ـ : الذى يحس الجوع والبرد .

(١١) رقم الشىء : وشاه وطرزه ، الجيد : العنق ، الغالية : أخلاط من الطيب ، كالمسك والعنبر ، والمخضوب : الملون : القنم ـ بفتحتين ـ : مصدر قنم ـ بفتح فكسر ـ الطائر : أصاب الندى ريشه ثم لحقه الغبار فاتسخ .

(١٢) شرع يفعل كذا : أخذ يفعله ، القانئ : شديد الحمرة ، السرب ـ بفتح فكسر ـ : السائل .

(١٣) سجف الغار ـ بالتضعيف ـ : أرسل عليه السجف ، والسجف ـ بكسر فسكون ـ : أحد السترين المقرونين بينهما فرجة . احتفى به : احتفل ، حاك الثوب : نسجه .

قد شدَّ أطنابها فاستحكمت وَرَسَتْ — بالأرض ، لكنها قامت بلا دِعَم[1]
كأنَّها سابِرِيٌّ حاكَه لَبِقٌ — بأرض سابورَ ، فى بُحبوحة العجم[2]
وارت فَمَ الغار عن عينٍ تُلِمُّ به — فصار يحكى خفاءً وجْهَ مُلْتثِم[3]
فياله من ستار دونه قَمَر — يجلو البصائر من ظُلم ومن ظُلَم[4]
فظل فيه رسولُ الله معتكفاً — كالدر فى البحر، أو كالشمس فى الغَسَم[5]
حتى إذا سكن الإرجاف واحترقت — أكبادُ قوم بنار اليأس والوَغَم[6]
أوحى الرسولُ بإعداد الرحيل إلى — مَنْ عنده السر من خِل ومن حَشَم[7]

وعندما تهيأت أسباب الارتحال ، غادر ﷺ هو وصاحبه الغار الذى نزلا به ، قاصداً مدينة يثرب ، وفى الطريق مر بقديد ، فأناخ به ليستريح ، ونزل هناك بأم معبد التى أسفت لخلو يدها مما تقدمه قرى ، فلم يكن تحت يدها سوى شاة عجفاء هزيلة . ولكن محمداً ﷺ أمر يده عليها ، طالباً من الله أن يرزقهم الخير عن طريقها ، فاستهلت ضرعاها باللبن الهاطل كأنه المطر ، ولما عاود المسيرة مكملًا رحلته الميمونة ، بعد أن ترك لأم معبد من الذكرى ما خلد على الزمان ، أدركه فى الطريق سراقة الذى كان يجد فى البحث عنه أملًا فى الحصول على ما رصدته قريش من جوائز لكل من يعثر على محمد وصاحبه ، وما دنا سراقة من غايته ، حتى فوجىء بما لم يخطر له ببال ؛ إذ ساخ الجواد به فى الأرض ، التى غارت به ، فلم يستطع حراكا ، فصاح مستنجداً بمحمد ، راجيًا منه العفو عنه ، نادمًا على ما دبر ، لتيقنه أن لو أصر على عزمه لاحتواه جب عميق لا خلاص له منه . وما كان لعاقل بصير أن يجد فى ذلك أية غرابة ، فيكفى أنه ﷺ

---

(١) الأطناب ـ جمع طنب ـ : حبل يشد به الخباء ونحوه ، استحكمت واحتكمت : توثقت وصارت محكمة ، رست : ثبتت ، الدعم ـ بكسر ففتح ـ جمع الدعمة ـ بكسر فسكون ـ : ما يسند به الشىء .

(٢) السابرى من الثياب : الرقيق الجيد ، ومن الدروع : الدقيقة النسج فى إحكام ، اللبق ـ بكسر الباء ـ : من أحكم كل عمل ، سابور : اسم عدة ملوك من أرض ساسان (ملوك الفرس) ، البحبوحة من كل شىء ـ بضم فسكون ـ : وسطه وخياره ، ويقال : بحبح فى الشىء : توسع فيه ، وبحبح الدار : تمكن فى المقام والحلول بها ، العجم ـ بالتحريك ـ : خلاف العرب .

(٣) وارت : أخفت ، ألم بالقوم : أتاهم فنزل بهم ، حكى الشىء : شابهه ، التثمت المرأة : شدت اللثام ، وهو النقاب يوضع على الفم أو الشفة .

(٤) دون : ظرف مكان منصوب ، وهو بحسب ما يضاف إليه ، جلى النهار الظلمة : كشفها ، وجلى الأمر عنه كشفه ، الظلم ـ بسكون اللام ـ : وضع الشىء فى غير موضعه ، والظلم ـ بفتح اللام ـ : جمع الظلمة : ذهاب النور .

(٥) اعتكف فى المكان وعكف فيه : أقام فيه ولزمه ، الدر ـ بضم الدال ـ : اللؤلؤ العظيم الكبير ، الغسم ـ بفتحتين ـ : الظلمة ، والقطعة من السحاب .

(٦) الإرجاف : الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب ، الوغم ـ بفتحتين ـ : الحقد .

(٧) أوحى إليه : أشار وأومأ ، الرحيل : الارتحال ، الخل ـ بكسر الخاء ـ : الصديق المختص ، والحشم للرجل : خاصته الذين يغضبون لغضبه .

كان يسير فى رعاية العناية الإلهية . وظل سراقة عاجزاً عن الحركة حتى عفا عنه المصطفى ﷺ ، فانطلق من عقاله ، ليدفع عنه العيون التى خرجت تطارده :

وسار بعد ثلاث من مباءته ... يؤم طيبة مأوَى كلِّ معتصِم[1]
فحين وافى قُديداً حل موكبُه ... بأم معبد ذاتِ الشاء والغنم[2]
فلم تجد لِقِراه غيرَ ضائنةٍ ... قد اقشعرت مراعيها فلم تُسُم[3]
فما أمرَّ عليها داعيا يده ... حتى استهلت بذى شَخْبين كالديَم[4]
ثم استقل وأبقى فى الزمان لها ... ذكرا يسير على الآفاق كالنَّسَم[5]
فبينما هو يطوى البيد أدركه ... رَكْضا سُراقةُ مثل القَشْعم الضَّرم[6]
حتى إذا مادنا ساخ الجواد به ... فى بُرقةٍ فَهَوى للساق والقدم[7]
فصاح مبتهلا ، يرجو الأمانَ ، ولو ... مضى على عزمه لانهار فى رَجَم[8]
وكيف يبلغ أمرًا دونه وَزَرٌ ... مِنَ العناية لم يبلغه ذو نَسَم[9]
فكف عنه رسولُ الله وهو به ... أدرى ، وكم نِقَمٍ تفترُّ عن نِعَم[10]

وظل الركب الميمون يواصل مسيرته ، حتى شارف معالم طيبة ، حيث استقبل المصطفى ﷺ وصحبه استقبالًا ، كشف عن مناقب الأوس والخزرج وكرم محتدهم ، وما حققه ذلك لهم من فخر ومجد ، إذ كان استقبالهم الحافل لمحمد وصحبه فضلًا تناقلته الألسن ، وحفظه لهم الزمان ، حتى أصبح يوم استقبالهم إياه يوماً أعز ، يؤرخ به ؛ فقد كان فيصلًا بين عهدين مرت بهما الدعوة الإسلامية ، فى أحدهما عانى الرسول ﷺ ومن تابعه أشد المعاناة وأقساها ، وفى العهد الثانى تنقل المسلمون من نصر إلى نصر ، حتى أبلغوا الدعوة القاصى والدانى .

---

(١) المباءة : المنزل ، يؤم : يقصد ، المأوى : الذى يؤوى إليه ويلجأ ، اعتصم به : امتنع ولجأ .
(٢) وافى القوم : أتاهم ، قديد ـ بضم ففتح فسكون ـ : موضع فيه ماء بين مكة والمدينة ، وهو إلى مكة أقرب ، حل المكان وبه : نزل ، أم معبد ـ بفتح الميم والباء ـ : هى عاتكة بنت خالد ، إحدى بنى كعب ، من خزاعة .
(٣) القرى ـ بكسر القاف ـ : ما يقدم إلى الضيف ، الضائنة : الضعيف اللبن ، اقشعرت الأرض : لم ينزل عليها المطر ، سامت الماشية : رعت حيث شاءت .
(٤) استهل المطر : تساقط ، الشخب ـ بفتح الشين وضمها ، وسكون الخاء ـ : الدفعة من اللبن عند الحلب ، الديم ـ بكسر ففتح ـ جمع الديمة : المطر يدوم أياما .
(٥) استقل : مضى وارتحل ، الآفاق ـ جمع الأفق ـ الناحية ، النسم ـ بفتحتين ـ : طير سراع كالخطاطيف .
(٦) طوى الأرض : قطعها وجازها ، البيد ـ جمع البيداء ـ : الفلاة ، الركض : العدو والإسراع ، سراقة : ابن مالك ، القشعم ـ بفتح فسكون ـ : النسر الذكر العظيم ، والضخم المسن من كل شىء ، ويقال للحرب ، والمنية ، والداهية ، والضبع ، الضرم ـ بفتح الضاد والراء ـ : لهب النار .
(٧) ساخ الجواد : غاصت قوائمه فى الأرض ، البرقة ـ بضم فسكون ـ : مكان غليظ فيه حجارة ورمل وطين مختلطة ، هوى : سقط .
(٨) ابتهل : تضرع واجتهد فى الدعاء ، الرجم ـ بفتحتين ـ : القبر ، والبئر ، والتنور .
(٩) الوزر ـ بفتحتين ـ : الملجأ والمعتصم ، العناية الإلهية : تدبير الله للأشياء ، النسم ـ بفتحتين ـ : الروح .
(١٠) كف عنه : انصرف وامتنع ، النقم ـ بكسر ففتح ـ جمع النقمة ـ : العقوبة ، افتر : انفرج .

وحين وصل الرسول ﷺ إلى المدينة كان فى مقدمة أعمالهم ابتناء مسجده ، الذى نهض به المسلمون حتى أضحى حقيقة سامقة ، واختار من بين أصحابه بلالًا ليقوم بالأذان للصلاة ، لما توفر له من نداوة صوت ، وتميز نغم ، حتى إذا توافدت لاستقباله القبائل ، قام ﷺ فيهم خطيباً ، داعياً إلى الهدى ، وناهياً عن الآثام ، ومقدماً إليهم كتاب ربه بما يشتمله من قيم وفضائل وآداب ، فأصبحوا بفضل ماهدوا إليه مع المهاجرين إخوة ، يرعون ذمتهم ، ويحفظون أمنهم وكرامتهم ، احتذاء بما رسمه ﷺ لهم ، حين آخى بين المهاجرين والأنصار ، حتى قويت شوكة المسلمين ، واشتد أزرهم ، ونهض الإسلام قوياً واضحاً ، يقبل الناس عليه من كل حدب وصوب ، لينالوا بإسلامهم أسباب الحياة الكريمة بعيداً عن مضايقات قريش وعنتهم :

ولم يزل سائــراً حتــى أنــاف على ... أعلام طيبــة ذات المنظــر العَمَــم[1]

أعظــم بمقدمـــه فخــراً ومنقبـــة ... لمعشر الأوس والأحيـــاء من جُشَم[2]

فخـــرٌ يدوم لهم فضلٌ بذكرتــــه ... ما سارت العيسُ بالــزُّوَّار للحــرم[3]

يوم به أرخ الإسلام غرتــــــه ... وأدرك الدينُ فيــه ذروة النُّجــم[4]

ثم ابتنــى سيــد الكــونين مسجــده ... بنيان عز ، فأضحى قائمَ الدِّعَــم[5]

واختــص فيــه بلالًا بالأذان ومـــا ... يُلْفــى نظيــرٌ له فى نَبْــرةِ النغــم[6]

حتــى إذا تم أمــر الله واجتمــعت ... له القبائل من بُعــد ومــن زَمَــم[7]

قام النبــــى خطيبـــاً فيهمُ فأرى ... نهج الهدى ، ونَهَى عن كل مُجْتَرم[8]

وعمَّهــم بكتــاب حض فيـــه على ... محاسن الـــفضل والآداب والشيم[9]

فأصبحــوا فى إخـــاء غير منصدع ... على الزمـــان ، وعـــز غير منهدم[10]

(١) أناف عليه : أشرف عليه ، الأعلام ـ جمع العلم ـ: الجبال ، العمم ـ بفتحتين ـ : الاجتماع والكثرة .

(٢) المنقبة ـ بفتح فسكون ـ: الفعل الكريم ، والمفخرة ، المعشر : كل جماعة أمرهم واحد ، الأوس : إحدى قبائل يثرب ، جشم ـ بضم ففتح ـ: أحياء من مضر ، ومن اليمن ، ومن تغلب ، وفى ثقيف ، وفى هوازن ، وبنو جشم : بطن من بطون الأنصار .

(٣) العيس ـ جمع الأعيس ـ: الكريم من الإبل .

(٤) الغرة ـ بالضم ـ من كل شىء : أوله وأكرمه ، الذروة ـ بكسر الذال وضمها ـ: أعلى الشىء .

(٥) ابتنى : بنى ، الكونان : الدنيا والآخرة ، الدعم ـ بكسر ففتح ـ: جمع الدعمة ـ بكسر فسكون ـ: عماد البيت الذى يقوم عليه .

(٦) ألفيت الشىء : وجدته وصادفته ، النبر فى النطق : إبراز أحد مقاطع الكلمة عند النطق ، النغم : الصوت الموقع .

(٧) الزمم ـ بفتحتين ـ: القرب ، يقال : دارى من داره زمم : قريبة .

(٨) النهج : الطريق المستقيم الواضح ، اجترم الذنب : ارتكبه ، والمجترَم ـ بفتح الراء ـ: الذنب .

(٩) عمهم : شملهم ، حضه على الأمر : حثه عليه بقوة ، المحاسن ـ جمع الحسن ـ: كل مبهج مرغوب فيه ، الفضل : الإحسان ابتداء بلا علة ، الشيم ـ جمع الشيمة ـ: الخلق .

(١٠) انصدع البناء : انشق ، العز : القوة .

وحين آخى رسولُ الله بينهم ... آخى عليا ، ونعم العون فى القُحَم[1]
هو الذى هزم الله الطغاةَ به ... فى كل معترَك بالبيض محتدم[2]
فاستحكم الدين ، واشتدت دعائمه ... حتى غدا واضح العِرنين ، ذى شمَم[3]
وأصبح الناس إخوانا ، وعَمَّهمُ ... فضل من الله أحياهم من العَدَم[4]

محمد صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة :

ولم تكن قريش – ومعهم خصوم الحق – ليتركوا المسلمين بقيادة محمد وشأنهم ، ولكنهم واصلوا مكرهم وتدبيرهم مستعينين فى ذلك بعيون لهم من يهود المدينة الذين كانوا أشد ضيقاً بمحمد وإن حاولوا إخفاءه ، فلم يكن بد من أن يأذن الله سبحانه وتعالى لرسوله فى الجهاد ، ومواجهة عنف الأعداء بما يردهم ويردعهم ، حتى يفسحوا المجال أمام الدين الإسلامى كى يواصل مسيرته وانتشاره بين الأمم المختلفة .

وقد بدأ الرسول ﷺ تلك المرحلة الجديدة ببعض السرايا والغزوات الخفيفة ، فكان أول غزواته سيره إلى قرية ودَّان بين مكة والمدينة ، ولم يحدث فى هذه الغزوة اشتباك حربى ، لأن أهل ودان – وهم بنو ضمرة بن بكر – وادعوا النبى ﷺ ، فرجع بمن معه إلى المدينة ، ثم توالت سراياه بعد ذلك ، حيث أرسل عبيدة بن الحارث بن المطلب فى جمع راكب من المهاجرين ، فساروا حتى بلغوا ماء بالحجاز بأسفل ثَنِيَّة المَرَة ، فلقى بها جمعا عظيماً من قريش ، فلم يكن بينهم قتال ، إلا أن سعد بن أبى وقاص قد رمى يومئذ بسهم ، فكان أول سهم رمى به فى الإسلام ، وأرسل كذلك سرية أخرى مكونة من ثلاثين راكبا من المهاجرين بقيادة حمزة بن عبد المطلب إلى ساحل البحر من ناحية العيص ، بطريق قريش إلى الشام ، فلقى أبا جهل بن هشام فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة بذلك الساحل ، ولكن مَجْدِىَّ بن عمرو الجهنى حجز بينهما – وقد كان موادعا للفريقين – فانصرفوا ولم يكن بينهم قتال . ثم نهض ﷺ بجمع من المسلمين فى شهر ربيع الأول يريد قريشا ، حتى بلغ بُوَاط – وهو جبل من جبال جهينة بقرب ينبع ، يقع على أربعة برد من المدينة – فلم يصادف أحداً يحاربه ، ثم رجع إلى المدينة ، وفى جمادى الأولى من العام نفسه نهض فى جمع من المسلمين إلى العُشَيْرة ، فوادع فيها بنى مُدلج وحلفاءهم ، ثم رجع إلى المدينة فى جمادى الآخرة ، ثم بعث سعد بن أبى وقاص فى ثمانية رهط من المهاجرين ، حتى بلغ الخرَّار من

---

(١) القحم – بضم ففتح – جمع القحمة – بضم فسكون – : الأمر العظيم الشاق لا يكاد يركبه أحد .

(٢) المعترك : مكان الاعتراك والقتال ، البيض – جمع الأبيض –: السيف ، المحتدم : المتقد والمشتعل .

(٣) استحكم الشىء والأمر : توثق وصار محكماً ، الدعائم – جمع الدعامة – : عماد البيت الذى يقوم عليه ، واشتدت دعائمه : قويت ، وضح الوجه : حسن ، العرنين – بكسر العين – : ما صلب من عظم الأنف ، حيث يكون الشمم ، والشمم : ارتفاع قصبة الأنف فى استواء ، يكنى به عن العزة .

(٤) الفضل : الإحسان ابتداء بلا علة .

أرض الحجاز ، ثم رجع ولم يلق فى سريته تلك من كيد ، وبعد أن عاد ﷺ من غزوة العُشَيرة بنحو عشرة أيام ، أغار كُرْز بن جابر الفهرى على الإبل والمواشى التى تسرح للرعى حول المدينة ، فخرج ﷺ فى طلبه ، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة ، حتى بلغ ﷺ واديا يقال له سفوان من ناحية بدر ، دون أن يدرك كرزا ، فرجع ﷺ إلى المدينة ــ وتلك هى غزوة بدر الأولى ــ وعقب عوده من بدر الأولى ، بعث عبدالله بن جحش الأسدى فى ثمانية رهط من المهاجرين ، وكتب له كتابا ، أمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه ، فيمضى لما أمره به ، ولا يستكره من أصحابه أحدا ، وكان ﷺ فى كتابه يوجه عبدالله ومن معه ليمضوا حتى ينزلوا نخلة ، بين مكة والطائف ، ليرصد قريشا ، ويعلم أخبارهم ، فمضوا لما أمرهم به ﷺ حتى نزلوا بنخلة ، فمرت بهم عير لقريش تحمل زبيبا وأدما وتجارة من تجارة قريش فلما رآهم القوم هابوهم ، وقد نزلوا قريبا منهم ، فأشرف لهم عُكَّاشة بن محصن ــ وكان قد حلق رأسه ــ فلما رأوه أمنوا ، وقالوا : عُمَّارٌ ، لابأس عليكم منهم ، وتشاور المسلمون فيما يفعلون ، حيث أجمعوا على قتل من يقدرون عليه منهم ، وأخذ ما معهم ، فقتل عمرو بن الحضرمى بسهم ، وأسر عثمان بن عبدالله ، والحكم بن كيسان ، وفر الباقون ، فأقبل عبدالله بن جحش وأصحابه بالعير وبالأسيرين ، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة .

وفى شهر شعبان ، على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة ، صرفت القبلة عن بيت المقدس إلى الحرم المكى :

هذا ، وقـــد فرض الله الجهـــاد على	**رسولـــه ، ليـبث الديــن فى الأمم**[1]
فكــــان أول غزو سار فيـــــه إلى	**ودَّان ، ثم أتى من غير مصطـــــدم**[2]
ثم استمـــرت سرايـــا الديـــن سابحةً	**بالخيـــل جامحة ، تَستَـــنُّ باللجـــم**[3]
سريَّـــة كان يرعاهـــا عبيـــدةُ فى	**صَوْبٍ ، وحمزةُ فى أخرى إلى التَّهـم**[4]
وغـــزوة سار فيها المصطفـــى قُدُمـــا	**إلى بُواطٍ ، بجمـــع ساطـــع القَتَـــم**[5]

(١) الجهاد : قتال من ليس لهم ذمة من الكفار ، بث الدين : نشره وأذاعه .

(٢) ودان ــ بفتح الواو وتضعيف الدال ــ بنو ضمرة بن بكر ، المصطدم : التصادم والتقاتل .

(٣) السرايا ــ جمع السرية ــ : القطعة من الجيش ، ما بين خمسة أنفس إلى ثلاثمائة ، والمراد بها هنا البعوث الحربية الصغيرة التى يبعثها الرسول ﷺ ، جمح الفرس : عتا عن أمر صاحبه حتى غلبه ، استن الفرس : جرى فى نشاطه على سننه فى جهة واحدة ، اللجم ــ جمع اللجام ــ : الحديدة فى فم الفرس ، ثم سموها مع ما يتصل بها من سيور وآلة لجاما .

(٤) عبيدة : هو ابن الحارث بن المطلب ، الصوب : الجهة ، وحمزة : هو ابن عبدالمطلب ، التهم ــ بفتحتين ــ : الأرض المتصوبة إلى البحر .

(٥) الغزوة ــ المرة من الغزو ــ : السير إلى قتال العدو فى ديارهم ، القدم ــ بضمتين ــ : ظرف بمعنى إلى الأمام ، ويقال : يمشى فى الحروب قدماً : لا يتوانى ، بواط ــ بضم الباء ــ : جبل من جبال جهينة بقرب ينبع ، يقع على أربعة برد من المدينة . سطع الغبار : انتشر وارتفع ، والقتم ــ بفتحتين ــ الغبار .

ومثلهـــا ، يممت ذات الـــعُشَيرة فى ... جيش لُهام ، كمـوج البحـر ملتطـم[(١)]
وسار سعــدٌ إلى الخـرَّار ، يقدمـــه ... سعـد ، ولم يلـــق فى مسراه من بَشَم[(٢)]
ويممت سَفَـــوَانَ الخيــــلُ سابحةً ... بكـــل معتـــزم للقَـــرْن ملتـــزِم[(٣)]
وتابــع السير عبـــدُ الله متجهـــا ... تِلقاء نخلة ، مصحوبـا بكـل كَمِـــى[(٤)]
وحُـــولتْ قبلـــة الإسلام وقتئـــذ ... عن وِجهة القدس نحو البيت ذى العِظَم

غزوة بدر وماتلاها من غزوات :

ومن هذا العرض المجمل لسرايا الرسول ﷺ وغزواته بعد الاستقرار النسبى فى المدينة المنورة ، وبعد فرض الجهاد .. انطلق مستعرضا غزواته ﷺ بشىء من التفصيل الذى يكشف عن بسالة المسلمين ، وحرصهم على تحقيق النصر ، مرضاة لله ، وتمهيدا للأرض أمام الإسلام .

ومن هنا أخذ فى الحديث عن غزوة بدر الكبرى ، فذكر أن المصطفى ﷺ بعد تلكم السرايا قصد بدرا ، فحقق فيها نصرا بدد ظلمة الشرك ، وسعد به المسلمون ، بينما عيون المشركين تنهمل بدموع الحزن والأسى ، فلقد أبلى المسلمون فى هذه المعركة البلاء الحسن ، وكان فى مقدمتهم على بن أبى طالب ، الذى استغل ما آتاه الله من قوة وشدة ، فأبلى خير البلاء ، وكذلك جال حمزة بن عبد المطلب ففرق بسيفه الصمصام جموع المشركين ، حتى ألحق المسلمون بالمشركين شر هزيمة ، فلم يثبت فى الميدان فارس واحد من فرسانهم ، وما كان لأحد منهم أن يثبت وهو يرى سيوف المسلمين تطير منهم الهام فتترك أجسامهم فرائس للطيور المتوحشة ، فقد رأوا المسلمين يغشون المعركة وكأنهم فى ميدان ألعاب رياضية ، لا تبدو على وجوههم هموم الحرب ولا شىء من مخاوفها ، حتى بدت السيوف فى أيديهم كأنها العصى التى تضرب بها الكرة ، ورأوا الكماة من قادتهم يجندلون فى أرض المعركة بسيوف المسلمين ، ولذلك لم تطل تلك الحرب ، فإنما هى ساعة ، ثم غدا جمع المشركين مبددا ، والسماء تمطرهم بالسيوف والرماح ، فتبدد ما كان يكسوهم من زهو وتكبر ، وزال عنهم ما كانوا عليه من فخر وترفع .

---

(١) يممت : قصدت ، ذات العشيرة ـ بضم العين وسكون الياء ـ : موطن بنى مدلج ، الجيش اللهام ـ بضم اللام ـ : الجيش العظيم ، كأنه يلتهم كل شىء ، التطمت الأمواج : ضرب بعضها بعضاً .

(٢) سعد : هو ابن أبى وقاص ، الخرار ـ بفتح الخاء والراء المضعفة ـ : من أرض الحجاز ، البشم ـ بفتحتين ـ : السأم .

(٣) سفوان ـ بفتحتين ـ : وادى ناحية بدر ، المعتزم للأمر : الصابر عليه ، القرن من القوم ـ بفتح القاف وسكون الراء ـ : سيدهم ، الملتزم : من أوجب الأمر على نفسه .

(٤) عبدالله : ابن جحش الأسدى ، نخلة : مكان بين مكة والطائف ، التلقاء ـ بكسر التاء ـ : مصدر لقى ، وتوسعوا فيه فاستعملوه ظرف مكان بمعنى جهة اللقاء ، الكمى ـ بفتح فكسر ـ : لابس السلاح ، والشجاع المقدام كان عليه سلاح أم لم يكن .

لقد جاء هؤلاء المشركون قاصدين الشر بالمسلمين ، فأرغموا على خلاف ما قصدوا ولا عجب فى ذلك ، فتلك هى نهاية كل من يعارض الحق ، ومن يتصدى لمسيرة الهدى بالكيد :

ويمم المصطفى بدراً ، فلاح له ... بدر من النصر ، جَلَّى ظلمة الوخم[1]

يوم تبسَّم فيه الدين ، وانهطلت ... على الضلال عيون الشرك بالسَّجم[2]

أبلى علىٌّ به خيرَ البلاء بما ... حباه ذو العرش من بأس ومن هِمَم[3]

وجال حمزةُ بالصمصام يكسؤهم ... كَسْأً يفرِّق منهمْ كلَّ مُزدَحَم[4]

وغادر الصحبُ والأنصار جمعَهمُ ... وليس فيه كمىٌّ غيرُ منهزم[5]

تقسَّمتهم يد الهيجاء عادلةً ... فالهامُ للبيض ، والأبدانُ للرَّخم[6]

كأنما البيض بالأيدى صوالجةٌ ... يلعبن فى ساحة الهيجاء بالقمم[7]

لم يبق منهم كمى غيرُ منجدلٍ ... على الرِّغام ، وعضوٌ غير منحطم[8]

فما مضت ساعة والحرب مُسْعرةٌ ... حتى غدا جمعهم نهبا لمقتسم[9]

قد أمطرتهم سماء الحرب صائبة ... بالمشرفيَّة والمُرَّان كالرَّجَم[10]

---

(١) بدر الأولى : مكان قرب المدينة ، وبدر أحد أدوار القمر الشهرية ، جلى النهار الظلمة ـ بفتح الجيم واللام المضعفة ـ : كشفها ، الوخم ـ بفتحتين ـ : تعفن الهواء المورث للأمراض الوبائية ، والوخم : الضرر .

(٢) هطل الدمع : سال ، السجم ـ بفتحتين ـ : الدمع .

(٣) أبلى فى الأمر : اجتهد فيه وبالغ ، حباه : أعطاه ، البأس : الشدة فى الحرب ، الهمم ـ بكسر ففتح ـ جمع الهمة : العزم القوى .

(٤) جال بسيفه : لعب به وأداره على جوانبه ، الصمصام ـ بفتح الصاد ـ : السيف الصارم لاينثنى ، كسأ القوم يكسؤهم ـ بفتح السين ـ : غلبهم فى خصومة ونحوها ، المزدحم ـ بفتح الحاء ـ مكان الازدحام ، ومزاحمة القوم بعضهم بعضاً .

(٥) الكمى : الشجاع المقدام من غير حاجة إلى سلاح .

(٦) الهيجاء : الحرب ، الهام ـ جمع الهامة ـ : الرأس ، البيض ـ بكسر الباء ـ جمع الأبيض : السيف ، البدن : ما سوى الرأس والأطراف من الجسم ، الرخم ـ بفتحتين ـ : طائر ضخم له جناح طويل مدبب ، يبلغ طوله نحو نصف متر .

(٧) الصوالجة ـ جمع الصولجان ـ : عصا معقوف طرفها ، يضرب بها الفارس الكرة ، القمم من كل شىء ـ جمع القمة ـ : أعلاه .

(٨) المتجدل : المنصرع ، الرغام ـ بكسر الراء ـ التراب ، منحطم : منكسر .

(٩) أسعر الحرب : أشعلها وهيجها ، غدا الشىء كذا : صار ، النهب ـ بفتح فسكون ـ : الغنيمة .

(١٠) المشرفية ـ جمع المشرفى ـ : السيف المجلوب من المشارف ، وهى القرى العربية المشرفة على سواد العراق ، أو مشارف الشام ، أو مشارف اليمن . المران ـ بضم الميم ـ جمع المرانة : الرمح الصلب اللدن . الرجم ـ بفتحتين ـ : التنور ، والحجارة التى توضع على القبر .

فأين ما كان من زهو ، ومن صلف وأين ما كان من فخر ، ومن شَمَم[1]
جاءوا وللشر وسْم فى معاطِسهم فأرغموا ، والردى فى هذه السِّيَم[2]
من عارض الحقَّ لم تسلم مقاتله ومن تعرض للأخطار لم يَنَم[3]

ثم تناول ـ فى إجمال ـ ما كان بعد بدر من غزوات وسرايا سبقت أحداً ، فذكر أن رسول الله ﷺ ـ بعد انقضاء غزوة بدر ـ اتجه بالأبطال نحو بنى سليم فى الكُدْر ـ وهو أحد مياه بنى سليم ـ فلم يلقه أحد هناك بكيد ، وفروا تاركين أموالهم ، وبعد أن عاد إلى المدينة سار ثانية فى طلب أبى سفيان ومن قدموا معه للغارة على أطراف المدينة ، ولكن أبا سفيان فر حين علم بخروج المسلمين ، واضطر هو ومن معه إلى التخفف من مؤنهم وكانت سويقا عثر عليه المسلمون فغنموه ، ولذلك سميت غزوة السويق ، ولما رجع إلى المدينة علم بخروج جماعة من محارب وغيرهم لمحاربة المسلمين ، فعاجلهم رسول الله ﷺ فى نجد ، ففر القوم إلى رءوس الجبال ، فعسكر ﷺ بموضع يقال له (ذو أَمَر) ، فسميت الغزوة بذى أمر ، ثم قصد قرية الفُرُع على طريق مكة بينها وبين المدينة ثمانية برد ، فلم يواجه هناك كيدا ، ثم تلا ذلك خروج يهود بنى قينقاع عن عهدهم مع رسول الله ﷺ ، واتجه بالجيش نحو حيهم فى حملة تأديبية ، اضطروا بها إلى نزولهم على حكمه . ثم أرسل زيد بن حارثة فى جمع لملاقاة تجارة قريش بقيادة أبى سفيان ، وكانوا غيروا طريقهم إلى الشام خوفا من المسلمين . فسار إليهم زيد وأصاب عيرهم على ماء بنجد يقال له (القَرَدَة) ، وبه سميت السرية :

فما انقضى يوم بدر بالتى عظمت حتى مضى غازيا بالخيل فى الشُّكُم[4]
فيمم الكُدرَ بالأبطال منتحيا بنى سليم ، فولت عنه بالرغَم[5]
وسار فى غزوة تدعى السويق بما ألقاه أعداؤه من عَظْم زادهِم[6]
ثم انتحى بوجوه الخيل ذا أَمَر ففر ساكنُه رُغْبا إلى الرَّقَم[7]

(١) الزهو : الكبر ، الصلف : التكبر وثقل الروح ، الشمم : الترفع والاباء .

(٢) الوسم : العلامة ، المعاطس ـ جمع المعطس ـ بفتح الطاء وكسرها ـ : الأنف ، أرغم : أذل عن كره ، الردى : الهلاك ، السيم ـ بكسر ففتح ـ جمع السمة : العلامة .

(٣) المقاتل ـ جمع مقتل ـ : الموضع الذى إذا أصيب فيه الإنسان أو الحيوان لا يكاد يسلم ، تعرض : تصدى ، تعرض فلان للخطر : صار عرضة له .

(٤) مضى : ذهب ، الشكم ـ بضمتين ـ جمع الشكيمة : الحديدة المعترضة فى فم الفرس من اللجام .

(٥) الكدر ـ بضم فسكون ـ واحد من مياه بنى سليم ، انتحى الشىء : قصده ، الرغم ـ بفتحتين ـ : الذل والإكراه على العمل .

(٦) السويق : طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير ، سمى بذلك لانسياقه فى الحلق ، وأطلق هذا الاسم على الغزوة لأن المسلمين فيها غنموا طعام المشركين بعد فرارهم ، وكان سويقا . عظم الشىء ـ بفتح فسكون ـ : أكثره .

(٧) انتحى المكان : قصده ، ذو أمر ـ بفتح الهمزة والميم ـ : موضع بنجد ، الرقم ـ بفتحتين ـ : موضع بالمدينة منه السهام الرقميات .

وأَمَّ فُرْعــاً فلــم يثقــفْ به أحــداً ومـن يُقيم أمام العــارض الهَــزِمِ؟!(١)

ولـــــفَّ بالجيش حَيَّ قينقـــاعَ بما جنـــوا ، فتــعسًا لهم من معشر قُزُمِ(٢)

وسارَ زيـــدٌ بجمـــعٍ نحوَ قَرْدَةَ مِنْ مياهِ نجدٍ ، فلـم يَثْقُـف سوى النَّعَـم (٣)

حتى إذا عرض لغزوة أحد ، عاد لنهجه فى غزوة بدر ، فقدمها فى شيء من التفصيل ؛ فذكر أن الرسول ﷺ استقبل فرسان المشركين فى أحد بفرسان المسلمين الأشداء ، فكانت لذلك من أشد المعارك التى بدا فيها الجد والجهد ، والتى كانت بنهايتها اختبارا للمسلمين وتمحيصا ، فقد أظهر الجميع من ضروب القتال وفنون الكر والفر ما أصاب جنود الشرك بالزلزال ، فأقدموا على الموت غير هيابين ، حتى نال من استشهد منهم شرفَ الشهادة وجزاءها ، وتلك هى سنة الحياة التى فطرنا الله عليها ، فالعواقب السارة لابد لها من مقدمات تستغرق الجهد ، وتستلزم الصبر ، حتى يظهر الفرق بين الكرام واللئام .

لقد بذل الفريقان فى هذا اليوم من الجهد ما جعل هذا اليوم مميزا بما حدث فيه ، وبمن نال الشهادة من المسلمين ، الذين شرفوا بأن يقدمهم حمزة بن عبد المطلب ، فنالوا جميعا فخر السيادة والشرف ، كما تميز هذا اليوم بما نال النبى ﷺ فيه من حرج ، حين اشتد وطيس الحرب ، وانقلب انتصار المسلمين هزيمة بسبب ما وقع فيه الرماة من خطأ ــ على ما أشار إليه البارودى من غير إفصاح ــ فالتزم ﷺ الصبر ، حتى يخرج من المعركة بأقل خسائر ممكنة وقد حقق فى ذلك ما أراده .

ثم استدارت رحا الهيجاء فى أحــد بكــل مفتــرس للقِـــرن ملتهم(٤)

يومٌ تبيَّـــنَ فيـــه الجد واتضحت جليَّةُ الأمر بعـد الجَهْـد والسأم(٥)

قد كان خُبْرا ، وتمحيصا ، ومغفــرة للمؤمنين ، وهـل برءٌ بلا سَقَــم؟!(٦)

---

(١) الفرع ــ بضم فسكون ــ: قرية من نواحى الربذة ، بينها وبين المدينة ثمانية برد ، على طريق مكة ، وهى قرية غناء كبيرة ، ثقف الرجل فى الحرب ــ بفتح فضم ــ: أدركه ، العارض : ما اعترض فى الأفق فسده ، من سحاب أو جراد أو نحل ، الهزم ــ بفتح فكسر ــ: الغيث لا ينقطع .

(٢) لف الشيء بالشيء : ضمه إليه ووصله به ، بنو قينقاع : من يهود المدينة ، جنى : أذنب ، تعساً لهم : دعاء عليهم ، القزم ــ بضمتين ــ: الدنىء اللئيم .

(٣) قردة ــ بفتح فسكون ــ: ماء بنجد ، النعم ــ بفتحتين ــ: المال السائم .

(٤) الرحا : الأداة التى يطحن بها ، الهيجاء : الحرب ، القرن للإنسان ــ بكسر القاف وسكون الراء ــ: مثله فى الشجاعة والشدة ، والعلم ، والقتال ، وغير ذلك . التهم الشيء : ابتلعه بمرة .

(٥) جلية الأمر : حقيقته ، الجهد ــ بفتح فسكون ــ: المشقة ، وبفتح الجيم وضمها : الوسع والطاقة ، السأم : الملل .

(٦) الخبر ــ بضم فسكون ــ: الابتلاء والامتحان ، التمحيص : التخليص من الشوائب والعيوب ، غفر الذنب : ستره وعفا عنه ، البرء : الشفاء ، السقم ــ بفتحتين ، وبضم فسكون ــ: طول المرض .

مضى علىٌّ به قُدمـاً فزلزلهم ... بحملة أوْردتهم مَوْرِدَ الشجَم[1]

وأظهر الصحب والأنصار بأسهمُ ... والبأس فى الفعل ، غير البأس فى الكلم[2]

خاضوا المنايا ، فنالوا عيشةً رغداً ... ولذةُ النفس لا تأتى بلا ألم[3]

من يلزم الصبر يستحسن عواقبه ... والماءُ يَحْسُنُ وقعًا عند كل ظَمِ[4]

لو لم يكن فى احتمال الصبر منقبةٌ ... لم يظهر الفرقُ بين اللؤم والكرم[5]

فكان يومًا عتيد البأس ، نال به ... كلا الفريقين جَهْدًا وارىَ الحَدَم[6]

أودَى به حمزةُ الصِّنديد فى نفر ... نالوا الشهادة تحت العارض الرَّزِم[7]

أحْسِنْ بها مِيتة ، أحبب بها شرفا ... والموت فى الحرب ، فخر السادة القُدُم[8]

لا عار بالقوم من موت ومن سلَب ... وهل رأيت حساما غير منثلم[9]

فكان يومَ جزاءٍ بعد مختَبَرٍ ... لمن وفا وجفا بالعز والرغَم[10]

قام النبى به فى مأزِق حَرَج ... ترعى المناصلُ فيه منبت الجُمَم[11]

فلم يزل صابرًا فى الحرب يفثؤها ... بالبيض حتى اكتست ثوبا من العَنَم[12]

ورَدَّ عينَ ابن نعمان قتادَةُ إذ ... سالت ، فعادت كما كانت بلا لَتَم[13]

---

(١) القدم ـ بضم فسكون ـ: المضى إلى الأمام ، الحملة فى الحرب : الكر ، أو رده الطريق : جعله يرده ويدخله ، والمورد ـ بكسر الراء ـ: الطريق ، الشجم ـ بفتحتين ـ: الهلاك .

(٢) البأس : الشدة فى الحرب .

(٣) خاض الأمر ، وخاض فيه : دخله ومشى فيه ، المنايا ـ جمع المنية ـ: الموت ، نال الشىء : حصل عليه ، العيش الرغد ـ بفتحتين ـ: الكثير الواسع الذى لا يتعب فيه .

(٤) وقع الكلام فى نفسه : أثر فيها ، ووقع الأمر عنده موقعاً حسناً : نال منه حظاً ومنزلة .

(٥) المنقبة ـ بفتح فسكون ففتح ـ: الفعل الكريم والمفخرة ، اللؤم : دناءة الأصل وشح النفس .

(٦) العتيد : المهيأ والحاضر ، البأس : الحرب ، الفريقان : جيش المسلمين وجيش المشركين ، الجهد ـ بفتح فسكون ـ: المشقة ، الزند الوارى : الذى خرجت ناره ، والحدم ـ بفتحتين ـ: الاتقاد والالتهاب .

(٧) أودى به : ذهب به ، الصنديد ـ بكسر فسكون ـ: الشريف الشجاع ، النفر ـ بفتحتين ـ من ثلاثة إلى عشرة من الرجال ، العارض : ما اعترض فى الأفق فسده ، من سحاب أو جراد أو نحل ، الرزم ـ بفتح فكسر ـ الغيث الذى لا ينقطع رعده .

(٨) الشرف : العلو والمجد ، القدم من الرجال ـ بضمتين ـ: الشجاع .

(٩) العار : كل ما يلزم منه سبة أو عيب ، السلب ـ بفتحتين ـ: ما يسلب ، الحسام : السيف القاطع ، انثلم السيف : تشقق حده فأصبح غير ماضى القطع .

(١٠) وفى الرجل بعهده : عمل به ، جفا : نبا وبعد ، وجفا الشىء : أبعده وطرحه ، عز فلان عزا : قوى وبرىء من الذل ، وعز عليه الأمر : اشتد وشق ، الرغم ـ بفتحتين ـ: الإكراه على عمل .

(١١) المأزق ـ بكسر الزاى ـ: المضيق الحرج بفتح الراء ، والحرج : الضيق والإثم ، المناصل ـ جمع المنصل بضم فسكون ـ: السيف ، الجمم ـ بفتحتين ـ جمع الجمة من الإنسان : مجتمع شعر ناصيته .

(١٢) فثأ فلانا عن رأيه : صرفه عنه ، العنم ـ بفتحتين ـ: نبات أملس . أزهاره قرمزية ـ بكسر القاف ـ: يتخذ منها خضاب .

(١٣) فى معركة أحد أصيبت عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته فردها رسول الله ﷺ بيده ، فصحت وكانت أحسن عينيه ، لثمت الحجارة رجل الماشى : عقرتها .

وعاد البارودى ثانية للاكتفاء بالإشارة التاريخية إلى بعض الغزوات والسرايا ، فنبه إلى ما كان بعد أحد فى يوم الرجيع ـ وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز ـ من غدر بالعهد ، إشارة إلى ما رواه ابن هشام من أن رهطا من (عضل) ـ بفتح العين والضاد ـ و (القارة) ـ بالراء المخففة ـ وهما من الهون ـ بفتح فسكون ـ ابن خذيمة قدم على النبى ﷺ طالبين منه أن يبعث معهم نفرا من أصحابه يفقهونهم فى الدين ، ويقرئونهم القرآن ، ويعلمونهم شرائع الإسلام لأن فيهم ميلا إلى الإسلام ، فبعث معهم نفرا ، فلما كانوا على الرجيع استصرخوا عليهم هذيلا ، ثم أخذوهم أسرى ليقدموهم إلى قريش ، ونبه كذلك إلى حادثة بئر معونة ، حيث استجاب رسول الله ﷺ لرجاء أبى براء ، عامر بن مالك ـ المعروف بملاعب الأسنة ـ بأن يبعث معه فى جواره من يدعو أهل نجد للإسلام ، فبعث معه أربعين رجلا ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة ـ وهى بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم ـ فنقض عامر بن الطفيل وبنو سليم عهد أبى براء ، وناجزوهم الحرب حتى قتلوهم جميعا عدا كعب بن زيد . ثم أشار إلى تآمر بنى النضير على رسول الله ﷺ حين خرج إليهم فى أمر دية قتيلين من بنى عامر ، حيث أرادوا أن يستغلوا وجوده بينهم ليقتلوه بإلقاء صخرة عليه ، فأوحى إليه ما دبره القوم ، فأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم ، حيث انتهى الأمر بإجلائهم ، ثم ذهب ﷺ على رأس جيش للانتقام من أهل نجد ، ولأن المسلمين فى تلك الغزوة رقعوا راياتهم سميت (ذات الرقاع) ، وتلا ذلك بالحديث المجمل عن غزوه بدر الآخرة ، حين ذهب رسول الله ﷺ إلى بدر فى انتظار أبى سفيان ، الذى فر هاربا من طريق آخر ، ثم كان غزوة ﷺ دومة الجندل ، فلم يلق بها من يحاربه .

وقــد أتى بعــد ذا يومُ الرجيـــع بما	**فيه من الغدر ، بعد العهد والقسم[1]**
وثـــار نقـــع المنايـــا فى معونـــة من	**بنى سليم بأهل الفضل والحِكَـم[2]**
ثم اشرأبت لخفـر العهــد من سفــه	**بنو النضير ، فأجلاهم عن الأطُم[3]**
وسار منتحيـا ذات الرقـاع فلـــم	**تَلْقَ الكتائبُ فيها كيـد مصطـدم[4]**
وحـلَّ من بعدها بدرًا لوعــدِ أبى	**سفيــان ، لكنــه ولَّـى ولم يَحُـم[5]**
وأمَّ دُوْمــة فى جمع ، وعـــاد إلى	**مكانـه ، وسماء النقْـع لم تَغِـم[6]**

(١) الرجيع : ماء لهذيل بناحية الحجاز .

(٢) النقع ـ بفتح فسكون ـ : الغبار الساطع ، بئر معونة : بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم ، الحكم ـ جمع الحكمة ـ : العلم والتفقه ، والكلام الذى يقل لفظه ويجل معناه .

(٣) اشرأب إليه وله : مد عنقه ، أو ارتفع لينظر إليه ، خفر العهد ـ بفتح فسكون ـ : نقضه ، السفه : الخفة والطيش والجهل ، أجلى العدو عن الأرض : أخرجهم منها ، الأطم ـ بضمتين ـ : الحصن ، وجمعه الآطام والأطوم .

(٤) انتحى ذات الرقاع : قصدها ، ذات الرقاع : شجرة بأحد منازل بنى ثعلبة ، الكتائب ـ جمع الكتيبة ـ : الجيش ، الكيد : إرادة مضرة الغير ، اصطدما : صدم كل منهما الآخر .

(٥) حل المكان وبه : نزل ، ولى عن المكان : أدبر عنه وفر ، حام حول الشىء : دار .

(٦) دومة : دومة الجندل ـ بضم الدال ـ : اسم حصن ، النقع : الغبار الساطع ، غامت السماء : غطاها الغيم .

غزوة الخندق وماترتب عليها :

ثم ذكر ما كان من قريش حين أرادت الثأر من المسلمين ، فاستثارت أحلافها ، ثم خرجت فى جيش عظيم قام فيه أبو سفيان حاضا على الهجوم الشرس ، تنفيسا عن أحقاده ، وما تمتلىء به نفسه من حنق وغيظ ، فقابلهم المسلمون بحفر خندق حول المدينة ليحميها من هجوم المعتدين ، ثم وقفوا فى المواجهة أسودا تحمى آجامها ، فلم يستطع المعتدون أن يحققوا مآربهم ، ولا أن يصلوا إلى شىء مما أرادوه ، لأنهم لم يدركوا أنهم يريدون مستحيلا ، لأنهم إنما يحاربون الله ، ولذلك خيب الله مسعاهم ، فأرسل عليهم ريحا عاتية قوضت دعائم مخيماتهم فحطمتها وقلبت موازينهم ، وأثارت الاضطراب والهرج فى معسكرهم ، فاضطروا إلى الفرار ليلا ، فلقى الباغى جزاء بغيه ، ونال المغرور ثمرة غروره ، وتلك هى النهاية الطبيعية لكل طامع معتد :

ثم استثـارت قريش ـ وهــى ظالمة ـ   أحلافها ، وأتت فى جَحْفَــل لَهِــم[1]

تستمرىء البغى من جهل ، وما علمت   أن الجهالــة مَدْعــاةٌ إلى الثَّلــم[2]

وقــام فيهمْ أبــو سفيــان من حَنَــق   يدعو إلى الشر، مثلُ الفحل ذى القَضَم[3]

فخنـدق المؤمنـون الـدارَ ، وانتصبــوا   لحربهم ، كضوارى الأسد فى الأجَم[4]

فمـا استطاعت قريش نيـلَ ما طلبت   وهـل تنالُ الثريَّا كفُّ مستلــم؟![5]

رامت بجهـلتها أمـرا ، ولــو علــمت   ماذا أُعِــدَّ لها فى الغــيب لم تَرُم[6]

فخــيَّب الله مسعاهــا ، وغادرهــــا   نهبَ الرَّدَى والصدى والريح والطَّسَم[7]

فقـوضَت عمـد التَّرحـال ، وانصرفت   ليــلا إلى حيث لم تسرح ، ولم تَسُم[8]

وكيـف تُحمـد عُقْبَى ما جنت يدهــا   بغيا ، وقد سَرَحت فى مرتع وخـم؟![9]

---

(١) استثاره : هيجه ونشره ، الأحلاف ـ جمع الحليف ـ: المتعاهد على التناصر ، الجحفل : الجيش الكثير فيه خيل ، اللهم ـ بفتح فكسر ـ: الأكول .

(٢) استمرأ الشىء : وجده هنيئاً حميد المغبة ، البغى : الظلم ، المدعاة : الدعوة ، الثلم ـ بفتحتين ـ: وجود الانشقاق .

(٣) الحنق ـ بفتحتين ـ: اشتداد الغيظ ، الفحل : الذكر القوى من كل حيوان ، القضم ـ بفتحتين ـ: تكسر أطراف السن .

(٤) خندق : حفر خندقاً ، الأسد الضارى : الذى اشتد جوعه ، الأجم جمع الأجمة : الشجر الكثير الملتف .

(٥) الثريا : نجم ، سمى بذلك لكثرة أنجمه مع صغر منظره .

(٦) رام الشىء : طلبه .

(٧) الردى : الهلاك ، الصدى : العطش الشديد ، الطسم ـ بفتحتين ـ: الظلام والغبرة .

(٨) قوض البناء ـ بتضعيف الواو ـ: هدمه ، سرحت الماشية ـ بفتحتين ـ: سامت ، وسامت الماشية : رعت حيث شاءت .

(٩) العقبى ـ بضم فسكون ـ: الجزاء ، جنى : أذنب ، البغى : الظلم ، المرتع : الموضع الذى ترعى فيه الماشية وتلعب . وخم الأمر ـ بفتح فضم ـ فهو وخم ووخيم : أى ثقيل ردىء .

قد أقبلت ، وهي في فخر وفي جذل — وأدبرت ، وهي في خِزْي وفي سَدَم[1]
من يركب الغَيَّ لا يحمد عواقبه — ومن يُطِع قلبُهُ أمر الهوى يَهِم[2]

وقد ترتب على غزوة الخندق توجه الرسول ﷺ لغزو يهود بني قريظة لنقضهم عهدهم مع رسول الله ﷺ ، وسعيهم لدفع قريش إلى تجميع الأحزاب العربية لغزو المسلمين ، على أن يعينوهم على اقتحام المدينة ، فلما رجعت قريش ومن معها من الأحزاب رأى ﷺ أن خيانة بني قريظة تستوجب طردهم من المدينة لاستحالة ائتمانهم بعد ذلك ، ولكن اليهود لجأوا إلى حصونهم ظنا منهم أنها مانعتهم من الانتقام ، فلما تبينوا عدم جدوى الحصون نزلوا على قراره ﷺ ، وخرجوا أذلاء ، وما حدث لبني قريظة حدث مثله لبني المصطلق ، فطهرت المدينة من رجس هؤلاء وأولئك ، ثم توجه إلى بني لحيان لينتقم منهم لما صنعوه في يوم الرجيع ، وعقب رجوعه ﷺ إلى المدينة يمم صوب ذي قرد ليؤدبهم على ما صدر من عيينة بن حصن بن بدر الفزادي الذي انتهز خروج الرسول إلى بني لحيان فأغار على لقاح لرسول الله ﷺ بالغابة ، وبعد عودته بنحو شهرين توجه إلى مناجزة بني المصطلق من خزاعة بالمريع ، حين علم بتأهبهم للإغارة على المدينة ، فلقيهم على ماء لهم يقال له المريع .

ثم انتحى بوجوه الخيل ساهمة — بني قريظة في رَجْراجة حُطَم[3]
خانوا الرسول ، فجازاهم بما كسبوا — وفي الخيانة مدعاة إلى النقم[4]
وسار ينحو بني لِحيان ، فاعتصموا — خوف الردى بالعوالي كل معتصم[5]
وأمَّ ذاقَرَدٍ في جحفل لَجِب — يَسْتَنُّ في لاحب باد ، وفي نَسَم[6]
وزار بالجيش ــ غزوا ــ أرضَ مصطَلَق — فما اتقوه بغير البيض في الخَدَم[7]

---

(1) الجذل ــ بفتحتين ــ: الفرح ، الخزي ــ بكسر فسكون ــ: السوء والشر والفضيحة . السدم ــ بفتحتين ــ: الاصابة بالهم أو الغيظ مع الحزن .

(2) الغي ــ بفتح الغين ــ: الإمعان في الضلال ، وركوب الغي : فعله وارتكابه ، الهوى : الحب ، هام فلان يهيم : خرج على وجهه في الأرض لا يدري أين يتوجه .

(3) انتحى : مال إلى ناحية . سهم يسهم ــ بوزن فتح يفتح ــ: تغير لونه عن حال لعارض من هم أو حزن ، بنو قريظة : من يهود المدينة ، الرجراج ــ بفتح فسكون ــ: الكتيبة لا تكاد تسير لكثرتها ، الحطم ــ بالتحريك ــ: الأكول الذي لا يشبع .

(4) المدعاة : الدعوة ، النقم ــ بكسر ففتح ــ جمع النقمة : العقوبة .

(5) بنو لحيان ــ بكسر اللام ــ: حي من هذيل ، اعتصم به : امتنع ولجأ ، الردى : الهلاك ، العوالي ــ جمع العالية ــ: من الوادي ، حيث ينحدر الماء منه ، والعالية أيضا : ما فوق نجد إلى تهامة إلى ما وراء مكة .

(6) أم : قصد ، ذو قرد ــ بفتح القاف والراء ــ: موضع قرب المدينة ، الجحفل ــ بفتح فسكون ــ: الجيش الكثير فيه خيل ، اللجب ــ بفتح فكسر ــ: ذو الصياح والجلبة والاضطراب ، استن الفرس : جرى في نشاطه على سننه في جهة واحدة ، اللاحب : الطريق الواضح ، النسم ــ بفتحتين ــ: الطريق الدارس .

(7) الخدم ــ بفتحتين ــ جمع الخدمة : سير غليظ محكم مثل الحلقة يشد في رسغ البعير .

وفى أواخر سنة ست من الهجرة قرر رسول الله ﷺ أن يخرج إلى البيت الحرام معتمرا ، فلما اعترضه مشركو مكة عند قرية الحديبية قبيل وصوله إلى مقصده ، فتح باب التفاوض ، حيث انتهت المفاوضات بعقد صلح بين الطرفين عرف بصلح الحديبية ، كان من أبرز ما تقرر فيه وقف الحرب عشر سنوات حتى يأمن الناس

وفى الحديبيـــة الصلـــح استـــتب إلى عشر ، ولم يجر فيها من دمٍ هَدَم[1]

ولما عاد ﷺ إلى المدينة بعد صلح الحديبية ، جهز جيشا وسار به إلى خيبر التى تجمع فيها اليهود ، واتخذوا منها مركزا لمناوأة المسلمين ، ومعاونة خصومهم ، معتزين بحصونها حتى استعصت فى اليوم الأول على أبى بكر ، واستعصت ثانى يوم على عمر ، فلما رأى قوة حصونها ومنعتها ، استثار فى المسلمين حمية الإسلام بقوله : غدا سأعطى رايتى رجلا شجاعا قويا يحبنى ويحب الله ، يفتح الله على يديه الحصون المنيعة ، لم يعرف الفرار ولا اليأس ، فكان كل واحد يتمنى أن يكون هو المعنى ، فلما بزغ الفجر وجد المسلمون جميعا أن رافع العلم هو على بن أبى طالب بعد أن أبرأه الله من رمد أصاب عينيه حين نفث فيهما رسول الله ﷺ ، فنهض على بأمر القيادة ، وسار حتى قارب حصون خيبر شاهرا سيفه فأفزع من رآه منهم ، وخرجوا إليه متكاثرين ، فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده ليمهد السبيل إلى طعنه أو ضربه ، ولكن عليا كرم الله وجهه مال على أحد أبواب الحصن فتناوله ليتترس به وكان ثمانية من الصحابة قد حاولوا تناوله من قبل فلم يستطيعوا ، لضخامته وثقله ، ولم يزل فى يده وهو يقاتل مقتحما به كل تجمعاتهم ، حتى طلع فجر النصر ، وظهرت بشائره ، وذاعت فى كل مكان هناك ، فكان نصرا للحق تاه به الزمان ، واستبشر به ، وازدادت أفراح المسلمين فى ذلك اليوم حين عاد جعفر بن أبى طالب من الحبشة ــ وكان فيمن هاجر إليها ــ فأصبح المسلمون فى عيدين ، عيد النصر ، وعيد عودة جعفر ، رجعوا بهما قاصدين طيبة فى عز ونعمة ، حيث تهيأوا لقصد بيت الله الحرام معتمرين ، وفق ما قرره صلح الحديبية .

وجـــاء خيبـــــرَ فى جأواءَ كالحةٍ والخيل كالسيل ، والأسياف كالضرم[2]

حتـــى إذا امتنـــعت شم الحصون على من رامها ، بعد إيغـــال ومقتحـــم[3]

قال النبى : سأعطى رايتـــى رجـــلا يحبنـــى ، ويحب الله ذا الكـــــرم

---

(١) استتب الأمر : اطرد واستقام واستقر ، الدم الهدم ــ بفتحتين ــ: الدم المهدر .

(٢) جئى الفرس ــ بوزن سمع ــ: ضربت حمرته إلى الكدرة ، فهو أجأى ، وهى جأواء ، والكتيبة الجأواء : كدراء اللون فى حمرة ، وهو لون صدأ الحديد ، الكالحة : العابسة ، الضرم ــ بفتحتين ــ: لهب النار .

(٣) الشم ــ بضم الشين جمع الأشم ــ: العالى ، أوغل فى البلاد : ذهب وبالغ وأبعد ، المقتحم : الاقتحام ، وهو الدخول عنوة .

ذا مِرَّة يفتح الله الحصون علَى ... يديه ، ليس بفرار ، ولا بَرِمِ(1)

فما بدا الفجر إلا والزعيمُ علَى ... جيش القتال علىٌّ رافع العلم

وكان ذا رمد ، فارتد ذا بصر ... بنفثةٍ أبرأت عينيه من وَرَم(2)

فسار معتزما ، حتى أناف على ... حصون خيبر بالمسلولة الخُذُم(3)

يمضى بُمنْصُله قُدما ، فيلحمه ... مجرى الوريد ، من الأعناق واللِّمَم(4)

حتى إذا طاح منه الترس تاح له ... بابٌ ، فكان له تُرسًا إلى العَتَم(5)

بابٌ أبت قلْبه جَهْداً ثمانيةٌ ... من الصحابة أهل الجِدّ والعَزَم(6)

فلم يزل صائلا فى الحرب مقتحما ... غيابة النقع مثل الحيدر القَرِم(7)

حتى تبلج فجر النصر وانتشرت ... به البشائر بين السهل والعلم(8)

أبشر به يوم فتح ، قد أضاء به ... وجهُ الزمان ، فأبدى بشر مبتسم

أتى به جعفرُ الطيار فابتهجت ... بعَوْدة أنفس الأصحاب والعُزَم(9)

فكان يوما حوى عيدين فى نسق ... فتحا ، وعودَ كريم طاهر الشيم(10)

وعاد بالنصر مولى الدين منصرَفا ... يؤم طيبة فى عز وفى نِعَم(11)

ثم استقام لبيت الله معتمرا ... لنيل ما فاته بالهدى للحرم(12)

---

(1) المرة ـ بكسر الميم ـ: القوة والأصالة والإحكام ، البرم ـ بفتح فكسر ـ: من سئم الشيء وضجر به .

(2) الرمد : داء التهابى يصيب العين . ارتد إلى حاله : عاد ، النفثة : النفخة ، أبرأ الله المريض : شفاه .

(3) اعتزم للأمر : احتمله وصبر عليه ، أناف عليه : أشرف ، المسلولة : السيوف المنتزعة من أغمادها ، السيوف الخذم ـ بضمتين ـ: القاطعة .

(4) المنصل ـ بضم فسكون ـ: السيف ، القدم ـ بضم فسكون أو ضم ـ: المضى إلى الأمام ، ألحم الفارس السيف : أطعمه اللحم ، الوريد : كل عرق يحمل الدم الأزرق من الجسد إلى القلب . اللمم ـ جمع اللمة ـ: شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن .

(5) طاح الترس : سقط ، الترس ـ بضم فسكون ـ: ما يتوقى به فى الحرب ، تاح له الشىء : تهيأ ، العتم ـ بفتحتين ـ: الدخول فى الليل .

(6) أبت قلبه : لم تستطع قلبه ، الجهد ـ بفتح فسكون ـ: المشقة ، الجد ـ بالكسر ـ: الاجتهاد ، العزم ـ بالتحريك ـ: العزم ـ بسكون الزاى وحركت للشعر ـ: الصبر والجد .

(7) صال عليه : سطا عليه ليقهره ، اقتحم الأمر العظيم : رمى بنفسه فيه من غير روية ، الغيابة : غياب كل شىء قعره ، النقع ـ بفتح فسكون ـ: الغبار الساطع ، الحيدر ـ بفتح فسكون ـ: الأسد ، القرم ـ بفتح فكسر ـ: الذى اشتدت شهوته إلى اللحم .

(8) تبلج الفجر : أسفر فأنار .

(9) جعفر الطيار : جعفر بن أبى طالب ، ابتهج : امتلأ سروراً ، العزم ـ بضم ففتح ـ: جمع العزمة ، وعزمة الرجل ـ بضم فسكون ـ: أسرته وقبيلته .

(10) الشيم ـ بكسر ففتح ـ جمع الشيمة : الخلق .

(11) المولى : كل من ولى أمراً أو قام به .

(12) استقام : اعتدل واستوى ، اعتمر : أدى العمرة ، وهى نسك كالحج ، ليس له وقت معين ، ولا وقوف بعرفة ، الهدى ـ بفتح فسكون ـ: ما يهدى إلى الحرم من النعم .

وبعد عودته ﷺ من عمرة القضاء بنحو خمسة أشهر ، أعد جيشا بقيادة زيد بن حارثة لتأديب الغساسنة بسبب غدرهم وقتلهم رسول رسول الله ﷺ إلى عامل هرقل على بصرى ، فسار زيد حتى إذا كان بمؤتة ـ وهى موضع بالشام ـ لاقاهم جيش جرار من الروم والعرب الغساسنة ، فدارت رحى الحرب ، واقتتل المسلمون فيها قتال من ينصر الحق ـ على الرغم من الفارق الكبير بين عدد الجيشين ، فقد كان عدد المسلمين ثلاثة آلاف بينما بلغ جيش الروم مائة ألف ـ حتى قتل القادة الثلاثة زيد ثم جعفر بن أبى طالب ، ثم عبدالله بن رواحة ، غير مبالين بالمصاب ، فليس فى القتل عار يؤاخذ به الشهم الجرىء ، لأن الموت فى سبيل المعالى خير غنيمة :

وسار زيـــــد أميرا نحو مؤتـــــة فى ... بعث ، فلاق بها الأعداء من كثم (١)

فعبــأ المسلمــون الجنــد ، واقتتلــوا ... قتــال منــتصرٍ للحــق ، منتقــم (٢)

فطار زيـد ، وأودى جعفــر ، وقضى ... تحت العجاجــة ،عبـــدُ الله فى قُدُم (٣)

لا عار بالموت ، فالشهـم الجرىءُ يرى ... أن الـردى فى المعالى خيـرُ مغتنــم (٤)

فتح مكة وأسبابه :

ولما نقضت قريش عهدها الذى أبرمته فى صلح الحديبية ، ومالأت بنى بكر أعداء الإسلام على خزاعة حلفاء المسلمين ، قام النبى ﷺ لينتقم من المشركين ، وينصر الحق بجيش جرار يثير الغبار من كثرته ، وعلى الرغم من ذلك فإن كثرة السيوف لم تترك الغبار يحجبها عن الناظر ، حتى بدت السيوف من خلال الغبار المثار كالشهب تلمع فى ظلام الليل ، وحتى صار اختلاط صهيل الخيل بلمع السيوف كأنه البرق والرعد فى المطر الكثير الدائم .. هذا الجيش الذى ضم الفرسان الشجعان الذين أذلوا الأعزاء من القوم ، لاعتزازهم بالصبر والثبات ، حتى طاولوا النجوم ، وحققوا المعجزات ، فقد طابت نفوسهم بالموت لعلمهم أن الحياة الآخرة هى مبتغاهم ، فلم يستشعروا الخوف ، وأصبحت الجياد طوع أمرهم ، ورهن إشارتهم ، فهى ـ لحسن إعدادها وتدريبها ـ تفقه القول ، وتعى الإشارة ، فتندفع بفرسانها بين الغبار المثار اندفاع الصقر الذى اشتد نهمه إلى اللحم . أما السيوف فكانت تهتز فى أغمادها من شدة الظمأ ، وأما الرماح فكانت ترعد فى أيدى هؤلاء الأشاوس . هذه السيوف والرماح يحملها فرسان يسابقون الموت نحو الخصم ، كأن الواحد منهم واحدة من أخبث الحيات بما تحمله من أسباب الموت .

---

(١) مؤتة : موضع بالشام ، البعث : الرسول واحداً أو جماعة ، كثم الرجل ـ من باب تعب ـ : شبع ، أو عظم بطنه .

(٢) عبأ الجند : جهزهم فى مواضعهم وهيأهم للحرب .

(٣) أودى : هلك ، قضى فلان : مات ، العجاجة : الغبار ، القدم من الرجال ـ بضمتين ـ : الشجاع .

(٤) العار : كل ما يلزم منه سبة أو عيب ، الشهم : الصبور على القيام بما حمل ، الردى : الموت والهلاك ، المعالى ـ جمع المعلاة ـ : الرفعة والشرف .

فلم يزل ﷺ سائرا بهذا الجيش ، حتى أشرف على مكة ، فلما رأوا هذا الجيش ، وأدركوا أن لا مفر من الاستسلام أقبلوا عليه ﷺ يرجون صفحه عنهم .. فلما استسلمت قريش ــ بعد طول عناد ــ تحت تأثير الخوف من الحرب ، أقبل النصر مؤكدا أن ما لم يحققه القلم والدعوة بالتى هى أحسن ، قد تحقق بقوة السيف والخوف منه ، فلم يكن هناك مجال للعناد بعد ذلك ، وتوالى الدخول فى حوزة الإسلام ، تسابقا إلى الخير ، واغتناما له ، وحرصا على تحقيق المآرب ، واعتزازاً بحمى الإسلام ، فهذا الدين هو الذى أحيا به الله القلوب ، كما أحيا النبات بالمطر .

وكان ثمرة هذا التلاق عقد صلح بين رسول الله ﷺ وأهل مكة ، قررت فيه الحقوق والواجبات .. عندئذ قام النبى ﷺ بشكر الله على ما أنعم به على المسلمين ، ونهض يطوف بالبيت سبعا فوق راحلته ، وكان فى طوافه كلما أشار بعصاه إلى صنم سقط على الأرض . وفى ذلك قال البارودى :

وحين خاست قريشٌ بالعهــــود ولم ... تصف وسارتْ من الأهـواء فى نِقَـم[1]

وظاهــرت من بنــى بكــر حليـفتها ... على خزاعـة أهـل الصدق فى الذِّمَـم[2]

قام النبــى لنصر الحق ، معتزمـــا ... بجحفـل لجمــوع الشرك مختــــرم[3]

تبدو به البيض ــ والقَسْطال منتشر ــ ... كالشهب فى الليل ، أو كالنار فى الفحَم[4]

لمعُ السيوف ، وتَصْهــالُ الخيــول به ... كالبرق والرعــد فى مغـدودق هَزِم[5]

عرمــرم ينسف الأرض الــفضاء إذا ... سرى بها ، ويـدك الـهَضْب من خِيم[6]

فيــه الكمــاة التــى ذلت لعـــزتها ... معاطِسٌ لم تُذلَّل ــ قبل ــ بالخُطُم[7]

---

(١) خاس فلان العهد وبالعهد : نقضه وخانه ، وصف الثوب الجسم : أظهر حاله وبين هيئته ، ووصف المهر والناقة : أجاد السير وجد فيه ، النقم ــ بكسر ففتح ــ جمع النقمة : العقوبة .

(٢) ظاهر فلاناً : عاونه ، الذمم ــ بكسر ففتح ــ جمع الذمة : العهد والأمان والكفالة .

(٣) الجحفل : الجيش الكثير فيه خيل . اخترمته المنية : أخذته .

(٤) تبدو : تظهر ، البيض ــ جمع الأبيض ــ : السيوف ، القسطال والقسطل : الغبار فى الموقعة ، الشهب ــ جمع الشهاب ــ الشعلة الساطعة من النار ، والنجم المضىء اللامع المنقض من السماء .

(٥) التصهال ــ بفتح فكسر ــ والصهيل : صوت الخيل ، اغدودق المطر : كثر قطره ، الهزم ــ بفتح فكسر ــ : الغيث لا ينقطع .

(٦) العرمرم : الجيش الكثير ، نسف الحافر الأرض : سحقها ورمى بترابها ، الهضب ــ بفتح فسكون ــ جمع الهضبة : الجبل المنبسط الممتد على وجه الأرض ، الخيم ــ بكسر فسكون ــ : فرند السيف وهو ما يلمح فى صفحته من أثر تموج الضوء ، والخيم : الأصل .

(٧) المعاطس ــ جمع المعطس بفتح فسكون ــ : الأنف ، الخطم ــ بضم الخاء والطاء ــ جمع الخطام ــ بالكسر ــ : الزمام .

من كل معتـــزم بالصبر ، محتـــزم ... للقِرن ، ملتـزم فى البـأس ، مهتـزم [١]

طالت بهم همم نالـوا السِّمـــاك بها ... عن قدرةٍ ، وعُلوُّ النـفس بالهمـــم [٢]

بيض أساورة ، غُلب قساورة ... شُكس لدى الحرب ، مطعامون فى الأزم [٣]

طابت نفوسهـم بالموت إذ علمـــوا ... أن الحيــاة التــى يبغــون فى العَـدم

ساسوا الجيـاد ، فظلـت فى أعـنتها ... طوعَ البنانـــة فى كر ومقْتَحَـــم[٤]

تكـاد تفقــه لحن القـول من أدب ... وتسبق الوحى ، والإيماء من فهـم[٥]

كأن أذنابَهـا فى الكَــرِّ ألويـــة ... على سفين لأمـــر الـــريح مرتَسِم[٦]

من كل منجـــرد ، يهوى بصاحبـــه ... بين العجاج هُوِىَّ الأجـدل اللحـم [٧]

والبيض ترجف فى الأغماد من ظمأ ... والسمـر ترعــد فى الأيمان من قَرَم [٨]

من كل مطَّـــردٍ ، لولا علائقـــهُ ... لسابَق الموت نحو القِرن من ضَرَم [٩]

كأنــه أرقــم فى رأسه حُمَـــةٌ ... يَستَل كيـد الأعادى بابنة الرَّقَـم[١٠]

فلم يزل سائـرا حتـى أنـاف على ... أرباض مكـة بالفُرسان ، والبُهَـم[١١]

---

(١) اعتزم للأمر : احتمله وصبر عليه ، احتزم الرجل : شد وسطه بالحزام ، القرن من القوم ـ بكسر فسكون ـ: السيد ، التزم الشيء أو الأمر : أوجبه على نفسه ، البأس : الحرب ، اهتزم الأمر : اعتزمه وأسرع إليه .

(٢) الهمم ـ جمع الهمة ـ: العزم القوى ، السماكان ـ بكسر السين ـ: نجمان نيران ، أحدهما فى الشمال ـ وهو السماك الرامح ـ والآخر فى الجنوب ، وهو السماك الأعزل .

(٣) فلان أبيض : نقي العرض ، الأساورة ـ جمع الأسورة وهى جمع الإسوار بكسر فسكون ـ: الجيد الرمي بالسهام وغيرها ، ويطلق على القائد الفارسى ، الغلب ـ بضم فسكون ـ جمع الأغلب : من غلظ عنقه ، القساورة ـ جمع القسورة ـ: الأسد ، الشكس ـ بضم فسكون ، جمع شكس بفتح فكسر ـ: الصعب الخلق ، المطعام : الكثير الإطعام ، الأزم ـ بضمتين ـ جمع الأزوم : العام اشتد قحطه .

(٤) الأعنة ـ جمع العنان ـ بكسر العين : سير للجام الذى تمسك به الدابة ، البنانة ، واحدة البنان : أطراف الأصابع ، اقتحم فلان العقبة : رمى بنفسه على شدة يريد اجتيازها وتخطيها .

(٥) اللحن : اللغة .

(٦) الأذناب ـ جمع الذنب ـ: ذيل الحيوان ، الكر ـ بفتح الكاف ـ: الحمل فى الحرب ، الألوية ـ جمع اللواء ـ: العلم ، ارتسم الأمر : لم يحد عنه .

(٧) الفرس المنجرد : المسرع فى سيره ، الأجدل : الصقر ، اللحم ـ بفتح فكسر ـ: المشتهى اللحم .

(٨) ترجف : تضطرب اضطرابا شديدا ، السمر ـ بضم فسكون ـ جمع الأسمر : الرماح ، القرم ـ بفتحتين ـ: المشتهى اللحم .

(٩) المطرد : المتتابع ، العلائق ـ جمع العلاقة ، بفتح العين ـ: ما تتبلغ به البهائم من الشجر ، الضرم ـ بفتحتين ـ: لهب النار .

(١٠) الأرقم : ذكر الحيات أو أخبثها ، الحمة ـ بضم ففتح ـ: سم كل شىء يلدغ ، استل الشيء : انتزعه برفق ، الرقم ـ بالتحريك ـ: الداهية .

(١١) أناف : أشرف ، أرباض ـ جمع ربض بالتحريك ـ: ما حول المدينة ، البهم ـ بضم ففتح ـ جمع البهمة : الشجاع يستبهم على قرنه وجه غلبته .

ولفّهم بخميسٍ لو يَشِدُّ على أركان رَضْوى لأضحى مائلَ الدَّعم[1]
فأقبلوا يسألون الصفح حين رأوا أن اللجاجة مدعاة إلى الندم[2]
ريعوا فذلوا ، ولو طاشوا لوقَّرهم ضَرْبٌ يُفرِّق منهمُ مجمع اللِّمَم[3]
ذاقوا الردى جُرَعا ، فاستَسْلموا جزَعا للصلح ، والحربُ مِرقاةٌ إلى السَّلَم[4]
وأقبل النصر يتلو وهو مبتسم (المجد للسيف ، ليس المجد للقلم)
يا حائر اللب هذا الحق فامض له تَسْلم ، وهذا سبيل الرشد فاستقم[5]
لا يصر عنَّك وهمٌ بتَّ ترقبه إن التوهم حَتْفُ العاجز الوخم[6]
هذا النبى ، وذاك الجيش منتشر ملء الفضا ،فاستبق للخير تغتنم
فالزم حماه تجد ما شئت من أرَبٍ وشِمْ نداه إذا ما البرق لم يُشَم[7]
واحلُل رِحالك ، وانزل نحو سُدَّته فإنها عصمة من أوثق العِصم[8]
أحيا به الله أموات القلوب كما أحيا النباتَ بفيض الوابلِ الرذم[9]
حتى إذا تم أمر الصلح ، وانتظمت به عقود الأمانى أىَّ منتظم
قام النبى بشكر الله منتصبا والشكر فى كل حال كافل النعم[10]
وطاف بالبيت سبعا فوق راحلة قوداء ناجية أمضى من النَّسَم[11]
فما أشار إلى بُدٍّ بمحجنه إلا هَوَى ليدٍ مغلولةٍ وفم[12]

(١) لفّ الكتيبة بالكتيبة : خلط بينهما بالحرب ، الخميس : الجيش الجرار ، سمى بذلك لأنه خمس فرق : المقدمة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة ، والساق . يشد عليه فى الحرب ــ بكسر الشين ــ: يحمل عليه بقوة ، رضوى ــ بفتح فسكون ــ: جبل بالمدينة .

(٢) الصفح : العفو ، اللجاجة : التمادى فى الخصومة .

(٣) ريعوا : أفزعوا ، طاش فلان : نزق وذل ، وقرهم ــ بالتضعيف ــ: جرحهم ، اللمم ــ بكسر ففتح ــ: جمع اللمة : شعر الرأس المجاور شحمة الأذن .

(٤) الردى : الهلاك ، الجرع ــ بضم ففتح ــ الحسوة من الماء ملء الفم ، الجزع ــ بالتحريك ــ: عدم الصبر على ما نزل ، المرقاة ــ بكسر الميم ــ: وسيلة الرقى والصعود .

(٥) اللب : العقل ، الرشد : الاهتداء .

(٦) صرعه : طرحه على الأرض ، الحتف : الهلاك ، الوخم ــ بفتح فكسر ــ: الرجل الثقيل .

(٧) الحمى : المكان أو الشىء المحمى . الأرب : الحاجة ، شام الشىء : تطلع إليه مترقبا ، الندى : الجود والسخاء .

(٨) حل العقدة : نقضها ، الرحال ــ جمع الرحل ــ: كل شىء يعد للرحيل ، من وعاء ومتاع وغيره ، السدة ــ بضم السين وفتح الدال المضعفة ــ: الساحة بين يدى الباب ، وثق بفلان : ائتمنه .

(٩) الفيض : الكثير الغزير ، الوابل : المطر الشديد الضخم القطر ، الرزم ــ بفتح فكسر ــ: الغيث الذى لا ينقطع رعده .

(١٠) التصب : قام وتهيأ ، الكافل : الضامن .

(١١) القوداء ــ بفتح فسكون ــ: الذلول المنقادة ، الناجية : الناقة السريعة ، مضى السيف مضاء : صار حاداً سريع القطع ، النسم ــ بفتحتين ــ: طير سراع كالخطاطيف تعلوهن خضرة .

(١٢) البد ــ بضم الباء ــ: الصنم ، المحجن : كل معوج الرأس كالصولجان ، هوى : سقط ، اليد المغلولة : التى وضع بها الغل ــ بضم العين ــ وهو طوق من حديد أو جلد .

ثم تعرض البارودى لغزوة حنين ، فذكر أن هوازن ارتدت عن الاستقامة ، فتوجه إليها المصطفى ﷺ بجيش ضخم كأنه بحر يموج بالفرسان ويتلاطم بالسيوف ، حتى أعادها إلى حظيرة السلم مرغمة . وذلك قوله :

وفى حُنين إذ ارْتـــدَّت هَوازنُ عن ... قصد السبيل ، ولم ترجع إلى الحكم[1]
سرى إليها ببحـــر من ململمــــة ... كامى السراة بموج البيض ملتطــم[2]
حتى استذَلت ، وعادت بعد نخوتها ... تُلقى إلى كل من تلقاه بالسلــم[3]

وانتقل من ذلك إلى الحديث الموجز عن الذهاب إلى الطائف ، ثم تحدث بشىء من التفصيل عن توجهه إلى تبوك ، حيث استقبله ساكنوها بالإذعان والطاعة ، وصالحوه ﷺ على أداء الجزية ، راضين بحكمه .. وحيث وجد هناك عين ماء جفت ، فلما دعا لها تفجر الماء منها سائغا ، ولما طلب من السحابة أن تجود عليهم بمائها انهلت بالساجم الوبل . ثم عاد ﷺ بمن معه إلى المدينة ، راضين بما تحقق على أيديهم ، فقال :

ويمم الطائـــف الغنـــاء ، ثم مضى ... عنها إلى أجل فى الغيب مكتتم[4]
وحين أوفى على وادى تبـوك سعــى ... إليه ساكنُهـا طوعـا ، بلا رغــم[5]
فصالحوه ، وأدوا جزيـــة ، ورضوا ... بحكمــه ، وتبيـع الــرشد لم يهم[6]
ألفى بها عيَــن ماء لا تبِضُّ ، فمــذ ... دعا لها انفجرت عن سائغ سَنِــم[7]
وراود الغـــيثَ ، فانهلت بوادره ... بعــد الجمــود بمنهل ، ومنسجــم[8]
وأم طيبـــة ، مسرورا بعودتــــه ... يطوى المنازل بالوخــادة الــرُّسُم[9]

---

(١) يقال : هو على قصد السبيل : إذا كان راشداً .

(٢) الكتيبة الململمة : المجتمعة ، المضموم بعضها إلى بعض ، الكامى مفرد الكماة : المتقدم ، أو الذى ستر نفسه بالدرع والبيضة . السراة : سراة كل شىء : أعلاه ، وسراة الفرس : أعلا متنه ، البيض : السيوف ، ملتطم : يضرب بعضها بعضاً .

(٣) استذَلت ـ بفتح الذال ـ : صارت ذليلة ، النخوة ـ بفتح النون ـ : الحماسة والمروءة ، ألقى إليه بالسلم : أبلغه إياه .

(٤) الروضة الغناء : كثيرة الشجر ملتفتة .

(٥) الرغم ـ بالتحريك ـ : الذل .

(٦) أدى الشىء إلى مستحقه : أوصله إليه ، الجزية : ما يؤخذ من أهل الذمة ، وتطلق على خارج الأرض . التبيع : التابع ، هام فلان : خرج على وجهه فى الأرض لا يدرى أين يتوجه .

(٧) ألفى : وجد ، بضت العين تبض ـ بكسر الباء فى المضارع ـ : رشحت بالماء ، ساغ الشرابّ فى الحلق : سهل انحداره ومدخله فيه ، السنم ـ بفتح فكسر ـ : المرتفع على وجه الأرض .

(٨) راوده على الأمر : طلب منه فعله ، الغيث : المطر الخاص بالخير الكثير المنافع ، ويطلق مجازاً على السماء والسحاب ، انهلت بوادر الغيث : اشتد انصبابه ، البوادر ـ جمع البادرة مؤنث البادر ـ : أول ما ينزل من المطر ، المنهل ـ بتضعيف اللام ـ : المطر شديد الانصباب ، المنسجم : المنصب .

(٩) طوى الأرض : قطعها وجازها ، الوخاد ـ بتضعيف الخاء ـ البعير السريع ، الرسم ـ بضمتين ـ جمع الرسوم : القوى على السير ، الشديد الوطء .

استقبال الوفود ، والتهيؤ لبناء الدولة :

وحين عاد ﷺ إلى المدينة ، أخذت وفود القبائل المختلفة تتوالى للقياه ، ومعاهدته ، فاستقبلهم بما عهد من كرم ، حتى كان العام جميعه عاما لاستقبال الوفود ، وفى الوقت ذاته ، أكمل دوره فى الدعوة ، بإرسال الرسل إلى الملوك حاملين رسائله ، التى يبلغهم فيها بما بعث به ، وفى ذلك قال البارودى :

ثم استهلت وفود الناس قاطبةً ... إلى حماه ، فلاقت وافر الكرم [1]
فكان عامَ وفود ، كلما انصرفت ... عصابة ، أقبلت أخرى على قدم [2]
وأرسل الرسل تترى للملوك بما ... فيه بلاغٌ لأهل الذكر والفَهَم [3]

ثم تناول بالعرض بعض الغزوات الصغيرة حين اعترضت بعض القبائل مسار الدعوة على الرغم من تلك الاستجابة التى تقارب الإجماع ، فكانت نشازا فى وسط التحول العام إلى السلام ، والتفرغ إلى بناء الدولة سياسيا واقتصاديا وفكريا ، فبعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الكلبى إلى الكديد ليغير على بنى الملوح ، فحقق النصر ، واستولى على مالهم من نعم ، ولما خانت قبيلة جذام عهدها ، حيث اعترضت دحية الكلبى فى طريق عودته من الروم ، أرسل إليهم زيد بن حارثة على رأس جيش ليؤدبهم وينتقم منهم ، ويكسر شوكتهم ، حتى لا يعودوا لمثلها ، فسار زيد منتحيا وادى القرى ، والتقى ببنى فزارة أصل الفتنة فى وادى القرى ، فاستأصل شأفتهم ، وحين نهض اليُسَيْر بن رزام يجمع غطفان لغزو رسول الله ﷺ ، عاجله بإرسال عبد الله بن رواحة على رأس قوة من الجيش ، فقتله وقضى على الفتنة ، ولما نهض خالد بن سفيان بن نبيح الهذلى بجمع الناس ـ فى نخلة ، أو عرنة ـ ليغزو رسول الله ﷺ ، بعث إليه عبد الله بن أنيس ، فذهب إليه ، وأنفذ ما أمر به ، ثم بعث عيينة بن حصن ليغير على بنى العنبر من بنى تميم ، وكذلك أرسل عمرو بن العاص إلى أرض جذام ، حيث كانت غزوة ذات السلاسل ، وأرسل عبد الله بن أبى حدرد فى مهمتين ، الأولى ليقتل رفاعة بن قيس ، والثانية إلى إضم ، وبعث عبد الرحمن بن عوف فى جمع من الكماة إلى دومة الجندل ـ بين المدينة ودمشق على سبع مراحل من دمشق ـ ليقضى على سطوة أهل الزور والتهم هناك ، ووجه أبا عبيدة بن الجراح فى سرية إلى سيف البحر ، وكذلك بعث عمرو بن أمية الضَّمْرى إلى أم القرى لمواجهة أبى سفيان بن حرب ، وأمر زيد بن حارثة بالذهاب فى سرية تأديبية إلى مَدْين ، فغنم أموالهم ، وساقهم سبيا بين يديه ، واستجابة له ﷺ ، خرج سالم بن عمير ليقتل أبا عفك المنافق ، الذى أظهر نفاقه وبغضه محمدا ﷺ عقب مقتل الحارث بن سويد بن صامت ، فأرداه سالم قتيلا . ولما جاهرت

---

(١) جاء القوم قاطبة : جميعاً ، بعضهم مختلط ببعض .

(٢) على قدم : على تقدم وسبق إلى الخير .

(٣) جاءوا تترى : متواترين متتابعين ، والفهم ـ بالتحريك ـ : الفهم بسكون الهاء .

عصماء بنت مروان بعداوتها للإسلام ، انقض عليها ليلا عمير بن عدى فقتلها ، ولما وقع ثمامة بن أثال الحنفى فى أسر إحدى السرايا ، دون أن تعرف شخصيته ، وعادت به إلى رسول الله ﷺ ، تعرف عليه حين رآه ، فأمر بأن يحسنوا إساره ، ثم أطلق سراحه ، فلم يكن من ثمامة إلا أن أعلن إسلامه ، وكان أول من دخل مكة فى الأشهر الحرم ملبيا . ولما طلب علقمة بن مُجَزِّز أن يأذن له فى الثأر لوقاص بن مجزِّز المدلجى الذى قتل يوم ذى قرد ، فلما أذن له ، سار إلى القوم فلم يعترضه أحد ، وأرسل كُرز بن جابر ، ليقتل من غدروا بيسار راعى رسول الله ﷺ من البجليين ، فما زال بهم حتى لقوا شدائد الهلاك ، وكان آخر بعوثه ﷺ بعث أسامة بن زيد بن حارثة إلى الشام ، فلما أنفذه أبو بكر رضى الله عنه ، بعد وفاة رسول الله ﷺ ، انقض عليهم كالبازى ، فكانت تلك البعوث والسرايا خير ممهد للطريق أمام المسلمين من بعده ﷺ ، كأنها الدر المشرق بين حبات العقد .. وفى ذلك قال البارودى :

وأَمَّ غالبُ أكنافَ الكَديدِ إلى ... بنى الملوَّح ، فاستولى على النَّعَمِ[1]

وحين خانت جُذامٌ ، فَلَّ شوكتها ... زيد بجمع لرهط الشرك مقتثِمِ[2]

وسار منتحيا وادى القُرى ، فمحا ... بنى فزارة ، أصلَ اللؤم والقَزَمِ[3]

وأَمَّ خيبرَ عبدُ الله فى نفر ... إلى اليُسَيْر ، فأرداه بلا أثَمِ[4]

ويمم ابن أنيس عُرض نخلة إذ ... طغا ابن ثور ، فأصماه ، ولم يَخِمِ[5]

ثم استقل ابن حصن ، فاحتوت يده ... على بنى العنبر الطُّرَّار والشُّجُمِ[6]

وسار عمرو إلى ذات السلاسل فى ... جمع لُهامٍ لجيش الشرك مصطلمِ[7]

وغزوتان لعبد الله ، واحدة ... إلى رفاعة ، والأخرى إلى إضَمِ[8]

وسار جمع ابن عوف نحو دومة ، كى ... يفُلَّ سَوْرة أهل الزُّور ، والتُّهَمِ[9]

---

(١) الكديد ــ بفتح الكاف ــ: ماء بين الحرمين .

(٢) جذام ــ بضم الجيم ــ: قبيلة بجبال حمى ــ بكسر الحاء ــ من معد ، فل فلان السيف : ثلمه وكسره فى حدة ، الشوكة : السلاح ، والقوة والبأس ، الرهط : رهط الرجل : قومه وقبيلته الأقربون . اقتثم الشىء : اجتثه ولم يبق له أصلا .

(٣) بنو فزارة : قبيلة من غطفان ، القزم ــ بالتحريك ــ: الدناءة واللؤم .

(٤) اليسير ــ بضم ففتح ــ: ابن رزام ، الأثم ــ بالتحريك ــ: الإبطاء .

(٥) عرض الجبل ــ بضم العين ــ: سفحه ، وعرض البحر : وسطه ، نخلة : واديان على ليلة من مكة ، أصماه : أصابه فوقع بين يديه ، خام : أقام بالمكان .

(٦) استقل القوم : مضوا وارتحلوا ، الطرار ــ بفتح الطاء وتضعيف الراء ــ: النشال ، الشجم ــ بالضم ــ الطوال الخبثاء الدواهى .

(٧) جمع لهام ــ بضم اللام ــ: جمع عظيم ، اصطلم : استأصل وأباد .

(٨) إضم ــ بكسر ففتح ــ: اسم جبل ، والوادى الذى فيه المدينة المنورة .

(٩) السورة ــ بفتح فسكون ــ: السطوة والشدة ، الزور ــ بالضم ــ: الباطل .

وأَم بالخيل سِيفَ البحــر ، معتزمــا ... أبــو عبيــــدة فى صُيَّابــــة حُشُم (١)
وسار عمـــرو إلى أم القـــرى ، لأبى ... سفيـان ، لكـن عَدتـه مهلـةُ الـقَسَم(٢)
وأَمَّ مديـــن زيـــد ، فاستـــوت يده ... على العـدو ، وساق السبى كالغنـــم(٣)
وقـــام سالم بالــعضب الجُـــراز إلى ... أبى عُفَـــــيكٍ ، فأرداه ، ولم يجم(٤)
وانـــتضى ليـــــلا عمير بالحسام على ... عصماء ، حتى سقاها علقـم العَـدَم (٥)
وسار بعث ، فلـم يخطــىء ثمامــة إذ ... رآهُ ، فاحتـــازه غُنما ، ولم يُلَـــم (٦)
ذاك الهمـــام الــذى لَبَّــى بمكــة إذ ... أتى بها معلنـــا فى الأشهـــر الحُرُم (٧)
وبعثُ علقمـة استقرى العـدوَّ ضحى ... فلــــم يجد فى خلال الحق من أرِم (٨)
ورد كرزٌ إلى العــــــذراء مَنْ غدروا ... يسارَ ، حتى لَقُوا بَرْحا من الشَّجَـم (٩)
وسار بعث ابـن زيــدٍ للشام ، فلــم ... يلبث أن انقض كالبـازى على اليَمَـمِ(١٠)
فهـــذه الغــزوات الغُـــرُّ شاملـــة ... جمعَ البُعـوث ، كدرٍّ لاح فى نُظُـم(١١)

محمد صلى الله عليه وسلم فى وجدان البارودى

وبعد هذه الرحلة التاريخية الميمونة ، التى حملنا فيها البارودى على أجنحة الشعر لنصحب سيدنا رسول الله ﷺ ، منذ كان بشارة ، تمهد بها المقادير لمولده وبعثه ، ومرورا بما كان من أحداث خطيرة قبل البعثة وبعدها ، مما سجله أبو محمد عبدالملك بن هشام فى كتابه (سيرة النبى محمد ﷺ) ... بعد هذه الرحلة التاريخية التى استغرقت من القصيدة خمسين وثلاثمائة بيت .. عاد البارودى إلى وجدانه ، ليصور ما استكن فيه ، من مشاعر ، ورؤى ، وتوجهات نحو سيدنا

(١) سيف البحر ـ بكسر فسكون ـ: جانبه وساحله ، الصيابة والصوابة ـ بالضم والتضعيف فيهما ـ: خيار القوم ، الحشم ـ بضمتين ـ: ذو الحياء التام .
(٢) عدا فلانا عن الأمر : صرفه عنه .
(٣) استوى على الشيء : ملك ، وثبت ، وعلا . السبى : المأسور .
(٤) سالم : ابن عمير ، العضب ـ بفتح فسكون ـ: السيف الحاد ، الجراز من السيوف ـ بضم ففتح ـ: القاطع ، أرداه : أهلكه ، وجم ـ بالتحريك ـ: عبس حزناً .
(٥) انتضى السيف : أخرجه من غمده ، الحسام : السيف القاطع ، العصماء : الحيوان فى ذراعيه أو أحدهما بياض ، وسائره أسود أو أحمر ، العلقم : كل شيء مر .
(٦) احتازه : ملكه .
(٧) الهمام ـ بالضم ـ: السيد الشجاع ، لبى : قال : لبيك اللهم لبيك .
(٨) استقرى بنى فلان : مر بهم واحدا واحدا ، واستقرى الأشياء : تتبعها لمعرفة أحوالها وخواصها ، الخلال : منفرج ما بين الشيئين ، الأرم ـ بفتح فكسر ـ: حجارة أو نحوها تنصب فى المفازة ليهتدى بها .
(٩) كرز ـ بضم فسكون ـ ابن جابر ، العذراء ـ بفتح فسكون ـ: المدينة المنورة ، يسار : غلام للنبى ﷺ قتله العرنيون ، البرح ـ بفتح فسكون ـ: الشدة أو العذاب الشديد ، أو الدواهى والهلاك ، الشجم ـ بالتحريك ـ: الهلاك .
(١٠) انقض الطائر : هوى فى طيرانه بسرعة يريد الوقوع على شيء ، اليم ـ بالتحريك ـ واليمام : الحمام الوحشى .
(١١) الغر : بضم الغين ـ جمع أغر ، غراء : الواضحة ، الدر ـ بالضم ـ: اللؤلؤ العظيم الكبير ، النظم ـ بضمتين ـ جمع النظيم : المنظوم ، وما تناسقت أجزاؤه على نسق واحد .

محمد ﷺ ، مكملا بذلك ما بدأ به قصيدته من تمهيد نفسي لمصاحبة رسول الله ﷺ في تلك الرحلة .

والبارودي ــ بتوجهه الوجداني بعد تلك الرحلة التاريخية ــ يغمر المتلقي بموجات متوالية من الدفقات الشعورية التي سيطرت على لسان الشاعر ، بعد أن سيطرت على وجدانه ، فلم يستطع أن يتدخل بالتنظيم والترتيب ، فجاءت ــ وفق الأحوال النفسية ــ دفقات تترى في غير نظام عضوي ، ولا ترتيب منطقي ؛ وذلك لأن الشاعر قد أسلس قياده لما فاض على نفسه من مصاحبته ﷺ .

الاعتزاز بقربه منه

وفي بداية تلك الدفقات الوجدانية ، اتجه البارودي إليه ﷺ راجيا متقربا ، بعد أن تخلص من جولته التاريخية بذكره أن الدافع إلى تلك الجولة هو رجاؤه نيل شفاعته ﷺ ، ثم خلص إلى الحديث عنه ، وعما يرجوه البارودي من وراء ذلك الحديث ؛ فهو لا يتحدث عن شخص عادي ، وإنما هو يتحدث عن خير الخلق وسيدهم جميعا ، فهو النبي الذي به قبل الله تعالى توبة آدم عليه السلام حين زل وعصى ربه ، وهو الذي أفخر بأنه التقى بي في عالم الأحلام فنلت العز والشرف ، خصوصا عندما منحني عصاه التي أعتصم بها في كل مايصادفني في حياتي من أهوال ، حتى كانت لي أمنا وأمانا ، حفظني من الفزع ، كما كانت وشيجة قربي واتصالي بمن أكرموا منه ﷺ من السابقين الذين حباهم ﷺ بتلك العصا ، مثلما حباني ، فلم أخش من بعدها ما كنت أحذره ، لما لها من أثر فعال في الإنجاء من الغم ، فيكفي أن هذه النفحة ــ بقيمتها ــ قد سمت بنفسي ، على الرغم مما يشوب نفسي من النقص ؛ فما أستطيع أن أبرىء نفسي من الزلل ، فالنفس أمارة بالسوء إذا لم يردعها الندم ، وخشية الفضيحة يوم الميعاد ، حين ينطق من كل إنسان ما لم يكن ناطقاً ؛ فيشهد على النفس بما صدر منها .

إن ثقتي من رحمة ربي وعفوه عن كل جرم ، تملؤني بالرجاء ، وتجعلني أطمئن إلى أنني سوف أبلغ آمالي في العفو يوم ألقى الله ، وإن عظمت جرائمي ؛ فهو الذي بغفرانه وعفوه يزيح عن المكروب آلام اليأس والخوف ؛ لهذا فإني مطمئن إلى أن رسول الله لن يخذلني ، ــ وأنا شاعره وخادمه ــ يوم الحشر ؛ وأنه سوف يشملني بكرمه ؛ فقد جعلت مدحه رأس مالي يوم الاحتياج إلى شفاعته ، وجعلت حبه عزا تعتصم به نفسي عندما تحرم أو تظلم ، بل إنني وهبت نفسي له حبا وتكرمة ، رجاء أن أبلغ ما أؤمل وأرجو ؛ فأنا ثابت على عهدي وآمالي ــ على الرغم مما قد يصيبني من ظلم أو ضيم ــ لا يخالجني يأس أو قنوط ؛ وأنا في سبيلي هذا أبذل كل ما أستطيع لأؤكد ولائي لرسول الله ﷺ ، حيث لا أملك في هذا السبيل سوى يدي وفمي ، أما يدي فأوظفها في تدوين مدحي رسول الله ﷺ ، وأما فمي فأسخره لإذاعة تلك المدائح تشريفا لي وتكريما ، وفي التعبير عن هذا قال :

نظمتها ، راجيا نيل الشفاعة من خير البرايا ، ومولى العُرب والعجم
هو النبي الذى لولاه ما قُبلت رجاةُ آدم ، لما زل فى القدم(1)
حسبي بطلعته الغراء مفخرة لما التقيت به فى عالم الحُلُم(2)
وقد حبانى عصاه ، فاعتصمت بها فى كل هول ؛ فلم أفزع ، ولم أهم(3)
فهى التى كان يحبو مثلها كرما لمن يودُّ ، وحسبى نسبةً بهم
لم أخش من بعدها ما كنت أحذره وكيف ، وهى التى تنجى من الغُمَم ؟!
كفى بها نفحةً تعلو بقيمتها نفسى ، وإن كنت مسلوبا من القيم(4)
وما أبرىء نفسى ، وهى آمرة بالسوء ، ما لم تعقها خيفة الندم
فيا ندامة نفسى فى الميعاد إذا تعوَّذ المرءُ خوف النطق بالبَكَم(5)
لكننى واثق بالعفو من ملِك يعفو برحمته عن كل مجترم(6)
وسوف أبلغ آمالى وإن عظمت جرائمى يوم ألقى صاحب العلم(7)
هو الذى يُنْعِش المكروب إذ علِقت به الرزايا ، ويغنى كل ذى عدم(8)
هيهات يخذُل مولاه وشاعره فى الحشر ، وهو كريم النفس والشيم(9)
فمدحه رأس مالى يوم مفتقرى ، وجه عز نفسى عند مهتضمى(10)
وهبت نفسى له حبا وتكرمة ، فهل ترانى بلغت السؤل من سلمى(11)

---

(1) الرجاة : الرجاء والأمل ، زل فى القدم : إشارة إلى معصية آدم عليه السلام بإغواء إبليس إياه .

(2) حسب ـ بفتح فسكون ـ : اسم بمعنى كاف ، أو اسم فعل بمعنى يكفى ، الحلم ـ بضمتين ، وبضمة فسكون ـ : الرؤيا .

(3) حباه الشىء : أعطاه إياه ، اعتصم به : امتنع به ولجأ ، الهول : الأمر الشديد ، فزع ـ بفتح فكسر ـ : خاف ، هام يهيم : خرج على وجهه فى الأرض لا يدرى أين يتجه .

(4) النفحة : الطيب الذى ترتاح له النفس ، القيم ـ بكسر ففتح ـ جمع القيمة : القدر .

(5) الميعاد : وقت الوعد ، ويقصد به هنا القيامة والبعث للحساب ، تعوذ به : لجأ إليه واعتصم ، البكم ـ بالتحريك ـ : العجز عن الكلام خلقة .

(6) وثق به ـ بفتح فكسر ـ : ائتمنه ، عفا عنه : لم يعاقبه على ذنبه ، المجترم ـ بفتح الراء ـ : الذنب المرتكب .

(7) صاحب العلم : يقصد رسول الله ﷺ .

(8) أنعشه ونعشه ـ بالتحريك ـ من كبوته : أنهضه من كبوته ، وقوى نفسه ، ونشط جسمه بعد فتور . المكروب : الذى اشتد عليه الغم ، وثقل عليه العبء . علقت به الرزايا ـ بفتح فكسر ـ : نشبت فيه واستمسكت به . الرزايا ـ جمع الرزء بضم الراء ـ : المصائب ، العدم ـ بالتحريك ـ : الفقر .

(9) هيهات : اسم فعل ماض بمعنى : بعد ، خذل فلاناً : تخلى عن عونه ونصرته ، المولى : الرب ، وولى الأمر ، والمحب ، والصاحب ، والحليف ، والمعتق ـ بالكسر فى التاء وبالفتح ـ والعبد ، والتابع ، والمقصود هنا المحب ، الحشر : اجتماع الخلق يوم القيامة ، الشيم ـ بكسر ففتح ـ جمع الشيمة : الخلق .

(10) المفتقر ـ بفتح القاف ـ : الاحتياج ، المهتضم ـ بفتح الضاد ـ المبالغة فى الظلم والغصب .

(11) التكرمة ـ بكسر الراء ـ : التعظيم ، السؤل ـ بضم فسكون ـ : ما سأله الشخص ، السلم ـ بالتحريك ـ : التسليم .

إنى ـ وإن مال بى دهرى ، وبرَّح بى ضيمٌ ، أشاط على جمر النوى أدمى ـ (١)
لثابت العهد ، لم يخلل قوى أملى يأس ، ولم تخط بى فى سلوة قدمى (٢)
لم يترك الدهر لى ما أستعين به على التجمل إلا ساعدى وفمى (٣)
هذا يُحبِّر مدحى فى الرسول ، وذا يتلو على الناس ما أوحيه من كلمى (٤)

بين الرجاء والاستعطاف والشكوى :

وفى الدفقة الوجدانية التالية يجد البارودى نفسه متجها إلى رسول الله ﷺ بالنداء المستعطف الراجي ، أملا فى أن يعوضه الاتجاه إليه بالحديث بعض الشيء عن الالتقاء به أو زيارته ، مستشفعا بحبه رسول الله ، مؤملا أن ينشيء هذا الحب صلة تقوم مقام صلة الرحم ، طمعا فى أن يحقق بذلك ما تحقق لسلمان الفارسي ، مطمئنا إلى أن حسن ظنه برسول الله ﷺ كفيل بأن يحميه من أهوال ما يغشاه فى ظلمة القبر ، معتذرا لسيدنا رسول الله ﷺ عن عدم زيارته فى روضته المشرفة بوقوعه أسير قيود حيوية تغل حركته ، متمنيا أن يحقق الله أمله ، ويوفقه إلى زيارة تحيي قلبه ، وتتيح له راحة النفس ، قبل أن يحين حينه ، وذلك قوله :

يا سيد الكون ، عفوا إن أثمت فلى بحبكم صلة تغنى عن الرحم (٥)
كفى بسلمانَ لى فخرا إذا انتسبت نفسى لكم مثله فى زمرة الحشم (٦)
وحسن ظنى بكم إن مت يكلؤنى من هول ما أتقى فى ظلمة الرجَم (٧)
تالله ما عاقنى عن حبكم شجن لكننى موثق فى ربقة السَّلَم (٨)
فهل إلى زورة يحيا الفؤاد بها ذريعة أبتغيها ، قبل مخترمى (٩)

---

(١) مال به الدهر : أثقل عليه بحوادثه ، برح به الأمر ـ بتضعيف الراء ـ: جهده وشق عليه ، الضيم : الظلم ، أشاطه : أحرقه ، النوى : البعد ، الأدم ـ بالتحريك ـ جمع الأديم : الجلد .

(٢) السلوة ـ بضم وفتح السكون ـ: رخاء العيش .

(٣) التجمل : تكلف الحسن والجمال ، الساعد : ما بين المرفق والكف من أعلى .

(٤) حبر الشعر والكلام والخط : زينه ونمقه ، يتلو الكتاب : يقرؤه ، أوحى الكلام : ألقاه ، الكلم ـ بفتح فكسر ـ جمع الكلمة : القصيدة .

(٥) العفو : عدم المعاقبة على الذنب ، أثم ـ بفتح فكسر ـ: وقع فى الإثم ، الرحم ـ بفتح فكسر ـ: القرابة أو أسبابها .

(٦) سلمان : سلمان الفارسى ، الزمرة ـ بضم فسكون ـ: الفوج والجماعة ، الحشم ـ بالتحريك ـ: خاصة الرجل الذين يغضبون لغضبه وما يصيبه من مكروه ، من عبيد أو أهل أو جيرة .

(٧) كلأه : حفظه ، الهول : الفزع ، اتقى الشيء : حذره وتجنبه ، الرجم ـ بالتحريك ـ: القبر .

(٨) عاقه عن الشيء : منعه منه ، وشغله عنه . الشجن ـ بالتحريك ـ: الهم والحزن ، والحاجة الشاغلة ، الموثق ـ بضم الميم ـ، المشدود فى الوثاق ، الربقة ـ بكسر فسكون ـ: حبل ذو عرى ، أو حلقة لربط الدواب ، السلم ـ بالتحريك ـ: الأسر من غير حرب .

(٩) الزورة ـ بفتح فسكون ـ: المرة من الزيارة ، الفؤاد : العقل أو القلب ، الذريعة : الوسيلة والسبب إلى الشيء ، المخترم ـ بفتح الراء ـ: الاخترام وهو أخذ المنية ، يقال : اخترمته المنية : أخذته .

ومن هنا يضرع إلى الله بالشكوى ، راجيا منه أن ينصفه من كل باغ ظالم ، فثقته فى انتقامه تعالى من كل جبار ، يجعله لا يرهب ظلما ولا جورا ، فإذا نلت ما رجوته منه ، فلا عجب فيه ؛ لأننى ألقيت آمالى على الكريم الذى لا تضيع عنده الآمال ، وذلك قوله :

شكـــوت بثـــى إلى ربى لينصفنـــــى ... من كل باغ عتيـــد الجور أوهَكِـــم[1]
وكيـف أرهب حيفا ، وهـــو منتقـــم ... يهابـــه كل جبـــــار ومنتقـــم[2]
لا غرْوَ إن نلت ما أملت منه فقـــد ... أنـزلت معظـــم آمـــالى بذى كرم[3]

ويمتد نَفسُ الشاعر ، مع مور نفْسه بالتوجه إلى الله فى شكواه ، فيخلص لمناجاته برجائه وأمله فى أن يهب له مغفرة تمحو ذنوبه ، وأن يمن عليه بلطف يعصمه من زيغ العقول والألباب يوم القيامة ، معلنا إفراده الله برجائه ودعائه أن يقيه شر العواقب ، وأن يحفظه من التهم ؛ لاطمئنانه إلى أن من يرجوه لا يتسرب إلى نفسه خوف ، لأنه بتوجهه إلى ربه يدرك أنه قد سلك السبيل المستقيم الذى لا يخشى فيه الضلال .

ويزيده اطمئنانا إلى استجابة ربه ، ما هو عليه من حب لرسول الله ﷺ يرتفع بمنزلته ارتفاعا يجعله يرجو بها الصفح عن ذنوبه يوم الحساب ؛ نافيا عن نفسه إدعاء العصمة من الذنوب ، معتزا بما بينه وبين رسول الله ﷺ من صلات ، وما يقدمه من مدائح سمت به إلى قمم الأفلاك ، حتى صارت الأفلاك مسخرة له . ثم يقرر أنه بمدحه رسول الله ﷺ لم يعد يخشى ضيما ؛ لأن مادح الكرام لا يضام ، ويؤكد ذلك أنه سمى لرسول الله ﷺ فمحمود هو أحد أسمائه ﷺ ، ولا أدل على ذلك من أنه منذ لاذ به ﷺ حنا عليه الزمان وابتسم له ، بعد أن أبكاه ، لأنه ﷺ هو الذى يمنح السائلين مسألتهم ، ويشفع للخلق يوم القيامة ، فمن يقصده يجد لديه حاجته على تنوع الحاجات وتباينها ، بل إن يديه لتحملان الشىء ونقيضه ، تحملان الموت للغاوين المشركين ، وتحمل الجود والخير للمؤمنين المهتدين ، حتى أصبح الكفر من شدته فى خوف وفزع ، وأصبح الإسلام من عدله فى أمان ، وذلك قوله :

يا مالك الملك هب لى منك مغفـــــرة ... تمحـــو ذنـــوبى غداة الخوف والنـــدم
وامنـــن على بلطـــف منك يعصمنـــى ... زيـغ النهى يوم أخذ الموت بالكَظَمَ[4]
لم أدْع غيرك فيمـــا نابنـــى ؛ فقنـــى ... شر العـواقب ، واحفظنـى من التُّهَـمِ[5]

(١) البث : أشد الحزن الذى لا يصبر عليه صاحبه ، العتيد : المهيأ والحاضر ، الهكم ـ بفتح فكسر ـ : الشرير المقتحم على ما لا يعنيه .

(٢) الحيف : الجور والظلم .

(٣) الغرو : العجب .

(٤) من عليه : أنعم عليه نعمة طيبة ، اللطف من الله : التوفيق والعصمة ، الزيغ : الميل عن الحق ، النهى ـ جمع النهية ـ : العقل ، الكظم ـ بالتحريك ـ : الحلق أو الفم ، أو مخرج النفس .

(٥) نابه : أصابه ، العواقب ـ جمع العاقبة ـ : خاتمة كل شىء ، التهم ـ جمع التهمة ـ : الاتهام والشك والارتياب .

حاشا لراجيك أن يخشى العثار ، وما بعد الرجاء سوى التوفيق للسَّلَم [١]
وكيف أخشى ضلالا بعد ما سلكت نفسى بنــور الهدى فى مسلك قِيَم [٢]
ولى بحب رســول الله منزلــة أرجو بها الصفح يوم الدين عن جَرَمى [٣]
لا أدعى عصمة ، لكن يدى علقت بسيــدٍ ، من يَرِد مرعاتــه يَسُم [٤]
خدمتــه بمديحى ، فاعتلــوت على هام السِّماك ، وصار الأفق من خدمى [٥]
وكيف أرهب ضيما بعــد خدمتــه وخادمُ السادة الأجواد لم يضم ؟! [٦]
أم كيف يخذلنى من بعــد تسميتى باسمٍ له فى سماء العرش محتــرم ؟! [٧]
أبكانى الدهــر ، حتــى إذ لجأت به حنا علىَّ ، وأبدى ثغر مبتسم ؟! [٨]
فهو الذى يمنح العــافين ما سألــوا فضلا ، ويشفع يوم الدين فى الأمم [٩]
نور لمقتــبس ، ذخــر لملتــبس حرز لمبتــئس ، كهــف لمعــتصم [١٠]
بث الردى والندى شطرين فانبعثــا فيمن غوى وهدى بالبؤس والنِّعم [١١]
فالكفر من بأسه المشهــور فى حَرَب والدينُ من عدله المأثــور فى حرم [١٢]

الاعتذار عن التقصير فى المدح لسمو الممدوح :

وعندما تنبه من تأثير تلك الشحنات الوجدانية ـ بعد أن أفرغها فى هذه العبارات المصورة ـ أخذ يتحدث عن مدحته التى يقدمها فى تلك القصيدة ، معتذرا عن تقصيره بأن

(١) حاشا لله : تنزيها لله ، العثار : الشر ، أو ما يعثر به ، التوفيق من الله للعبد : سد طريق الشر ، وتسهيل طريق الخير ، السلم ـ بالتحريك ـ : التسليم والنجاة .

(٢) الضلال : العدول عن الطريق المستقيم عمدا أو سهوا ، سلك به وفيه : دخل ونفذ ، القيم ـ بكسر ففتح ـ جمع القيمة : الثبات والدوام على الأمر .

(٣) الصفح : العفو ، الجرم ـ بالتحريك ـ : الذنب .

(٤) العصمة : ملكة إلهية تمنع من فعل المعصية والميل إليها مع القدرة على الفعل ، علق الشىء بالشىء ـ بفتح فكسر ـ : نشب فيه واستمسك به ، ورد المرعى ـ بالتحريك ـ : أشرف عليه دخله أو لم يدخله ، سامت الماشية : رعت .

(٥) الهام ـ جمع الهامة ـ الرأس ، وأعلى الشىء ، السماك ـ بكسر السين ـ : هما سماكان : نجمان نيران ، أحدهما فى الشمال وهو الرامح ، والآخر فى الجنوب وهو الأعزل . الأفق ـ بضم فسكون ـ : منتهى ما تراه العين من الأرض كأنما التقت عنده السماء .

(٦) رهب ـ بفتح فكسر ـ خاف ، الضيم : الظلم أو الإذلال .

(٧) خذل فلاناً : تخلى عن عونه ونصرته .

(٨) لجأ به : لاذ إليه واعتصم به . أبدى : أظهر .

(٩) منح : وهب ، العافى : كل طالب معروف . سأل المحتاج : طلب ، الفضل : الإحسان ، شفع فى الأمر ـ بالتحريك ـ : كان شفيعاً فيه .

(١٠) القبس النور : طلبه ، الذخر ـ بضم فسكون ـ : المخبأ لوقت الحاجة إليه ، الملتبس : المشتبه ، الحرز : المكان المنيع يلجأ إليه ، المبتئس : المكتئب الحزين ، الكهف : الملجأ ، المعتصم : اللائذ اللاجىء .

(١١) بث الشىء : نشره وفرقه وبسطه ، الردى : الهلاك ، الندى : العطاء والجود ، انبعث : هب واندفع ، غوى ـ بفتحتين ـ : أمعن فى الضلال ، البؤس : المشقة والفقر .

(١٢) البأس : الحرب والشدة ، الحرب ـ بالتحريك ـ : الويل والهلاك ، الحرم ـ بالتحريك ـ : ما يقاتل عنه ويحمى .

الممدوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ أعلى من أن يدركه مادح ، فلا يمكن أن يبلغ شاعر ـ مهما كانت مقدرته ـ هذه المرتبة فكل ما يقوله المادحون وما يقدمونه من ثناء لا يمكن أن يفي بحق من أثنى عليه خالقه جل وعلا في كتابه الكريم ، ثم فصل الحديث النقدي ، فقال ، إني يا رسول الله أقدم هذه القصيدة ـ وفق استطاعتي ـ زاهرة بما تحمله إلى نفسكم الشريفة من عاطر الذكر ، وقد وسمتها بأن أطلقت عليها اسمك الكريم ، فكان لها ثوبا حريريا لا ينال منه البلى ؛ فهي غريبة بين مثيلاتها ، لو تعطفت عليها بنظرة رضا لأغنتها عن الناس وما يطلبونه في الشعر من صنعة ، لم ألتزمها ، لحرصي على التزام المعاني ، فهي أبيات نظمتها رجاء أن أنال بها ما أتمناه يوم يبعث الناس جميعا للحساب ، وقد صدرتها بالنسيب ـ على عادة الشعراء ـ لكنه لا يشف إلا عن عفتي التي لم يدنسها أي اتهام ، وكل ما هنالك أني لم أشأ أن أخالف ما عليه الشعراء من قبلي ، بل تابعت فيها كعبا وحسانا ، معتزا بالإئتساء بهما ، لأن الشعر معرض عقول وأفكار يبرزها ما ينمقه التعبير الأدبي ، فليس ابتدائي بتلك المقدمة النسيبية مما يعاب علي ، أو يؤاخذني به النقاد ، لأنه تغريد بلبل أثاره للتغريد وقوفه ببابك يا رسول الله ، فحرمك الشريف هو الذي تيَّم قلبي ، وحرك مشاعري ، وفاض كل وجداني بما جاء في هيئة النسيب : فقال :

هذا ثنائي ، وإن قصرت فيه فلي ... عذر ، وأين السها من كف مستلم(1)

هيهات أبلغُ بالأشعار مِدْحته ... وإن سلكتُ سبيلَ القالة القُدُم(2)

ماذا عسى أن يقول المادحون وقد ... أثنى عليه بفضلٍ مُنزلُ الكلم(3)

فهاكها يا رسول الله زاهرةً ... تُهدى إلى النفس ريا الآسِ والبَرَم(4)

وسَمْتها باسمك العالي ، فألبسَها ... ثوبا من القز ، لا يبلى على القِدم(5)

غريبة في إسار البين لو أنست ... بنظرة منك لاستغْنت عن النَّسَم(6)

لم ألتزم نظم حبات البديع بها ... إذ كان صوغُ المعاني الغر ملتزمي(7)

---

(1) الثناء : الوصف بالمدح ، السها ـ بضم السين ـ : كوكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى أو الصغرى . استلم الحاج الحجر الأسود بالكعبة : لمسه بالقبلة أو اليد .

(2) هيهات : اسم فعل ماض بمعنى بعد ، المدحة ـ بكسر فسكون ـ : الأمدوحة التي يمدح بها من الشعر ، القالة ـ جمع القائل ـ : المتكلم ، القدم من الرجال ـ بضمتين ـ : الشجاع .

(3) أثنى على فلان : وصفه بالخير .

(4) هاك : اسم فعل أمر بمعنى خذ ، زاهرة : صافية خالصة . الريا ـ بفتح الراء والياء المضعفة ـ : الريح الطيبة . الآس : شجر دائم الخضرة ، أبيض الزهر أو وردية ، عطرى . البرم ـ بالتحريك ـ جمع البرمة : الأراك .

(5) وسم الشيء : ميزه ، القز ـ بالفتح ـ : الحرير .

(6) الإسار : ما يقيد به الأسير ، البين ـ بفتح فسكون ـ : الفرقة ، أنس به وإليه ـ بفتحتين ـ : سكن إليه وذهبت وحشته ، وأنس به ـ بفتح فكسر ـ : فرح ، النسم ـ بفتحتين ـ : الخلق .

(7) البديع : علم يعرف به وجوه تحسين الكلام ، الصوغ للمعاني : تهيئتها وترتيبها ، الغر ـ بالضم ـ جمع الأغر : المشهور .

وإنما هى أبيـــات رجـــوت بها ... نيــل المنــى يوم تحيــا بَذة الــرمم [1]
نثرت فيها فريـــد المدح فانتظـــمت ... أحْسِنْ بمنـــتشر منها ، ومنتظـــم [2]
صدرتها بنسيب شف باطنــــــــه ... عن عفـــةٍ لم يشنها قولُ مُتَّهـــم [3]
لم أتخذه جزافـــاً ، بل سلـــكت به ... فى القـول مسلك أقوامٍ ذوى قَدم [4]
تابعت كعبـا وحسانـا ، ولى بهمـا ... فى القــــول أسوةُ بِر غير متهم [5]
والشعـر مَعْـرض ألبـاب يروج به ... ما نَمَّقتُـــه يد الآداب والحكـــم [6]
فلا يلمنـــى على التشبـــيب ذو عنت ... فبُلبـل الروض مطبـوع على النغـم [7]
ولـــيس لى روضة ألهو بزهــــرتها ... فى معرض القـــول إلا روضة الحرم [8]
فهى التى تيَّمت قلبى وهِـــمْت بها ... وَجْدا ، وإن كنت عف النفس لم أهم [9]
معاهـــدٌ نقشتُ فى وجنتـــــيَّ لها ... أيــدى الهوى أسطـراً من عَبرتى بدم [10]

الرغبة فى زيارة الحرم النبوى والتوجه الى الله بالرجاء :

ومع الحديث عن الحرم النبوى الشريف ، تفعم نفس البارودى بالرغبة فى زيارة هذا المكان الكريم ، فينطلق لسانه مصورا عمق تلك الرغبة ، فينادى حادى الإبل التى تحمل الزائرين ، مبديا رغبته فى الزيارة ، مغريا هذا الحادى بأن يقدم له كل ما يطلب منه نظير تبليغه تلك الرغبة ، حاضا إياه بأن يواصل السير بالمطايا من غير رفيق ، حتى يوصله إلى مبتغاه بأسرع ما يمكن ، مع طمأنة هذا الحادى إلى أنه لن يصادف فى هذا الطريق ما يخاف فلا يخش الضلال ؛ لأنه حين يسير سوف يهديه نور المصطفى إلى الطريق ، بل سوف يريه ما كان خافيا عليه ، فلا يمكن لإنسان يقصد هذا المكان الشريف أن يخالج صدره خشية الضلال ؛ لأن محمدا ﷺ فى هذا المكان مشكاة فوق قمة عالية يشع النور ، عبر البارودى عن ذلك فى قوله :

---

(1) الرمم ـ بكسر ففتح ـ جمع الرمة : العظام البالية ، والرمم البذة ـ بفتح الباء وتضعيف الذال ـ: سيئة الهيئة .

(2) نثر الكلام : صاغه نثراً ، ونثره : نشره ، أو رمى به متفرقاً ، الفريد : الحب من فضة وغيرها يفصل بين حبات الذهب واللؤلؤ فى العقد . انتظم الشىء : تألف واتسق .

(3) النسيب فى الشعر : الرقيق منه المتغزل به فى النساء : العفة : ترك الشهوات فى كل شىء .

(4) الجزاف : الشىء لا يعلم كيله أو وزنه .

(5) كعب بن زهير بن أبى سلمى ، حسان بن ثابت ، أسوة : قدوة ، البر ـ بكسر الباء ـ: الخير .

(6) الألباب : العقول ، راجت السلعة : نفقت وكثر طلابها ، نمق الكتاب ـ بالفتح مع تضعيف الميم ـ: جود كتابته .

(7) التشبيب من الشاعر : ذكر أيام اللهو والشباب ، أو التغزل بالمرأة ووصف محاسنها ، العنت ـ بالتحريك ـ: المكابرة عناداً .

(8) الروضة : البستان الحسن ، معرض الشىء ـ بفتح الميم وكسر الراء ـ: موضع عرضه وذكره .

(9) تيمه الحب : استعبده وذهب بعقله ، هام به : شغف حبا به ، الوجد ـ بفتح فسكون ـ: الحب .

(10) المعاهد ـ جمع المعهد ـ : محضر الناس ومشهدهم ، نقَش الشىء : لونه وزينه ، ونقش الرحى : نقرها لتخشن . الوجنة : ما ارتفع من الخدين ، العبرة ـ بفتح فسكون ـ الدمعة .

يا حادى العيس إن بلغتنى أملى ... من قصده ، فاقترح ما شئت واحتكم[1]
سر بالمطايا ، ولا ترفق ، فليس فتى ... أولى بهذا السُّرى من سائق حُطَم[2]
ولا تخف ضلة ، وانظر فسوف ترى ... نوراً يريك مَدَبَّ الذر فى الأكَم[3]
وكيف يخشى ضلالا من يؤم حمى ... محمد ، وهو مشكاة على علم[4]

من هنا أخذ البارودى ـ فى طريقه إلى ختم قصيدته ـ يصور عمق هذه الرغبات والأمانى ، وأثرها فى حياته الدنيوية والأخروية ، منها إلى ما أمله بتقديم مدحته تلك من فوز بنعمة الله قبل الشيب والهرم ، معلنا طمأنينته إلى كرم الله سبحانه وتعالى وفضله على عبده الذى يلتزم طاعته والسعى إلى الاقتراب منه ، مؤكدا ثقته بأن ذلك الالتزام من العبد يكفل له بلوغ ما شاء من الجاه والمنزلة ، لأنه عبد يعيش فى كنف المليك الذى يخضع لعزته الملوك جميعهم ، والذى بيده إحياء البرايا إذا أراد بعثهم ، كما يصنع فى إحياء النبات فى دنيانا تلك بإنزال المطر .

ويقوده تذكر البعث وما يكون بعده من حشر وحساب فجزاء ، إلى أن يعود إلى توجهه لله تعالى راجيا منه أن يشمله بفضله ، ويمن عليه بعفوه ، مستشفعا بالمصطفى ﷺ أن يقبل رجاءه ، بعد أن تبرأ من كل ما يعتز به من دون الله ، وأصبح هو وحده الملاذ والمعاذ من كل مايخشاه ، داعما هذا الرجاء والاستشفاع بالصلاة الدائمة على المختار ﷺ وعلى آله وأصحابه وأنصاره الذى تبعوا هداه ، وثبتوا على ما عاهدوه عليه ، طالبا منه سبحانه وتعالى أن يمن عليه بمغفرة تمحو ما قدم من خطايا وما أخر .

هذى مُنایَ ، وحسبى أن أفوز بها ... بنعمة الله ، قبلَ الشَّيب والهَرَم[5]
ومن يكن راجيا مولاه نال به ... ما لم ينله بفضل الجد والهِمَم[6]
فاسجد له واقترب ، تبلغ بطاعته ... ما شئت فى الدهر من جاهٍ ومن عِظم
هو المليك الذى ذلت لعزته ... أهل المصانع من عاد ومن إرم[7]

---

(١) الحادى : السائق ، العيس ـ بكسر العين ـ جمع الأعيس والعيساء : الكريم من الإبل ، اقترح الشىء : اختاره ، احتكم فى الشىء : تصرف فيه كما يشاء .

(٢) المطايا جمع المطية : ما يمتطى من الدواب ذكراً وأنثى ، السرى ـ بالضم ـ : السير ليلاً ، الحطم ـ بضم ففتح ـ : العسوف العنيف .

(٣) الضلة ـ بالفتح ـ : الحيرة ، المدب ـ بفتحتين ـ : الدب : المشى رويداً ، الذر ـ بفتح فسكون ـ : النسل ، الأكم ـ جمع الأكمة ـ : التل .

(٤) يؤم : يقصد ، المشكاة : كوة فى الحائط غير نافذة يوضع فيها مصباح .

(٥) الهرم ـ بالتحريك ـ : بلوغ أقصى الكبر .

(٦) الجد فى الأمر : الاجتهاد ، الهمم ـ جمع الهمة ـ : العزم القوى .

(٧) المصانع : المبانى من القصور والحصون والقرى والآبار وغيرها من الامكنة العظيمة ، العلد ـ بفتح فسكون ـ : الصلب الشديد من كل شىء . إرم ـ بكسر ففتح ـ : مدينة كبيرة لقوم عاد ، وفى المطبوعة : أهل المصالع من علد ، ولعله من خطأ المطبعة ، فما ذكرته أنسب .

يحيى البرايا إذا حان المعاد ، كما	يحيى النبات بشؤبوب من الديم[1]
يا غافر الذنب ، والألبابُ حائرة	فى الحشر، والنارُ ترمى الجو بالضَرَم[2]
حاشا لفضلك ـ وهو المستعاذ به ـ	أن لا تمن على ذى خلة عدِم[3]
إلى لمستشفع بالمصطفى ، وكفى	به شفيعا لدى الأهوال والقُحَم[4]
فاقبل رجائى ، فمالى من ألوذ به	سواك فى كل ما أخشاه من فَقَم[5]
وصل رب على المختار ما طلعت	شمس النهار ولاحت أنجُمُ الظُلَم
والآل والصحب والأنصار ، من تبعوا	هداه ، واعترفوا بالعهد والذِّمم
وامنن على عبدك العانى بمغفرة	تمحو خطاياه فى بدء ومختتم .[6]

فالبارودى رحمه الله تعالى صور ـ بشعره ـ رسول الله ﷺ من خلال ما قدمه ابن هشام فى سيرته التاريخية ، لافتا النظر إلى ما تعكسه الأحداث التاريخية من مواقف محمدية ، تبدي وطيد صلته بالله سبحانه وتعالى ، وتظهر أطرافا مما بذله فى سبيل نشر الدعوة ، وما تحمله من عناء وعنت فى هذه السبيل ، حتى هيأ للدعوة الإسلامية كل أسباب الذيوع والانتشار فى المكان وفى الزمان ، ملبيا أمر ربه ، كى تتحقق العالمية للإسلام . !

ومن هنا ... كان تأثر البارودى وتجاوبه الوجدانى والعقلى مع محمد ﷺ ، ذلك التجاوب الذى أوصله إلى مرحلة راقية من الحب الخالص له ﷺ ، والصفاء النقى فى تقربه إلى الله تعالى ، وإنابته وتضرعه ورجائه . !

وبذلك تميز عن أستاذه الإمام البوصيرى ، فلم يكن ـ فى محاذاته ـ تكرارا له ، ولكنه كان إضافة يشعر المتلقى بأنه إلى جوار البوصيرى ، سعْىٌ فنى من البارودى إلى تقديم تصوره للرسول ﷺ ، احتذى فيه البوصيرى ، دون أن يفقد شخصيته الفنية والوجدانية ، على الرغم مما بين التصورين من تباين واختلاف ، هو فى حقيقته تباين واختلاف بين الشاعرين فنيا ووجدانيا ، ودوافع ، بدا فى تلك الهيئة . !

---

(١) البرايا ـ جمع البرية ـ : الخلق ، المعاد : الحياة الآخرة ، الشؤبوب ـ بالضم ـ : الدفعة من المطر ، الديم ـ بكسر ففتح ـ جمع الديمة : المطر يدوم أياماً .

(٢) الألباب : العقول ، الضرم ـ بالتحريك ـ : لهب النار .

(٣) الخلة ـ بالفتح ـ الخصلة ، العدم ـ بفتح فكسر ـ عادم المال وفاقده .

(٤) استشفع : طلب الناصر ، الأهوال ـ جمع الهول ـ : الفزع ، القحم ـ بضم ففتح ـ جمع القحمة ـ بضم فسكون ـ : الأمر العظيم الشاق لا يكاد يركبه أحد .

(٥) لاذ : لجأ ، الفقم للأمر ـ بالتحريك ـ اشتداده وعدم جريه على استواء .

(٦) العانى : الذى يهمه الأمر ويشق عليه .

ـ ٢ ـ

أحمد شوقى
فى قصيدته
(نهج البردة)

إذا كان البارودى فى قصيدته قد نظر إلى البوصيرى بعين ، وإلى ابن هشام بعين أخرى ، فإن أمير الشعراء أحمد شوقى فى قصيدته نظر إلى ابن الفارض بعين ، وإلى البوصيرى بعين أخرى ، على الرغم من أن شوقيا سمى قصيدته (نهج البردة) ، مما يوحى بأنه قصر نظره فيها على محاذاة البوصيرى فحسب ... !

ولا أعنى بذلك أن البارودى لم يتأثر إلا بالبوصيرى وابن هشام ، وأن شوقيا لم يتأثر إلا بابن الفارض والبوصيرى ، وإنما أعنى أن هذين هما أبرز من استصحب البارودى فى رحلته تلك ، وأن هذين هما ـ كذلك ـ أبرز من استصحب شوقى فى رحلته أيضا ... وقد يكون البوصيرى فى بردته محتذيا بابن الفارض فى ميميته ، على ما ينبىء بذلك ما بينهما من التقاء فى المطلع ؛ فقد بدأ ابن الفارض قصيدته بقوله :

هل نار ليلى بدت ليلا بذى سلم — أم بارق لاح فى الزوراء فالعلم
أرواحَ نعمان ! هلا نسمةٌ سحراً — وماءَ وجرة ! هلا نَهْلَةٌ بَفم

وقد بدأ البوصيرى قصيدته بقوله :

أمن تذكر جيران بذى مسلم — مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة — وأومض البرق فى الظلماء من إضم

هذا احتمال يجسم الرأى فيه دراسة خاصة للقصيدتين ، أرجو أن يتيسر من الوقت ما يمكن من ذلك ، !

بيد إن الذى يعنينا هنا أن نقرر أن شوقيا لم يغب عنه فى قصيدته (ابن الفارض ، والبوصيرى ، ثم البارودى) فكان مطلعه :

ريمٌ على القاع بين البان والعلم ... أحلَّ سفكَ دمى فى الأشهر الحرم[1]
رمى القضاءُ بعينى جُؤذَر أسداً ... يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم[2]

وشوقى فى تقديم مدحته بدأ مشببا ــ وفق ما التزمه الشعراء العرب ــ ثم انتقل إلى المدح ، ولذلك نراه يوظف التشبيب فنيا ، ليكون وسيلة تصله بغرضه الأصيل .

والتشبيب فى (نهج البردة) يستغرق أكثر من ثلاثين بيتا من قصيدته التى ضمت تسعين ومائة بيت ! .

وهو فى هذه المقدمة التشبيبية يتغنى بالحسناء التى تشبه ريما صادفه فى سهل مطمئن بين أشجار البان وأحد الجبال الشاهقة ، فملك لبه ، وكان حبه إياه يفتك به ، حتى لكأن القضاء رماه بسهم صائب سدد من عينى هذا الظبى ، فلم يملك إلا أن يستنجد بمن حوله من الناس لينقذوه من فتك هذا الظبى .

ويبدأ شوقى فى وصف تأثره بهذه الحسناء ، وكيف ابتدأ ذلك مع نظرة منها مصوبة إليه ، أنشأت بينه وبين نفسه حديثا ــ حيث استشعر ما أحدثته تلك النظرة فيه ؛ إذ أصابت جنبه بسهم مصيب ــ فانطلق مستنجدا مسترحما ، على الرغم من أنه أنكر ذلك الأثر وكتمه ، لإيمانه بأن جرح الأحبة لا يؤلم ، كما هو شأن ذوى الأخلاق الطيبة .

لما رنا حدثتنى النفس قائلة ... يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمى[1]
جحدتها ، وكتمت السهم فى كبدى ... جرح الأحبة عندى غيرُ ذى ألم[2]
رزقتَ أسمح ما فى الناس من خلق ... إذا رزقتَ التماس العذر فى الشيم[3]

ويتنبه شوقى إلى أن هناك من يلومه على ذلك ، فيتوجه بالخطاب إليه منبها إلى أن الهوى قدر لا سلطان لإنسان عليه ، وموضحا أنه ما لأمة إلا لأنه لم يتعرض لآثار الهوى ، ولو أن الهوى أصابه ما كان منه عذل ولا لوم ؛ ولذلك فإن لوم اللائم لا أثر له فى شوقى وإن بدا منتصتا إليه ، لأنه لا ينتصت إليه إلا فى الظاهر :

يا لائمى فى هواه ، والهوى قدر ... لو شفك الوجد لم تعزل ولم تلم[4]
لقد أنلتك أذنا غير واعية ... ورب منتصت ، والقلب فى صمم[5]

---

(١) الريم : بالهمزة ويخفف بقلب الهمزة ياء ــ : الظبى الخالص البياض ، القاع : الأرض السهلة المطمئنة ، والبان ــ جمع بانة ــ : ضرب من الشجر ، والعلم : الجبل ، الأشهر الحرم : ذو القعدة ، ذو الحجة ، المحرم ، رجب .
(٢) الجؤذر ــ بضم فسكون ففتح ــ : ولد البقر الوحشية ، الأجم ــ جمع الأجمة ــ : الشجر الكثير الملتف ، ويسكنه الأسد .
(٣) رنا : أدام النظر مع سكون الطرف ، ويح : كلمة ترحم وتوجع .
(٤) جحد الشىء : أنكره .
(٥) التمس العذر : طلبه ، الشيم : جمع الشيمة : الطبيعة والخلق .
(٦) شفه : أنحل جسمه وأصابه بالهزال ، الوجد ــ بفتح فسكون ــ : الحب . العذل ــ بفتح فسكون ــ : اللوم .
انتصت له : سكت له مستمعاً .

ثم يتوجه بالخطاب إلى تلك الحسناء التى سلبته لبه بعيونها الوسنانة ، فأقضت مضجعه وحرمته النوم ، متقربا منها بجعل نفسه فداءها :

يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أبدا ... أسهرت مضناك فى حفظ الهوى فنم [١]

أفديك إلفا ، ولا آلو الخيال فدى ... أغراك بالبخل من أغراه بالكرم [٢]

ومن هنا ينطلق واصفا ما كان من هذه الحسناء ، حتى أوقعته فى هواها ، وما كان من خياله الذى تحرك فى الليل ساريا وراء هؤلاء السافرات اللائى يشبهن البدور ، واللائى يقتلن بأجفانهن من يصادفن ، واللائى يعبثن بعقول الرجال ، بما أبدين من حمرة فى خدودهن كأنما أشعلن فيها نارا ، واللائى يحملن ألوية الحسن المختلفة إعلانا عن بلوغهن أعلا درجات الجمال ، حتى إن إشارة من بنانهن لتأسر الأسد الكاسر ، فلم يكن من شوقى إلا أن استسلم لهؤلاء الحسان ، وجعل خده مرتعاً لهن ، وكله دهشة وتعجب من سطوتهن ، حتى أصبح فى حيرة من أمرهن ، أيقطنَّ الغاب مع الأسود ، أم يلقاهن فى القصور ؟!

وهكذا .. يتحول شوقى من وصف جمالهن ، إلى الحديث عن امتناعهن ، وبعدهن عنه ، حتى لكأنهن مقيمات فى حصون ، دونها المنايا ، مما يدفعه إلى التساؤل الحائر بحثا عن سرهن ، وتطلعا إلى معرفة الروابط بين حسنائه وتلك المخاوف من السيوف والوحوش الضوارى ، حتى أصبحت حواجز تمنعه من الوصول إليها أو الدنو منها ، فأصبحت تلك الحواجز مع ما هو عليه من عفة عذرية تمثل الموانع التى لا تسمح له بأن يغشى منزلها أو يقترب منه إلا فى أثناء النوم ، حتى لكأن منزلها فى بعده عن التناول هو إرم ذات العماد التى لم يبق منها إلا الذكرى ، وذلك قوله :

سرى ، فصادف جرحاً داميا ، فأسا ... ورب فضل على العشاق للحُلُم [٣]

منَ الموائس باناً بالربى وقَناً ... اللاعباتُ بروحى ، السافحات دمى [٤]

السافراتُ ـ كأمثال البدور ـ ضحى ... يُغِرْنَ شمس الضحى بالحلْى والعِصَم [٥]

القاتلات بأجفان بها سقَم ... وللمنية أسباب من السقم

---

(١) الطرف ـ بالتحريك ـ : العين ، والناعس : الذى فترت حواسه فقارب النوم ، المضنى ـ بضم فسكون ـ : الذى أصابه المرض أو الهزال الشديد .

(٢) الإلف : الذى يؤلف ويؤنس به ، آلو الخيال : الألو : الترك ، والإبطاء ، والتقصير ، والمنع . أغراه بالشىء : زينه له ، وحرضه عليه .

(٣) السرى ـ بالضم ـ : السير ليلًا ، صادف الشىء : وجده من غير موعد ولا توقع ، أسا الجرح : عالجه وداواه ، الحلم ـ بضمتين ـ : الرؤيا فى النوم .

(٤) الموائس ـ جمع المائسة ـ : المختالة المتبخترة ، البان : نوع من الشجر لدن مستقيم ، يشبه به قوام المرأة الجميلة ، والقنا ـ بالفتح ـ جمع القناة : الرمح ، سفح الدم : سفكه وأساله .

(٥) السافرة : المرأة التى كشفت عن وجهها ، الحلى ـ بفتح فسكون ـ : ما تتزين به المرأة ، العصم ـ بكسر ففتح ـ جمع العصمة كعنبة وعنب : القلادة .

العاثـراتُ بألبـابِ الرجـال ، ومـا   أُقِلنَ من عثرات الـدل فى الـرَّسَم [١]

المضرمـاتُ خدوداً أسفـرت وجـلت   عن فتنـة تُسلـم الأكبـاد للضَرَمَ [٢]

الحامـلات لواء الحسن مختلفـا   أشكالـه وهـو فرد غير منـقسم [٣]

من كل بيضاء أو سمراء زُيِّنتـا   للعين ، والحسنُ فى الآرام كالعُصُم [٤]

يُرَعن للبصر السامى ، ومن عجب   إذا أشرن أسرن الليـث بالعَنَـم [٥]

وضعتُ خدى ، وقسمت الفؤاد رُبىً   يرتعـن فى كُنس منـه ، وفى أكَم [٦]

يا بنت ذى اللِّبَـد المحمـى جانبـه   ألقاك فى الغاب ، أم ألقاك فى الأُطُم [٧]

ما كنتُ أعلم ـ حتى عنَّ مسكنه ـ   أنَّ المنى والمنايـا مضربُ الـخِيم [٨]

من أنبت الغصن من صمصامة ذكر ؟   وأخرج الريم من ضرغامةٍ قرِمِ ؟ [٩]

بينى وبينك من سمر القنـا حجُب   ومثلهـا عفـة عذريـةُ الـعصم [١٠]

لم أغش مغنـاك إلا فى غضون كرًى   مغنـاك أبعـد للمشتـاق إرمِ [١١]

الحديث مع النفس :

ومن هنا يتوجه شوقى بحديثه إلى نفسه ، ممهداً بذلك للخلوص إلى غرضه الأصيل ــ وهو الحديث الواصف المادح لسيدنا محمد ﷺ ــ ولذلك كان حديثه إلى نفسه ــ أو مع نفسه ــ حديث محاسب لنفسه عما صدر منها ، محذرا إياها من الاستمرار فى الخطأ إذا وقعت فيه ، وعلى هذا الطريق نجد الشاعر يقول : يا نفسى لا تخدعى فى هذه الدنيا ، فهى تخفى وراء مسراتها

(١) الألباب : العقول ، عثرت المرأة بلب الرجل : كبت به ، أقاله من عثرته : أنهضه من سقطته ، الدل ــ بالفتح ــ : الحالة التى يكون عليها المرء من السكينة والوقار ، يقال امرأة ذات دل : ذات شكل يمكنها من أن تدل على زوجها وتظهر عليه الجرأة كأنها تخالفه وما بها من خلاف ، الرسم ــ بالتحريك ــ : حسن المشى .

(٢) أضرم النار : أشعلها ، وإضرام الخدود : صبغها بالحمرة . جلت عن فتنة : كشفت .

(٣) اللواء : العلم ، الفرد : المنفرد المتوحد .

(٤) الآرام ــ جمع الرئم ــ : الظبى ، العصم ــ بضمتين ــ جمع الأعصم والعصماء : الظبى الأسود أو الأحمر فى ذراعيه بياض .

(٥) راعه : أخافه الليث : الأسد ، العنم ــ بالتحريك ــ : شجرة حجازية لها ثمر أحمر ، تشبه به بنان المرأة المخضوبة .

(٦) وضع الخد : كناية عن الخضوع ، الكنس ــ بضمتين ــ جمع الكناس بكسر الكاف ــ مولج فى الشجر يأوى إليه الظبى ليستتر ، الأكم ــ بالتحريك ــ جمع الأكمة : التل .

(٧) اللبد ــ بكسر ففتح ــ جمع اللبدة : الشعر المتراكب بين كتفى الأسد ، الأطم ــ بضمتين ــ : الحصن أو القصر .

(٨) عن الشىء ــ بتضعيف النون ــ : ظهر ، المنى ــ جمع المنية ــ : الأمنية والبغية ، والمنايا ــ جمع المنية ــ : الموت ، مضرب الخيم : المكان الذى تقام فيه . والمقصود : المكان الذى تنزل فيه المحبوبة .

(٩) الصمصامة ــ بفتح فسكون ــ : السيف القاطع ، والضرغامة ــ بكسر فسكون ــ : الأسد ، ويقصد بهما أبا معشوقته والقرم : شديد الشهوة إلى اللحم .

(١٠) السمر ــ بضم فسكون ــ جمع الأسمر : الرمح ، القنا : اسم جنس جمعى . مفرده القناة : الرمح الأجوف ، العفة العذرية : نسبة إلى قبيلة بنى عذرة ، العصم ــ بكسر ففتح ــ جمع العصمة : الحفظ والمنع .

(١١) غشى المكان : نزل به ، المغنى : المكان الذى يغنى به أهله عن الاحتياج ، الكرى : النوم ، إرم : هى إرم ذات العماد التى كانت لقوم عاد .

البادية أحزانا وآلاما تفرض على العاقل الحذر منها ، والحذر من الانخداع بهذه الدنيا يفرض عليك أيتها النفس أن تواجهيها بالتقوى ، فإن ذلك منك يجعلها تفصح عما تخفيه لك ؛ كما يفرغ أذى الحية الرقشاء بكسر أسنانها ... إن طبيعة الدنيا بما تشتمله من إغراءات تجعل منها كيانا يخشى دائما من خداعه ، حتى إن الإنسان لا يستطيع التخلص من أذاها إلا بالصبر والقوة والمعاناة ، فإن أثر أذاها يبقى على الزمان ، بل إنه يمتد إلى ما بعد فناء الزمان ، على ما نرى عليه أبانا الأول آدم الذى ما زال يذكر ما أصابه منها ، فلا تهتمى يا نفس بما قد تلوح به إليك من ثمراتها فى هيئة معسولة ، لأن هذه الثمرات تحمل الموت بين طياتها ، فلا فرق بين جناها وجنايتها ، حتى إن كثيرا من الناس قد وقعوا فريستها ، وخدعوا بها ، فعموا عن حقيقتها ، بينما هى واعية ساهرة لا تغفل لحظة عن ابتكار مصائبها ونوازلها ، فتارة ترخى للإنسان حبل الرخاء والتنعم والعافية ، حتى يظل فى غفلته ، وطورا تلهيه بالأوبئة والأمراض الفتاكة فلا يعى من أمره ما يستعين به على الخلاص منها ، والتنبه إلى ما تخفيه من سموم وأوصاب .

ومع هذا التحذير النفسى من شوقى يشعر ويشعرنا أن نفسه تكاد تقع فى المحذور ، فيصيح مستغيثا مستنجدا لنفسه التى وقعت فى الخطيئة قبل أن يتمكن من إنقاذها ، حيث انهمك بها فى المعاصى وتركها مطبقة فى طرق الغواية ، حتى هامت وراء اللذات تبحث عنها وتسعى إليها فى كل موطن ، دون مقاومة منها على ما طبعت عليه النفوس .

ومن هنا يبلغ شوقى بنفسه درجة عالية من السمو والرفعة ، يتمكن معها من تحويل مشاعره إلى حكم تنساب فى عبارات رشيقة يقرر فيها أن صلاح الإنسان يقوم ـ بالضرورة ـ على الأخلاق ، فبها وحدها تقوم النفوس ، ولذلك ارتبط سلام النفس بما تكون عليه من خلق .

وهكذا ... يخلص شوقى من مقدمته الغزلية لموضوعه بذلك الحديث النفسى كما خلص البوصيرى فى بردته ، وذلك قوله :

يا نفس دنياكِ تخفى كلَّ مبكية ... وإن بدا لكِ منها حسن مبتسم[1]
فضِّى بتقواكِ فاها كلما ضحكت ... كما يُفَض أذى الرقشاء بالثَّرم[2]
مخطوبةٌ منذ كان الناس ، خاطبةٌ ... من أول الدهر ، لم تُرمل ولم تئم[3]
يفنى الزمان ، ويبقى من إساءتها ... جرح بآدم ، يبكى منه فى الأدم[4]
لا تحفلى بجناها ، أو جنايتها ... الموت بالزهر ، مثل الموت بالفحم[5]

---

(١) المبتسم ـ بفتح السين ـ : الابتسام ، أو موضع الابتسام وهو الثغر .

(٢) فض فاه : نثر أسنانه وكسرها ، الرقشاء من الحيات : المنقطة بالسواد والبياض ، أذى الرقشاء : سمها ، الثرم ـ بالتحريك ـ : كسر السن من أصلها .

(٣) أرملت المرأة : مات زوجها فصارت أرملة ، وآمت من زوجها : فقدته ، أو أقامت بلا زوج بكراً كانت أو ثيباً .

(٤) الأدم ـ بالتحريك ـ الجلد .

(٥) حفل بالشىء : عنى به ، الجنى ـ بفتح الجيم والنون ـ : ما يجتبى من الشجرة وما يقطف من ثمرها ، الجناية : الذنب والجرم . الفحم ـ بالتحريك ـ والفحم بسكون الحاء : مادة سوداء ذات مسام ، تتخلف من إحراق الخشب والعظم ونحوهما إحراقاً جزئياً .

كم نائم لا يراهـا وهـى ساهـرة ... لولا الأمانىُّ والأحـلام لم ينـم[1]
طورا تمدك فى نُعمـى وعافيـة ... وتـارة فى قرار البـؤس والـوصم[2]
كم ضللتك ، ومـن تحجب بصيرتـه ... إن يلق صاباً يردْ ، أو علقما يُسشم[3]
يا ويلتاه لنفسى ، راعهـا ، ودَهَـا ... مُسْودةُ الصحـف مبـيضة اللِّمَـم[4]
ركضتها فى مريع المعصيـات ، ومـا ... أخـذت من حِمية الطاعـات للتخـم[5]
هامت على أثـر اللـذات ، تطـلبها ... والنفس إن يَدْعها داعى الصبا تهم[6]
صلاح أمـرك للأخـلاق مرجعـه ... فقوم النـفس بالأخـلاق تستقـم[7]
والنـفس من خيرهـا فى خير عافيـة ... والنـفس من شرها فى مرتع وخـم[8]
تطغى إذا مُكـنت من لذة وهـوى ... طغـى الجيـاد إذا عضت على الشكـم[9]

التقرب الى الله بمدح المصطفى :

وبعد أن تخلص الشاعر من مقدمته التشبيبية ، خلص إلى مدح المصطفى ﷺ متقربا إلى الله تعالى بذلك ، راجيا أن يغفر ذنوبه التى تفاقمت حتى أصبح يخشىٰ عليه من عدم المغفرة ، مصرحا بأنه مطمئن إلى عفو الله تعالى عنه عفوا يعصمه ويحفظه من الموبقات ، وأنه واثق من أن الله بكرمه ورحمته يقبل رجاءه فى الوقت الذى لا يوجد فيه من يجير ، فهو وحده مفرج الكرب ، ومبدد الغمم ، ومزيل الهموم .. فى الدنيا والآخرة . ومن هنا يعلن شوقى أن طريقه الذى يراه موصلا إلى تحقيق هذا الرجاء .. هو تقربه من رسول الله ﷺ ، فيقول : إننى حين أسأل المصطفى ﷺ أن يشفع لى ، إنما أسأله أمرا يسيرا عليه وإن بدا أمرا عسيرا ، وإذا كان المعتاد عند طلب المغفرة أن يقدم الإنسان عملا صالحا ، فإننى لا أملك فى هذا الصدد إلا أن أقدم دموع الندم والتوبة ، وأن ألزم بابه ﷺ وأن ألتجىء إلى كرمه موقنا أن هذا هو خير سبيل لحصولى على رضا الله وعفوه ، ولا غرابة فى ذلك ، فهو ﷺ مصدر كل فضل ومعروف

---

(١) يريد بالنائم : الغافل .
(٢) الوصم ـ بالتحريك ـ : الألم والمرض .
(٣) الصاب ـ جمع الصابة ـ : شجر مر له عصارة بيضاء كاللبن ، شديدة المرارة ، إذا أصابت العين أتلفتها ، العلقم : كل شىء مر ، وشجر الحنظل ، السوم : الرعى .
(٤) راعه الشىء : أفزعه ، دها ؛ يعنى : دهاها : أصابها بداهية ومصيبة عظيمة ، اللمم ـ بكسر ففتح ـ جمع اللمة : شعر الرأس المجاوز الأذن ، وبياضه يعنى : شيبه .
(٥) ركض الدابة : استحثها على العدو ، والمقصود هنا إطلاق النفس على هواها فى طريق الغواية ، المرعى المريع : الذى تستطيبه الدابة ، الحمية ـ بكسر الحاء ـ : الإقلال من الطعام ونحوه ، والتخم ـ جمع التخمة ـ : فساد المعدة بالطعام .
(٦) هام على وجهه : ذهب من غير تحديد مقصد ، داعى الصبا : اللهو والملذات .
(٧) قوم النفس : هذبها .
(٨) المرتع : موضع الرتوع ، وهو الأكل ، الوخم ـ بفتح فكسر ـ : الوديء .
(٩) الطغيان : مجاوزة الحد ، الشكم ـ بضمتين ـ جمع الشكيمة : الحديدة المعترضة فى لجام الفرس ، فإذا عضت عليها فقد راكبها السيطرة عليها ، ولم يعد يملك زمامها .

وإحسان ، ولقد نلت بمدحه ما أعتز به يوم القيامة ، حيث لا ينفع مال ولا بنون ، ففقت بمدحى إياه مدح زهير حين مدح هرم بن سنان ، ونلت منه ما لم ينله زهير من هرم وذلك قوله :

إن جل ذنبى عن الغفـران لى أمـل ... فى الله يجعلنـى فى خير معـتصم [(١)]
ألقـى رجـائى ـ إذا عز المجير ـ على ... مفرج الكرب فى الدارين والغُمَم [(٢)]
إذا خفضت جنـاح الـذل أسألـه ... عزالشفاعـة لم أسأل سوى أمَم [(٣)]
وإن تقـدم ذو تقـوى بصالحة ... قدمت بين يديـه عَبرة النـدم [(٤)]
لزمت باب أمير الأنبيـاء ومـن ... يمسك بمفتـاح باب الله يغتنـم [(٥)]
فكـل فضل وإحسان وعارفـة ... ما بين مستلَم منـه وملتـزم [(٦)]
علـقت من مدحـه حبـلا أعزبـه ... فى يوم لا عز بالأنساب واللُّحُـم [(٧)]
يُزرى قريضى زهيراً حين أمدحـه ... ولا يقـاس إلى جودى لدى هَرِم [(٨)]

المدح بذكر بعض الصفات :

ومن هنا أخذ شوقى يذكر بعض صفات محمد ﷺ الذاتية التى أصبحت ـ بثباتها واستمرارها ـ شمائل وطبائع تلازمه ، فهو ﷺ صفوة البارى الذى خلق الخلق واختاره من بينهم متفردا ، وهو ﷺ رحمة الله المهداة إلى خلقه ليحفظهم به من كل شر وسوء ، وهو ﷺ إرادة الله من الإنسان ، وهو ﷺ المنعم عليه من ربه بالحوض الذى يتشوف إلى وروده يوم القيامة جميع المرسلين وأممهم ؛ لينهلوا منه فى ذلك اليوم ما ينقع ظمأهم . وهو ﷺ الرفيع الشأن ، المشرق النور كأنه الشمس الساطعة بين سائر الأفلاك والكواكب ، حتى لقد نال آباؤه السيادة والشرف بانتمائهم إليه ـ على خلاف ما تعود الناس من اعتزاز الأبناء بآبائهم ـ ولا غرابة فى ذلك إذا عرفنا أنه قبل أن يولد كان فى جبهات آبائه نورا مشرقا ، وذلك قوله :

---

(١) جل : عظم ، المعتصم ـ بفتح الصاد ـ : موضع الاعتصام ، أو هو الاعتصام نفسه ، وعصمة الله العبد : حفظه مما يوبقه ويهلكه .

(٢) عز المجير : قل من يجير فلا يكاد يوجد ، فرج الله الغم : كشفه ، الكرب : الحزن والغم ، الغمم ـ بالتحريك ـ جمع الغمة : الهم والحزن ، يقصد الشاعر بذلك يوم القيامة .

(٣) خفض جناح الذل : كناية عن شدة التواضع والانكسار ، الأمم ـ بالتحريك ـ : اليسير القريب التناول .

(٤) العبرة ـ بفتح فسكون : الدموع .

(٥) أمير الأنبياء : محمد ﷺ ، ولزوم بابه : كناية عن الالتجاء إلى كرمه ، وعدم الانحراف عن التوسل به فى قضاء الحاجات .

(٦) العارفة : المعروف ، استلم الزرع : خرج سنبله ، يعنى أن الفضل والإحسان والمعروف نابع منه ﷺ ، والملتزم ـ بفتح الزاى ـ : موجب ومقتضى منه .

(٧) علق الرجل ـ بفتح فكسر ـ الحبل وبالحبل : استمسك به ، يعز الإنسان بالله ـ بفتح العين ـ : يقوى ويبرأ من الذل ، اللحم ـ بضمتين ـ جمع اللحمة : القرابة .

(٨) يزرى : يعيب ، القريض : الشعر ، وزهير هو : ابن أبى سلمى ، أحد شعراء الجاهلية الفحول ، وهرم ـ بفتح فكسر ـ هو ابن سنان بن أبى حارثة ، شارك فى إنهاء حرب داحس والغبراء ، فمدحه زهير ، فأجزل له هرم العطاء .

محمد صفوة البارى ورحمته ... وبُغية الله من خلق ومن نَسَم (١)
وصاحب الحوض يوم الرسلُ سائلةٌ ... متى الورود ، وجبريل الأمين ظمى (٢)
سناؤه وسناه الشمسُ طالعة ... فالجِرم فى فلك ، والضوء فى علم (٣)
قد أخطأ النجمَ ما نالت أبوتُه ... من سؤدد باذخ فى مظهر سَنِم (٤)
نُموا إليه ، فزادوا فى الورى شرفا ... ورب أصل لفرع فى الفخار نُمى (٥)
حواء فى سُبُحات الطهر قبلهم ... نوران قاما مقام الصلب والرحم (٦)

المدح بذكر بعض الأحداث التاريخية :

وكما قصر شوقى ما ذكره من سجايا وطبائع على ما وصف به القرآن الكريم محمدا ﷺ ، وما اشتهر به بين قومه مشركيهم ومسلميهم ، ذكر فى هذا السياق بعض ما أثر من أحداث ومواقف صادفها فى حياته ﷺ قبل بعثته ، تنبىء بما له من خصوصية تميزه بين خلق الله جميعا ، مثال ذلك ما كان من (بحيرا) الراهب حين رآه وهو صبى فى تجارة عمه أبى طالب ، حيث تعرف عليه بما كان يصاحبه من أمارات تعلن عنه من قرأ كتب الديانات السابقة ، وما كان منه فى حياته الخاصة به رائحا وغاديا فى وادى مكة مع الإصباح والإمساء ، وما كان منه حين اعتزل أترابه وعشيرته بما نشأوا عليه من عادات وتقاليد ومعتقدات ، مؤثرا الوحدة فى غار حراء ، حتى يتجنب مساوىء القوم ، وحتى يتزود بالتأمل من كل خير ، ممهدا بذلك ـ من غير أن يدرى ـ لاستقبال رسول الوحى ، فقال معبرا عن ذلك :

لما رآه بحيرا ، قال : نعرفه ... بما حفظنا من الأسماء والسِّيَم (٧)
سائل حراء وروح القدس هل علما ... مصون سر عن الإدراك منكتم (٨)
كم جيئة وذهاب شرِّفت بهما ... بطحاء مكة فى الإصباح والغَسَم (٩)

---

(١) النسم ـ بالتحريك ـ جمع نسمة : النفس أو الإنسان .

(٢) الحوض : مجتمع الماء ، والمقصود هنا حوضه ﷺ يوم القيامة ، والمقصود بظمأ جبريل ـ لأن الملائكة لا تظمأ ـ هو تشوقه لورود الناس حوضه ﷺ إشفاقاً عليهم مما يرهقهم فى ذلك اليوم من حرج وهلع .

(٣) السناء : الرفعة ، والسنا : الضوء ، الجرم : الجسد ، الفلك : الفضاء يدور فيه النجم أو الكواكب ، والعلم ـ بالتحريك ـ يقصد به هنا العالم .

(٤) السؤدد ـ بفتح الدال ـ : السيادة والشرف ، الباذخ : العالى ، السنم ـ بفتح فكسر ـ المرتفع .

(٥) نمى فلان إلى فلان ـ بضم النون ـ : نسب ، الورى : الخلق .

(٦) السبحات : بضمتين ـ جمع السبحة : مواضع السجود ، الصلب ـ بضم فسكون ـ : فقار الظهر .

(٧) السيم ـ بكسر ففتح ـ جمع السيمة : العلامة ، وبحيرا ـ بفتح فكسر ـ راهب نصرانى .

(٨) حراء : جبل بمكة فيه الغار الذى كان النبى ﷺ يتعبد فيه قبل الرسالة ، روح القدس : جبريل عليه السلام ، من إضافة الصفة للموصوف ، أى الروح القدس .

(٩) البطحاء : المسيل الواسع فيه دقاق الحصى ، والغسم ـ بالتحريك ـ : ظلمة الليل .

ووحشة لابن عبدالله بينهما — أشهى من الأنس بالأحباب والحَشم [1]
يسامر الوحى فيها قبل مهبطه — ومن يبشّر بسيمى الخير يتسم [2]

ومن هنا انطلق يحدثنا عن بعض معجزاته ﷺ ، مقتصرا من ذلك على ما شاع فى الألسن ، وتناقلته كثرة من الرواة تكاد تبلغ به درجة التواتر ، كنبع الماء العذب من أصابعه ﷺ ، حين ضج أصحابه من شدة العطش ، وكمصاحبة الغمامة إياه فى حله وترحاله ، تظلله وتقيه حرارة الشمس ، وكتلك المحبة التى أفعمت بها قلوب كثير من الرهبان نحوه ﷺ ، فكان ذلك دليلا على ما ضم من شمائل ، فقال :

لما دعا الصحب يستسقون من ظمأ — فاضت يداه من التسنيم بالسنم [3]
وظللته ـ فصارت تستظل به ـ — غمامة ، جذبتها خِيرة الديَم [4]
محبة لرسول الله أشربها — قعائد الدير ، والرهبان فى القمم [5]
إن الشمائل إن رقَّت يكاد بها — يُغرَى الجماد ، ويُغرى كل ذى نَسَم [6]

وهكذا ... خلص للحديث عن بعثته ﷺ ، حيث نزل عليه جبريل عليه السلام داعيا إياه بأمر الله أن يقرأ ، فكان ذلك إيذانا بعهد جديد واجه أهل مكة ، حيث امتلأت أسماعهم بالدعوة الصادرة منه ﷺ إلى الإيمان بالله الرحمن الرحيم وحده ، فأصيبوا بحيرة أذهلتهم ، وأخذوا بمفاجأة لم تخطر لهم على بال ، حيث رأوا فى تلك الدعوة الجديدة ، خروجا على تقاليد ورثوها عن آبائهم ، وأحسوا بأن ذلك يعنى أنهم وأسلافهم كانوا على خطأ ، مما يعنى تسفيه أحلامهم ، والانتقاص من مقدساتهم ، فالتقوا على محاربته ، ونهضوا محاولين صرفه عن تلك الدعوة بكل الوسائل ، غافلين ـ أو متغافلين ـ عما كان له فى أنفسهم من مكانة مرموقة ، حتى لقبوه منذ صباه بالأمين ، ذاهلين بما آل إليه أمرهم من تناقض ، حيث اضطرتهم جاهليتهم إلى أن يتهموا بالكذب من لقبوه منذ صباه بالأمين .. فقال :

ونودى : اقرأ ، تعالى الله قائلُها — لم تتصل قبل من قيلت له بفم

(1) الوحشة : الخلوة ، والخوف منها ، والهم . ابن عبد الله : محمد ﷺ ، والواضح من سياق البيت أن المقصود هنا بالوحشة : مطلق الخلوة ، والحشم : الخدم والخالصون بمولاهم .

(2) سامره : حادثه ليلا ، المهبط ـ بكسر الباء ـ : الهبوط .

(3) التسنيم : عين ماء بالجنة يشرب بها المقربون . السنم ـ بالتحريك ـ : الذى ارتفع على وجه الأرض ، والمقصود به الماء الذى فاضت به يداه صلى الله عليه وسلم .

(4) الديم ـ بكسر ففتح ـ جمع الديمة : المطر الدائم .

(5) أشرب قلب فلان حب فلان ـ بضم الهمزة وكسر الراء ـ : خلط به ، القعائد ـ جمع القعيدة ـ : من يلازمون القعود ، وقعائد الدير : ملازموه من متنسكة النصارى ، القمم ـ جمع القمة ـ : أعلى الشىء ، والمراد هنا : أعالى الجبال .

(6) الشمائل ـ جمع الشمال بكسر الشين ـ : الخلق ، رف البرق وغيره : تلألأ ، أغرى الإنسان بالشىء : حرضه عليه ، ذو النسم ـ بالتحريك ـ : ذو النفس ، والمراد الكائن الحى .

هنـــاك .. أذّن للـــرحمن ، فامتـــلأت أسماع مكـــة من قدسيـــة النغـــم [1]
فلا تسل عن قريش كيـــــف حيرتها وكيـف نُفْرتها فى السهـــل والعلـــم [2]
تساءلـــــــوا عن عظيم قد ألم بهم رمـــى المشايخ والولـــدان باللَّمـــم [3]
يا جاهـــــلين على الهادى ودعوتـــــه هل تجهلون مكـان الصادق العلـم ؟! [4]
لقبتمـــوه أمين القــــوم فى صغـــر ومـــــــــا الأمين على قول بمتهم

المدح باختصاصه بالمعجزة القرآنية والبيانية :

وحديث شوقى عما كان له فى نفوس من يتصل به منذ صغره ... يسوقه إلى ذكر شيء مما يمتاز به عن غيره من عامة الناس وخاصتهم ، بل وما يُمتاز به عما يحيطه من أبرز المظاهر الكونية ، فشوقى يراه ﷺ فى مظاهره الجسمية يفوق البدور نورا ، وفى أخلاقه يفوق من تقدمه فى الزمن من الأنبياء ، ويقرر أنه فى رؤيته تلك لا ينطلق من تأثر عاطفى ، ولكنه الواقع الملموس فى الفرق بين دورهم ورسائلهم وبين دوره هو ورسالته ، فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون خاتم الأنبياء والمرسلين ، فتكون رسالته عامة شاملة خالدة ، بينما انحصرت رسالات من سبقه فى قوم بأعيانهم ، وفى زمن محدود ، وذلك قوله :

فاق البـدور ، وفـاق الأنبيـاء ، فكـــم بالخُلْق والخَلْـق من حسن ومـن عِظـم
جاء النبيـــــون بالآيات ، فانصرمت ، وجئتنـــــــــا بحكيم غير منصرم [5]

وكان حديث الشاعر عما جاء به محمد ﷺ منطلقا إلى الحديث بشيء من التفصيل عن القرآن الكريم ، فأشار إلى إحدى مظاهر خلوده ، وإحدى مظاهر إعجازه ؛ فآيات القرآن الكريم متجددة دائما ، فمهما امتد بها الزمان ، ومهما تغيرت الظروف والبيئات ، ينظر فيها الإنسان فيجدها ملبية حاجاته كأنها أنزلت فى ذلك العصر بعينه ، وفى تلك البيئة نفسها ، كما إن آياته الكريمة لا تقتصر فى عطائها على شيء واحد ، بل إن فيها لكل داء دواءه ، ولكل محتاج حاجته ؛ ففيها الفكر ، والتشريع ، والتوجيه ، والتهذيب ، والتربية ، والتسلية ... إلى آخر ما يحتاجه الإنسان من غير تقصير فى جانب لحساب جانب آخر ... وفى ذلك كان قوله :

---

(١) أذن للرحمن : دعا إلى الله ، النغم ـ بالتحريك ـ جمع النغمة : حسن الصوت فى القراءة وغيرها ، وقدسية النغم : النغم المنزه عن تطريب الغناء بتكبير الألفاظ واعتصار الحناجر وإيقاع الأصوات .

(٢) لا تسل عن حيرة قريش يعنى : إن أمر قريش فى ذلك واضح غنى عن السؤال ، العلم ـ بالتحريك ـ : الجبل .

(٣) ألم به الأمر : نزل به ، رمى فلاناً بأمر قبيح : قذفه ونسبه إلى الفاحشة ، اللمم ـ بالتحريك ـ الجنون ، يريد : إن بعض قريش أقبل على بعض يتساءلون عن الأمر العظيم الذى نزل بهم ، وهو أن يقوم رجل ليس له ما لهم من سلطان ، يدعوهم إلى غير ما ألفوه من معتقدات وعادات .

(٤) جهل فلان على غيره ـ بفتح فكسر ـ : جفا وتسافه ، والاستفهام فى البيت إنكارى .

(٥) انصرمت : انقطعت ، الحكيم : القرآن .

آياته ـ كلما طال المدى ـ جُـدُد يزينهن جلال العِتْـق والقـدم[1]
يكـاد فى لفظـة منـه مشرفـة يوصيك بالحق ، والتقوى ، وبالرحم

ومن هنا تسنح المناسبة لتناول بيانه ﷺ ؛ إذ العلاقة بين بيانه وبين القرآن الكريم وطيدة ، وأثر القرآن الكريم فى منطقه واضح بين لا يمارى فيه عاقل محايد ؛ ولذلك لا عجَب فى أن يراه شوقى ـ كما رآه الكثيرون ـ أفصح من تكلم بالعربية ، حتى أصبح لحديثه مذاق الشهد عند كل ذوق فنى متوازن ، وحتى أصبح كلامه حلى يتحلى بها جيد البيان ـ على الرغم من تميزه عن فنى البيان المعروفين النثر والشعر ـ وحتى كان لقوله أثر الروح فى القلوب والهمم ، فقال شوقى :

يا أفصح الناطـقين الضادَ قاطبـة حديثك الشهد عند الذائق الفهم[2]
حلَّيت ـ من عطل ـ جيد البيان به فى كل منـتثر ، فى حسن منتظـم[3]
بكـل قول كريم أنت قائلـه تحيى القلوب ، وتحيى ميت الهمم

ملابسات مولد محمد صلى الله عليه وسلم :

ولا يملك شوقى ـ بعد هذا الحديث العام عن محمد ﷺ ـ إلا أن يرجع النظر فى لحظة مولده ، ومالابسها من بشائر لأهل الأرض من مشرقها إلى مغربها ، وما صاحب ذلك من أحداث كانت فى مجملها منبهات لأهل الأرض إلى أن حدثا مهما قد وقع ، ينبىء بأن تغييرات مهمة توشك أن تكون ؛ فقد رأى شوقى أن البشائر بالهادى وبمولوده قد سرت فى الشرق والغرب ، كما يسرى النور فى الظلام ، وأن أثر تلك البشائر فى الطاغين والباغين على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم كان أثرا عكسيا ؛ فقد تخطفت أمارات مولده ﷺ مهج الطغاة ، وأدركوا أن سلطانهم يوشك أن يزول ، وأن دولتهم تنذر بالدمار ، حتى لقد ظهرت بعض تلك الآثار فى هيئة نذر تنبه ، حيث تصدع إيوان كسرى فزعا من أمارات الحق .!

ورأى شوقى ما كانت عليه الأرض حين ولد محمد ﷺ من فوضى ، وجهل سيطر على أبناء آدم حتى تحولوا إلى أصنام تخضع لأصنام ، وحتى امتلأت الأرض ظلما وجورا واستبداداً وطغيانا ؛ فأهل فارس يملكهم ملك ظالم باغ ، وأهل الروم يستبد بهم قيصر المتكبر المتعجرف ، وهذا وذاك يفرضان سلطانهما بالقهر والتعذيب لأقل شبهة ، حتى يفزعا الناس ، ويخضعاهم إلى سلطانهما ، فكان هذا سببا يقود الآخرين إلى الاقتداء بملوكهم ، فكل ذى سلطة يسير بين من تحت سلطانه بالسيرة نفسها ؛ من فتك وتعذيب ، كما يصنع الوحوش الضوارى بالكائنات الضعيفة ... فكان قوله :

(١) المدى ـ بالتحريك ـ : المسافة ، جدد ـ بضمتين ـ جمع الجديد : ضد البلى ، الجلال : العظمة ، عتق الشىء ـ بالتحريك ـ : قدم .

(٢) الضاد : اللغة العربية ، جاء القوم قاطبة : جميعاً ، بعضهم مختلط ببعض ، الشهد ـ بفتح فسكون ـ : العسل .

(٣) العطل ـ بالتحريك ـ : خلو عنق المرأة من الحلى . المنتثر : النثر ، والمنتظم : النظم .

سرت بشائر بالهادى ، ومولده ... فى الشرق والغرب ،مسرى النور فى الظلم
تخطفت مهج الطاغين من عرب ... وطيرت أنفس الباغين من عجم[1]
ريعت لها شرف الإيوان فانصدعت ... من صدمة الحق ، لا من صدمة القُدم[2]
أتيت والناس فوضى ، لا تمر بهم ... إلا على صنم قد هام فى صنم
والأرض مملوءة جَوْراً ، مسخرة ... لكل طاغية فى الخلق محتكم
مسيطر الفرس يبغى فى رعيته ... وقيصر الروم من كبر أصمُّ عم
يعذبان عباد الله فى شبه ... ويذبحان ، كما ضحيت بالغنم
والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم ... كالليث بالبَهْم ، أو كالحوت بالبَلَم[3]

معجزة الإسراء والمعراج :

والحديث عما لابس مولده ﷺ من أمارات وعلامات ، يدفع الشاعر إلى أن يتحدث عن معجزة الإسراء والمعراج فى واقعها وآثارها ، مبتعدا عما أثاره بعض المتشككين والماديين من تساؤلات حول كيفية ذلك ، غافلين عن حقيقتها ومقاصدها ، فقال : دبر الله أمر السير بك ليلا من المسجد الحرامّ إلى المسجد الأقصى لتلقى هناك تلك الوفود الحاشدة القائمة لاستقبالك من ملائكة الله تعالى وأنبيائه السابقين ، تكريما لك ، وتجبرا لما أصابك به قومك فى موقفك الأخير ، وتصبيرا لك ، وطمأنة إلى أنك فى رعاية العزيز الحكيم ، وعند وصولك إلى المسجد الأقصى نهض هذا الحشد الكريم لاستقبالك ، فالتفوا حولك ترحيبا وتكريما ، كما تلتف الشهب بالبدر ، أو كما يحيط الجند بالعلم ، ثم أقيمت هناك صلاة ، كنت فيها الإمام ، ومن خلفك اصطف هؤلاء جميعا ، حرصا منهم على أن يفوزوا بالائتمام بك والصلاة خلفك ، تمهيدا لرحلة أخرى أشق من تلك ــ وإن كانت تكملة لها ــ ارتقى فيها بك إلى السماوات وما فوقهن مما لا يعلم بأمره إلا خالقه ؛ فمررت فى معراجك هذا بطائفة من أنبياء الله مما أثار شكوك كثير من الملحدين والماديين غافلين عما تعنيه مشيئة الله وقدرته ، فلو أوتى هؤلاء شيئا من التعقل والروية لتبينوا إلى أن قدرة الله فوق الشكوك والشبهات .. ولقد ظللت يا رسول الله فى مرقاك ومعراجك حتى بلغت فى السمو والارتفاع مكانا لا يصله مخلوق مهما أوتى من أسباب الارتقاء والارتفاع ... فلم يصل إليه قبلك أحد من الأنبياء ؛ إذ لكل نبى رتبته التى تقف به عند حد من التقدم ، فلا يستطيع أن يتجاوزه ، أما أنت يا محمد فقد مكنت من تجاوز كل تلك الموانع حتى أصبحت أمام العرش ، حيث أذن لك باستلامه ، ومكنت من الاطلاع على ما حواه اللوح

(١) المهج ــ جمع المهجة ــ : دم القلب .

(٢) ريعت : خافت وذعرت ، الشرف ــ بضم ففتح ــ جمع الشرفة : ما يوضع فى أعلا البناء يزين به ، والإيوان : مجلس كبير على هيئة صفة واسعة لها سقف محمول من الأمام يجلس فيه السلطان ، انصدع : انشق ، القدم ــ بضمتين ــ جمع القدوم : آلة للنجر والنحت .

(٣) البهم ــ بالتحريك ــ جمع البهمة بفتح فسكون : الصغير من الضأن ، والبلم ــ بالتحريك ــ : صغار السمك .

المحفوظ من خير يرقى بأمتك فى دينها ودنياها ، وأتيح لك أن تلم بكثير من العلوم والحكم التى انكشفت لك خزائنها ؛ فكان ما قلدته بتلك المنن والنعم دليلا بينا على مدى قربك من الله ربك ورب العالمين ، فكان قول شوقى المعبر عن ذلك :

أسرى بك الله ليـــلا إذ ملائكـــه ... والرسل فى المسجد الأقصى على قدم[1]
لما خطـــرت به التفـــوا بسيدهـــم ... كالشهب بالبدر ، أو كالجند بالعلم[2]
صلى وراءك منهم كل ذى خطـــر ... ومـــن يفـــز بحبـــيب الله يأتمم[3]
جُبت السماوات ، أو ما فوقهن بهم ... على منـــوَّرة دريـــة اللجـــم[4]
رَكوبـــة لك من عز ومـــن شرف ... لا فى الجياد ، ولا فى الأينق الرسم[5]
مشيئـــة الخالـــق البـــارى وصنعتـــه ... وقـــدرة الله فوق الشك والتهم
حتـــى بلـــغت سماء لا يطـــار لها ... على جنـــاح ، ولا يسعـــى على قدم
وقيـــل : كل نبـــى عنـــد رتبتـــه ... ويـــا محمـــد هذا العـــرش فاستلـــم
خطـطت للديـــن والدنيـــا علومهمـــا ... يا قارىء اللوح ، بل يا لامس القلم[6]
أحـــطت بينهمـــا بالسر وانـــكشفت ... لك الخزائن من علم ومن حِكَـــم[7]
وضاعف القـربُ ما قُلِّدت من منن ... بلا عدادٍ ، ومـــا طُوقتَ من نعـــم[8]

حادثة الهجرة وملابسها من معجزات :

ومن الحديث عن حادثة الإسراء والمعراج ، واصل شوقى حديثه ، فاستعرض حادثة أخرى تقابل الإسراء والمعراج فى دلالتها وما قامت عليه من معجزات لابستها ، تلك هى حادثة الهجرة ، حيث قام الغار بدور شبيه فى أثره بالدور الذى قام به البراق ... فوجه الشاعر المتلقين إلى أن يسألوا ، سؤال تهكم واستنكار وسخرية عصبة الشرك المضطربين حول الغار يبحثون عن

---

(١) على قدم : قائمون محتشدون .

(٢) خطر فى مشيه : اهتز وتبختر .

(٣) ذو الخطر : ذو القدرة والمنزلة ، يأتمم : يأتم .

(٤) جبت السماوات : قطعتها سيراً ، كناية عن تمكنه منها ، بهم : أى ماراً بهم صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً ، والمراد بقوله (منورة درية اللجم) : البراق ، إشارة إلى سرعته الخاطفة بما تحدثه من لمعان كأنه حركة الدر .

(٥) الركوبة ـ بفتح الراء ـ : الدابة المخصصة للركوب ، ومن هنا : تفيد التعليل ، أى من أجل عزك وشرفك ، والأينق الرسم : الشديدة الوطء لقوتها ، والرسم ـ جمع الرسوم بفتح الراء ـ : الذى يبقى على السير يوماً وليلة ، والذى يؤثر فى الأرض من شدة وطئه ، والجياد ـ جمع الجواد ـ الفرس الرائع البين الجودة .

(٦) خططت علوم الدين والدنيا : كناية عن تصديه صلى الله عليه وسلم لتعليمها الناس . وقراءة اللوح وملامسة القلم : كناية عما أطلعه الله عليه من الغيب المسطور فى اللوح المحفوظ . .

(٧) إشارة إلى ما رواه ابن عباس عنه صلى الله عليه وسلم : « علمنى ربى ليلة الإسراء علوماً شتى ، علم أخذ على كتمانه ، وعلم خيرنى فيه ، وعلم أمرنى بتبليغه » .

(٨) قلده القلادة : جعلها فى عنقه ، المنن ـ جمع المنة ـ : الإحسان والنعمة ، يقول : إن قربك من الله ضاعف ما قلدته من منن ونعم .

المصطفى ﷺ : فإذا لم يبصروا أثره ﷺ على الرغم من أنه أثر مشرق يشع النور ؛ ولماذا لم يسمعوا همس التسابيح والقرآن الصادرة منه ﷺ : على الرغم من اقترابهم من مصدرها ؟ ولماذا بدأ نسج العنكبوت فى أعينهم غابا لا يشف عما خلفه ؟ ولماذا رأوا الحمام الرقيق فى هيئة الطيور الكواسر الضخام ؟! لو أنهم أمعنوا النظر والفكر فيما أصابهم عند الغار لعرفوا مدى تجنيهم وخطل تفكيرهم ، ولكنهم أصروا على عنادهم وجهلهم ، فلم تتكشف لهم الحقيقة ، وسول لهم طغيانهم وجبروتهم أنهم لا شك متمكنون من محمد ، ولكنهم ما دروا أن لله جنودا تؤدى دورها من غير أن يتنبه إلى وجودها أحد .. ولم يكن لهم مفر من العودة خائبين ، عودة أشبه بالإدبار محملين باللعنات التى أخذت تلاحقهم فى كل مكان ، وتواجههم من كل موقع .

وهكذا .. وضح لكل ذى بصيرة أنه ما حفظ محمدا وصاحبه من هذه الطغمة الباغية إلا القوة العليا ، وأن دين الله لم يتحقق له النصر إلا لأن عين الله ترعاه وترعى من يدعو إليه ، وكيف يتصور عاقل أن يصل أذى هؤلاء الجبارين لأحد ممن يحتمى بجناح الله ؟! . وفى هذا يقول شوقى :

سل عصبة الشرك حول الغار سائمة ... لولا مطاردة المختار لم تُسم[1]

هل أبصروا الأثر الوضاء ، أم سمعوا ... همس التسابيح والقرآن من أمم ؟![2]

وهل تمثل نسج العنكبوت لهم ... كالغاب ، والحائماتُ الزغبُ كالرخم[3]

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم ... كباطل ـ من جلال الحق ـ منهزم[4]

لولا يد الله بالجاريْن ما سلما ، ... وعينه حول ركن الدين لم يقم[5]

تواريا بجناح الله واستترا ... ومن يضُمَّ جناحُ الله لا يُضم

من مظاهر عظمته صلى الله عليه وسلم :

عندئذ تهيأ الشاعر للوقوف أمام محمد ﷺ ، كى يقدم بعض الخطوط التى تبدو من خلالها صورته ﷺ ، من غير حاجة إلى تزييف المادحين وتصنعهم ، فواحد ترعاه العناية الإلهية تلك الرعاية ، وتنصره هذا النصر ، ليس فى حاجة إلى إضافة المادحين ، لغنائه بسجاياه وطبائعه .

وقد مهد الشاعر لتقديم هذه الخطوط المصورة بوقفة توسلية ، يمنى فيها نفسه بما يتوقعه من

---

(١) العصبة : الجماعة ، يقصد جماعة المشركين الذين ذهبوا يطلبونه صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة ، السائمة : الراعية .

(٢) الأمم : القرب .

(٣) الغاب ـ جمع الغابة ـ : الشجر الكثير المتكاثف : والحائمات ـ جمع الحائمة ـ : الطائر الذى يحوم حول الشىء ويدور ، الزغب ـ بضم فسكون ـ جمع الأزغب والزغباء : الطائر الذى نبت زغبه ، وهو الريش والشعر ، والرخم ـ بالتحريك ـ جمع الرخمة : طائر على شكل النسر إلا أنه منقط بالسواد والبياض .

(٤) الجلال ـ بفتح الجيم ـ : العظمة .

(٥) الجاران : رسول الله ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه ، يد الله : قوته وتأييده ونعمته . وعين الله : عنايته .

جراء معايشته محمدا ﷺ فى هذه الجولة الفنية الصادقة ، مقتديا فى ذلك بصاحب البردة ، من غير قصد إلى منافسته ولا ملاحقته ، ولكن قصاراه من ذلك السعى إلى أن ينال بعض ما نال البوصيرى من بركات ، فكما كان دافع البوصيرى فيمدحته الحب الخالص لرسول الله ﷺ ، كان دافع شوقى فى مدحته ـ كذلك ـ الحب الخالص له ﷺ ؛ ثقة منه بأن هذا الدافع يملى على الشاعر التعبير الصادق الخالص من الزيف والتصنع ، فقال :

يا أحمد الخير لى جاه بتسميتــــى … وكيف لا يتسامى بالرسول سمى ؟![1]

المادحــون وأربـــاب الهوى تبــع … لصاحب البردة الفيحــاء ذى القــدم

مديحه فيك حب خالص وهـــوى … وصادق الحب يملى صادق الكلـــم[2]

الله يشهـــــد أنى لا أعـــارضه … من ذا يعارض صوب العارض العرم[3]

وإنما أنــا بعض الغابــطين ، ومـــن … يغبــط ولــيك لا يُذمم ولا يُلَـــم[4]

ومن هنا ينطلق الشاعر ـ على وجل ـ مع بعض صفات المصطفى ﷺ وسجاياه وأفعاله ، ليرينا منها ما يسهم فى إبراز صورته ﷺ .

يبدأ شوقى جولته تلك مقررا تهيبه اقتحام هذا المقام احتراما وتوقيرا ، وليس لقصور فى بيانه وشاعريته ؛ فلو تعرض لمثل هذا الموقف سحبان المعروف بالفصاحة لأصابه الخرس ، ولما استطاع أن يبين .

وشوقى بهذا التقرير يعتذر عما قد يصادفه من تقصير بأنه أمام من اصطفاه الرحمن واختاره للقيام بتبليغ رسالته إلى الناس ، فالبدر بإشراقه وسموه لا يدانيه ، والبحر فى عطائه وخيره لا يجاريه ، والجبال الشاهقة تبدو ازاءه منخفضة ، والأنجم الزهر إلى جواره تبدو باهتة ، فإذا مشى المصطفى إلى الحرب رأينا الشدة والبأس الذى يتضاءل إلى جواره بأس الليوث ، والذى يجعل الأبطال الكماة يهفون إليه سراعا . مهما نالهم من عناء فى متابعته ... ولا عجب فى ذلك فتلك المحبة والهيبة من النعم التى ألقاها الله عليه ﷺ ، حتى لكأن وجهه ﷺ تحت غبار الحرب ـ فى إشراقه ـ بدر الدجى الذى يضىء فى كل الأحوال ، فكان فى غزوة بدر بدرا جلا بالنصر ظلام الشرك .

---

(١) أحمد : من أسمائه ﷺ ، يتسامى : يتعالى ، وشوقى فى تيمنه بموافقة اسمه لاسم رسول الله ﷺ ، يفعل ما فعله من قبله البارودى الذى وافق اسمه محمود أحد أسماء المصطفى ﷺ ، فقال : أم كيف يخذلنى من بعد تسميتى : باسم له فى سماء العرش محترم والبارودى وشوقى سبقهما البوصيرى إلى ذلك فى بردته حيث يقول : فإن لى ذمة منه بتسميتى محمداً ، وهو أوفى الخلق بالذمم .

(٢) مديحه حب : ناشىء من الحب .

(٣) المعارضة فى الشعر : المحاذاة فى الوزن والقافية والموضوع ، الصوب : المطر بقدر ما ينفع ولا يؤذى . العارض : ما اعترض فى الأفق فسده من سحاب أو جراد أو نحو ذلك ، والمراد هنا السحاب ، والعرم ـ بفتح فكسر ـ : السيل الذى لا يطاق .

(٤) الغابط : الذى يتمنى مثل ما للغير .

حتى ما يظنه الناس أمارة ضعف أو نقص ، كان فيك عنوان تكريم وتعظيم ؛ فإذا وصفك القرآن باليتم ، فليس ذلك إلا للتنبيه إلى ما تمتاز به من بين سائر الكائنات ، وإذا قدر الله عليك رزقك ، فليس ذلك إلا لأنك خيرت فاخترت الآخرة على الدنيا وزهرتها وما فيها ، ولم يكن هذا الاختيار منك عن عجلة فى الأمر ، أو سوء اختيار ؛ لأن اختيارك ــ أيا كان ــ هو اختيار الله .

وليس فى هذا وحده تميزك يا رسول الله ، فقد تميزت كذلك بين إخوانك أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم ، فكانت لك فيما جرى على يديك خصوصية إذا ما قورن بمثيله مما جرى على أيدى الأنبياء السابقين ، فإذا كان عيسى عليه السلام دعا ميتا فقام بإذن الله حيا ، فقد دعوت أنت أجيالا بعد أجيال قضى عليها الجهل فانبعثت بعون الله تعالى قوية واعية بعد أن تخلصت مما ران عليها من جهل .. وذلك قوله :

هذا مقــام من الــرحمن مقتــبس	**ترمــى مهابتــه سَحبــانَ بالبكــم[1]**
البــــدر دونك فى حسن وفى شرف	**والبحــــــر دونك فى خير وفى كَرم**
شم الجبــــال إذا طاولتها انخفضت	**والأنجم الزهــــــر ماواسمتها تَسِم[2]**
واللــيث دونك بأسا عنــد وثبتـــه	**إذا مشيت إلى شاكى السلاح كمى[3]**
تهفــو إلــيك ــ وإن أدمــيت حبتها	**فى الحرب ــ أفئدة الأبطال والبُهُــم[4]**
محبـــة الله ألقاهــــا ، وهيبتَـــــه	**على ابـن آمنــة ، فى كل مصطــدم[5]**
كأن وجـهك تحت النقـع بدر دجـــى	**يضىء ملــــتثما أو غير ملــــتثم[6]**
بدر تطلـــــع فى بدر ، فغرتــــــه	**كغـرة النصر ، تجلـو داجىَ الظلـم[7]**
ذكـرتَ باليتم ــ فى القرآن ــ تكرمـة	**وقيمــة اللؤلــؤ المكنـون فى اليتُــم**
الله قسم بين النــــاس رزقهـــــم	**وأنت خيرت فى الأرزاق والـــقِسم**
إن قلت ــ فى الأمر ــ : لا ، أو قلت فيه : نعم	**فخيرة الله فى (لا) منك أو (نعم)**
أخـوك عيسى دعـا ميتــا ، فقــام له	**وأنت أحيــيت أجيــالا من الــرمم[8]**
والجهـل موت ، فإن أوتيت معجــزة	**فابعث من الجهل ، أو فابعث من الرجم[9]**

(1) سحبان ــ بفتح فسكون ــ : هو سحبان وائل من بنى باهلة ، كان يضرب بفصاحته المثل . والبكم ــ بالتحريك ــ : الخرس .

(2) واسمه فى الحسن فوسمه : غلبه فيه .

(3) الليث : الأسد ، والكمى : لابس السلاح .

(4) هفا إليه : أسرع نحوه ، والمراد هنا : شدة ميل القلوب له ، حبات القلوب : سويداؤها ، الأفئدة ــ جمع الفؤاد ــ : العقل أو القلب .

(5) المصطدم : الاصطدام .

(6) النقع : غبار الحرب الملتثم : الذى يضع على وجهه اللثام ، وهو النقاب .

(7) بدر الثانية : موضع دارت فيه الغزوة المشهورة ، داجى الظلم : شديد الظلام .

(8) الرمم ــ جمع الرمة ــ : العظام البالية .

(9) الرجم ــ بالتحريك ــ : القبر .

محمد صلى الله عليه وسلم داعى السلام ورائد الحضارة :

والحديث عن مواجهته ﷺ موت الناس بالجهل ، ليبعث فيهم حياة العزة والكرامة من جديد .. يفرض على الشاعر الحديث عن الحرب التى ووجه بها محمد ﷺ من القريب والبعيد ، سعيا إلى إجهاض الدعوة ، وإيقاف مدها المستمر ، واضطراره ﷺ إلى الحرب إقرارا للسلام الذى جاء به ومن أجله .. ولكن خصوم الحق حاولوا أن يشوهوا الصورة الناضرة ، فأذاعوا أن محمداً ﷺ نهج غير نهج الأنبياء السابقين ؛ فقد جاء غازياً محارباً ، بينما رسل الله السابقون إنما بعثوا لإحياء النفوس ، وليس للقتل وسفك الدماء ، والحقيقة أنهم ما أذاعوا مثل هذا إلا عن جهل من بعضهم بحقيقتك يا رسول الله ، وقصد من بعض آخر إلى تضليل الناس وفتنتهم ، ومحاولة من طائفة ثالثة أن يزيفوا الحقائق بما أوتوه من قدرة فى الجدل القائم على غير أساس ، لأن هؤلاء وأولئك لو أنصفوا أنفسهم وأنصفوا الحقيقة لتنبهوا إلى أنك قد توسلت بالقلم والرأى قبل أن تتوسل فى دعوتك بالسيف وتوابعه ، فلم تستعمل السيف إلا مع الحمقى والجهال الذين أرادوا أن يقفوا فى وجه المقبلين على الإسلام ، والاستجابة لك ؛ لأن الشر إذا قوبل بالخير ازداد طمع الأشرار ، وتفاقم سوؤهم كما تقرر ذلك المسيحية التى التزم فيها بالسماحة ، فأذيق أهلها المر ، وعوملوا بالقسوة والظلم الثائر ، وظل أهل الشرك يطاردون أهلها بالإيذاء ، ويوسعونهم قتالا وعدوانا ، وما ردهم عن غيهم هذا إلا طائفة قاموا لحمايتها ، ونصرة إخوانهم فاضطروا – كما اضطررت – إلى أن يشهروا سيوفهم فى وجه المعتدين الظالمين ، ولولا ذلك منهم لما استطاعت أن تنشر ما عرفت به من رفق ورحمة ، بل لقد تعرض عيسى عليه السلام ، نفسه لأقسى ألوان الكيد والظلم ، حتى دبروا خطة لقتله عليه السلام لولا عناية الله به وحفظه إياه ، الذى قلب عليهم تدبيرهم ، فصلبوا عَدُوَّ عيسى وهم يظنون أنه عيسى ؛ إذ وجدوا فيه شبيه عيسى ، ليكون ذلك من الله تعالى عقابا لهذا الخائن ماثلا شاخصا ينبه كل من تسول له نفسه أن يخون رسل الله وجنده ، بينما عيسى عليه السلام أخو محمد ﷺ فى الرسالة فوق السماء الدنيا محفوظا من أذى الجهال ، يلقى كل تكريم واحترام .

لقد جئت يا محمد معلما ، فنال الناس على يديك من العلم ما نهض بهم فى كل ميادين الحياة ، حتى نظم الحرب والقتال ، وما يجب أن يسود المتقاتلين من أخلاق وقيم ، دعوت المسلمين لجهاد يردون به عن أنفسهم الظلم والضيم ، وينالون به السؤدد والريادة ، كما يقرر بذلك واقع الحياة ، فلولا الحروب لما استقرت الدول والممالك ، ولعاث المفسدون فى الأرض فسادا ، على ما تصرح به تلك الأدلة والشواهد الماثلة والمتوالية فى كل مكان وفى كل زمان ، حتى يسود العدل ، وينتشر العلم ، فالحرب ليست مذمومة لذاتها ، ولكن الذم ينشأ من سوء مقاصدها ، والدوافع إليها ، بخلاف ما إذا كان الدافع إليها قهر الشر ، واستئصال الجهل ، وفى ذلك قال شوقى :

قالـــوا غزوت ، ورسل الله ما بُعثـــوا ... لقتـــل نفس ، ولا جاءوا لسفك دم
جهل ، وتضليـل أحلام ، وسفسطـة ؛ ... فتحت بالسيف ، بعـد الفتـح بالقلـم[(١)]
لما أتى لك عفــــواً كل ذى حسب ... تكفَّل السيف بالجهـــال والعمـــم[(٢)]
والشر إن تلقـــــه بالخير ضقت به ... ذرعـا ، وإن تلقــه بالشر ينــحسم[(٣)]
سل المسيحيـــة الغــــراء كم شربت ... بالصاب من شهوات الظـالم الغَلِـم[(٤)]
طريــدة الشرك ، يؤذيها ويوسعهـــا ... فى كل حين قتـــالاً ساطــــع الحدم[(٥)]
لولا حماة لها هبــــــوا لنصرتها ... بالسيف ما انتفعت بالرفق والرُّحُـم[(٦)]
لولا مكـــان عيسى عنـــد مرسلـــه ... وحرمة وجبت للروح فى القـــدم[(٧)]
لَسُمِّر البـدن الطهـــر الشريـــف على ... لوحين لم يخش مؤذيـــــه ولم يجم[(٨)]
جل المسيـــح ، وذاق الصَّلبَ شانئُـــه ... إن العقـاب بقـدر الـذنب والجُـرم[(٩)]
أخـــو النبـــى ، وروح الله فى نزل ... فوق السمـاء ، ودون العـرش محتـــرم
علـــمتهم كل ذى شىء يجهلـــون به ... حتى القتـالَ ، ومـا فيـه من الـذمم[(١٠)]
دعــــوتهم لجهـــادٍ فيـــه سؤددهـــم ... والحرب أسُّ نظام الكـــون والأمم[(١١)]
لولاه لم تر للـــــدُّوَلات فى زمـــن ... ما طَال من عمد ، أو قرَّ من دُعُـم[(١٢)]

---

(١) الأحلام ـ جمع الحلم بكسر الحاء ـ : العقل ، السفسطة : قياس مركب من الوهميات ، والغرض منه إفحام الخصم وإسكاته .

(٢) جاء عفواً : بغير مسألة أو طلب . الحسب ـ بالتحريك ـ : ما يعده المرء من مناقبه أو شرف آبائه . العمم ـ بالتحريك ـ : اسم جمع للعامة .

(٣) ينحسم : ينقطع .

(٤) الصاب : شجر مر له عصارة بيضاء كاللبن بالغة المرارة إذا أصابت العين أتلفتها . الغلم ـ بفتح فكسر ـ الشديد الثائر .

(٥) الساطع : المنتشر والمرتفع ، الحدم ـ بالتحريك ـ : شدة احتراق النار .

(٦) الرحم ـ بضمتين ـ : الرقة والمغفرة والتعطف .

(٧) المكان : المكانة والمنزلة ، الحرمة ـ بضم فسكون ـ : المهابة ، وما لا يحل انتهاكه من ذمة أو حق أو صحبة أو نحو ذلك . وجبت : ثبتت له من القدم .

(٨) سمر : جواب الشرط المتقدم فى البيت السابق والمراد : ثبت المسمار . الطهر : الطاهر ، اللوحان : الصليب الذى أعد له عليه السلام ، والمراد بالتسمير : الصلب ، لم يجم : لم يفزع .

(٩) جل المسيح : تنزه عما رماه به اليهود من الأكاذيب ، وعما زعموه من أنهم صلبوه ، إشارة إلى قوله تعالى : ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ الشانىء : المبغض ، الجرم ـ بضمتين ـ : الجرم بسكون الراء ، وحركت الراء اتباعاً لحركة الجيم قبلها .

(١٠) الذمم ـ جمع الذمة ـ : العهد والأمان والحق .

(١١) السؤدد ـ بضم فسكون فضم ـ : السيادة والمجد والشرف ، الأس : الأساس .

(١٢) الدولات ـ بفتح فسكون ـ جمع الدولة ، العمد ـ بضمتين ـ جمع العمود : القوام ، قر الشىء: ثبت، الدعم ـ بضمتين ـ جمع الدعام والدعامة : ما يسند به الشىء ، وعماد البيت ، وهى هنا كناية عما يستقيم به نظام الممالك ، ويرتفع به شأنها .

تلك الشواهد تترى كل آونة .. فى الأعصر الغر ، لا فى الأعصر الدهم[1] .

وحرصا من شوقى على دحض هذا الزعم الذى يروج له فى العصر الحديث خصوم الإسلام ، استثارة لغضب العامة من الناس ، وإظهارا للإسلام ولرسوله محمد ﷺ بالميل إلى سفك الدماء ، تقريرا منهم بأن الإسلام لا يقوم على الفطرة البشرية بدليل أنه لا ينتشر إلا بالحرب والرعب والتخويف ، ولولا ذلك ما انتشر ولا اعتنقه أحد .

حرصا من شوقى على دحض هذه الفرية .. واصل حديثه عن أهمية الحروب ، والحاجة إليها فى بعض الأحيان ، وقدم البرهان على ذلك من واقع الحياة ــ عموما ــ ومن واقع من اعتنقوا المسيحية دينا ، وشايعوا عيسى ، ودفعه هذا إلى أن يعقد مقارنة بين الحرب عند من يشايعون عيسى ومن يعتنقون الإسلام ، مشيرا إلى ما أعده المسيحيون اليوم من أسباب الدمار والفتك والإهلاك ، وما يشعلونه من حروب بقصد السيطرة والاستغلال ، حتى أصبحت الحرب والاستعداد لها شغلهم الشاغل ، فاستنزفوا كل الطاقات البارزة والكامنة لصنع آلات الحرب ، واختراع المزيد المهلك منها .. فى حين نرى أن أهل الإسلام المتهمين بالظلم وحب الحرب والقتال هم أهل السكينة والسلام ، حتى تكرر عدوان المسيحيين عليهم وعلى أرضهم ، دون جريرة أو ذنب .

ثم يعود شوقى إلى الحديث عن منهج رسول الله ﷺ فى الحرب ، فيقول له : إنك لم تقصر فى أى حال ، ولم يرهبك أمر ، فكلما ناجزك قوم الحرب ، نهضت لردعهم ومواجهتهم بأبطال من المسلمين كأنهم الأسود ، ومعك ومعهم عون الله تعالى بأسباب النصر ، ففى كل معركة كان يرفع لواءك وينضوى تحته من هؤلاء كل بطل مغوار ، باع نفسه لله ، راغب عن الحياة ليلقى الله مجاهدا ، وكله شوق لتحقيق النصر أو لنيل الشهادة ، حتى يبدو على جواده كالبرق الخاطف ، لا يرهب شيئا ، ولا يصده مانع ، حتى شغلوا عن متع الحياة ، وبدوا كالسيوف المثلومة من كثرة ما خاضوا الحروب ، وحتى ملأت الأرض أجساد الشهداء منهم الذين حافظوا على ما عاهدوا الله عليه .. فقال :

بالأمس مالت عروش ، واعتلت سرر ... لولا القذائف لم تثلم ولم تصم[2]

أشياع عيسى أعدوا كل قاصمة ... ولم نُعِدَّ سوى حالات منقصم[3]

مهما دعيتَ إلى الهيجاء قمتَ لها ... ترمى بأسد ، ويرمى الله بالرجم[4]

---

(١) جاءت الشواهد تترى : متواترة ، والشواهد ـ جمع الشاهد ـ : الدليل ، الآونة ـ جمع الأوان ـ : الحين ، الأعصر ـ جمع العصر : الدهر ، والزمن ينسب إلى ملك أو حدث ، الغر ـ جمع الأغر ـ : ذو الغرة ، وهى بياض فى الجبهة ، والمقصود : الأعصر التى ساد فيها العلم والعدل ، الدهم ـ بضمتين ـ : الدهم بسكون الهاء المحركة إتباعاً لحركة الدال : جمع الأدهم : المظلم لشيوع الجهل والظلم .

(٢) اعتلى : علا ، ثلم السيف : شقق فصار غير ماض ، وثلم الجدار : حدث فيه شق . وصمه : عابه .

(٣) القاصمة : الكاسرة ، ومنقصم : منكسر .

(٤) الهيجاء : الحرب ، الرجم ـ بالتحريك ـ : النجوم التى يرمى بها .

على لوائك منهم كل منتقـــــــم ... لله مستقتـــــل فى الله معتـــــزم (١)
مسبــــح للقـــــاء الله مضطـــــرم ... شوقا على سابح كالبرق مضطـــرم (٢)
لو صادف الدهر يبغى نُقْلةً فرمـــى ... بعزمـــه فى رحـــال الدهـــر لم يرم (٣)
بيض مفاليـــلُ من فعـــل الحروب بهم ... من أسْيُـف الله ، لا الهندية الخُـذُم (٤)
كم فى التراب إذا فتشت عن رجـــل ... من مات بالعهد ، أو من مات بالقسم (٥)

ومن الحديث عن الأسد الذين قاموا على لواء المصطفى ﷺ ، ملقين بأنفسهم فى الأهوال والمهالك غير عابئين بما يصيبهم فى سبيل الدفاع عن دين الله تعالى ، والحفاظ على ما عاهدوا الله عليه .. انتقل ليحدثنا عن هؤلاء الصفوة من صحابة رسول الله ﷺ ورضى الله تعالى عنهم ، فذكر أن هؤلاء الرجال ما نالوا هذه الفضائل وتلك الدرجة إلا بما بذلوا من الجهد والتضحية فى سبيل نصرة الحق ، ونشر دين الله ، ولولا ما قدموه لكانوا كغيرهم من الناس ؛ فبالمواهب والفعال يتفاوت الناس فى القيم والأقدار ، ولقد استطعت يا رسول الله بما قدمت لهؤلاء من شرائع وقيم أن تفجر فيهم من القوى ما استطاعوا به أن يحوزوا ذلك الفخار ، فقد كانت تلك الشريعة نورا اجتذب أفئدة هؤلاء الرجال ، ومنحهم الاستقامة والهدى ، فتمكنت بهم من تحضير بداة الصحراء ، واجتياز عقبات الجهل الذى طالما أناخ بأقطارها ، فجعل من أهلها مصلحين عاملين يبثون الإصلاح والنور فى شتى مناحى الدنيا ، حتى أقاموا دولتهم العظمى على أنقاض ما كان سائدا من جهل وظلم وطغيان ، فقادوا الناس فى طريق واضح إلى الفلاح ، وشيدوا على العدل ركنا قويا ، نالوا به سعادة الدنيا والآخرة ، وجمعوا الناس على كلمة التوحيد فى ظلال رضوان الله تعالى . وذلك قوله :

لولا مواهب فى بعض الأنـــــام لما ... تفاوت الناس فى الأقـــدار والـــقيم (٦)
شريعـــة لك فَجَّـــرت العقـــــول بها ... عن زاخر بصنوف العلـــم ملتطـــم (٧)
يلـــوح حول سنا التوحيـــد جوهرهـــا ... كالحَلْى للسيـــف ، أو كالـــوشى للعلم (٨)
غراء حامت عليها أنـــفس ونُهـــىً ... ومـــن يجد سلسلا من حكمـــة يحم (٩)

---

(١) اللواء : العلم ، المعتزم : الماضى فى الأمر لا يثنيه شىء .
(٢) الاضطرام : توقد النار وتأججها ، والسابح : الجواد .
(٣) يبغى الشىء : يريده ، الرحال ـ جمع الرحل بفتح فسكون ـ : كل شىء يعد للرحيل من متاع وغيره ، لم يرم : لم يتحول من رام مكانه يريم : برح وفارق .
(٤) المفاليل ـ جمع المفلول ـ : المثلوم ، على التشبيه بالسيوف التى تثلم وتتشقق من كثرة الضرب . الهندية : وصف للسيوف التى تطبع فى الهند ، الخذم ـ بضمتين ـ جمع خذم ـ بفتح فكسر ـ : السيف الماضى ، والبيض : السيوف . شبه بها الصحابة .
(٥) مات بالعهد : محافظة على ما عاهد الله عليه .
(٦) المواهب ـ جمع الموهبة ـ : العطاء بلا عوض .
(٧) الزاخر : الممتلىء ، الملتظم : الذى بلغت كثرته درجة جعلته كالبحر تضرب أمواجه بعضها بعضاً .
(٨) السنا : الضوء ، جوهر كل شىء : ما خلقت عليه جبلته ، الحلى ـ بفتح فسكون ـ : ما يزين به ، الوشى : النقش .
(٩) حامت : عطفت ومالت ، النهى ـ جمع النهية ـ : العقل ، السلسل : العذب .

نور السبيـــل يساس العـــالمون بها ... تكفلـت بشبــاب الدهــر والهرَم[1]

يجرى الزمان وأحكـام الزمـــان على ... حكـم لها نافـذ فى الخلــق مرتسم[2]

لما اعتــلت دولـــة الإسلام واتسعت ... مشت ممالكــه فى نورهـــا التمَّـــمَ[3]

وعلَّــمتْ أمـــة بالقفـــر نازلـــة ... رعْـىَ القياصر بعد الشاء والنعـم[4]

كم شيَّـــد المصلحـــون العاملـــون بها ... فى الشرق والغرب ملكا باذخ العظم[5]

للعلم والعدل والتمديــن ما عزمـــوا ... من الأمور ، وما شدوا من الحُزم[6]

سرعـــان ما فتحـــوا الدنيـــا لملتهم ... وأنهلـــوا النـــاس من سلسالها الشبم[7]

ساروا عليها هداة النـــاس فهـــى بهم ... إلى الفلاح طريــق واضح العِظـــم[8]

لا يهدم الدهـــر ركنـــا شاد عدلهم ... وحـــائط البغـــى إن تلمسه ينهــدم[9]

نالوا السعادة فى الدارين واجتمعوا ... على عميم من الرضوان مقــتسم[10]

ويقوده الحديث عن جهاد الصحابة بعد أن حولهم الإسلام إلى رواد حضارة ، ازدهرت بهم الدنيا .. ليقدم لنا صورة عن تلك الدولة الجديدة التى نشأت فى ظل الإسلام ، وقامت دعائمها على هذا الهدى التشريعى المستقيم .

وكانت وسيلة شوقى فى تقديم تلك الصورة ، عقد موازنة بين تلك الدولة من جهة ، وبين ما قامت على أنقاضه من دول ذاعت شهرتها ، فنبه ابتداء إلى أن ما اشتهرت به هذه الدول إن هو فى حقيقة الأمر إلا عيب تؤخذ به ، وكان من عوامل الإسراع بنهايتها ، فإذا نظر إلى ما كانت عليه بغداد حاضرة الخلافة الاسلامية العباسية ، وجدنا من أسباب الحضارة والتقدم ما يجعل روما وأثينا حاضرتى المملكتين الأوربيتين الشهيرتين خاملتين لا قيمة لها ، كما يظهر ما انطوى عليه ملك كسرى من ظلم وبغى على الرغم مما كان يدل به كسرى ويتيه على العوالم المجاورة من

---

(١) السبيل : الطريق ، شباب الدهر والهرم : يقصد أوله وآخره .

(٢) المرتسم : الذى لا يتخطى ما التزمه .

(٣) اعلنت : علت ، التمم ــ بالتحريك : التام الخلق والأوصاف .

(٤) القفر : الخلاء من الأرض ، القياصر ــ جمع القيصر ــ لقب لملوك الروم ، النعم ، بالتحريك ــ جمع الأنعام ــ : المال السائم أو الإبل خاصة .

(٥) الباذخ : العالى علوا ظاهراً .

(٦) مدنه ــ بالتضعيف ــ : جعله يعيش عيشة أهل المدن ويأخذ بأسباب الحضارة ، الحزم ــ بضمتين ــ جمع حزام ، كناية عن الأخذ بالتقشف .

(٧) سرعان ــ بفتح السين وضمها وكسرها مع سكون الراء ــ : اسم فعل ، يستعمل خبراً محضاً ، وخبراً فيه معنى التعجب : يعنى ما أسرعه ، أنهل الناس : سقاهم حتى رووا ، السلسال : الماء العذب ، الشبم ــ بفتح فكسر ــ : البارد .

(٨) ساروا عليها : أخذوا بها والتزموا أحكامها ، هداة الناس : أى حال كونهم هادين للناس ، فهى : أى الملة .

(٩) الركن : أحد الجوانب التى يقوم بها الشىء ، شاد عدلهم : أى شاده عدلهم .

(١٠) العميم : كل ما اجتمع وكثر .

مظاهر لا تتجاوز القشرة الخارجية ، وكذلك كان حال مصر فى ظلال الفراعنة الذين اعتزوا بتشييد المقابر والمعابد ، مغفلين الأهم وهو النهوض بالعدل .

لقد أذاعوا أن روما كانت موطن التشريع ، ولو نظروا إلى ما احتوته بغداد فى ظل الإسلام لتبينوا أنهم يعتزون بسراب لا يتجاوز الشكل الخادع ؛ فالفارق شاسع واضح بين روما ودار السلام .

وليست الفوارق فى التشريعات والعلوم فحسب ، بل إنها فوارق بينة كذلك فى طبائع القادة والزعماء ، فأنى لهم بمن يماثل الرشيد والمأمون والمعتصم ، وغيرهم ممن سارت بذكرهم ركبان التاريخ ، حيث أعدوا الكتائب لإقرار السلام وإشاعته فى شتى بقاع الأرض ، وهيأوا مجالس العلم والمعرفة ، فحقق العلماء فى كنفهم ما لا يدانى ، حتى المشتغلين بالعلم على أن يطأطئوا الرءوس تسليما وهيبة ، ودبروا أسباب الرغد والنعيم ، فوفروا الأرزاق لكل كائن فوق الأرض ، وفى هذا قال :

دع عنك روما وآثينا ، وما حوتا	كلُّ اليواقيت فى بغداد ، والتُّوَم [1]
وخل كسرى وإيوانا يُدل به	هوى على أثر النيران والأيُم [2]
واترك رعمسيس ، إن الملك مظهره	فى نهضة العدل ، لا فى نهضة الهرم [3]
دار الشرائع روما ، كلما ذكرت	دار السلام لها ألقت يد السلم [4]
ما ضارعتها بيانا عند ملتأم	ولا حكتها قضاء عند مختصم [5]
ولا احتوت فى طراز من قياصرها	على رشيد ، ومأمون ، ومعتصم [6]
من الذين إذا سارت كتائبهم	تصرفوا بحدود الأرض والتُّخُم [7]
ويجلسون إلى علم ، ومعرفة	فلا يدانون فى عقل ولا فَهَم [8]

(١) روما : قاعدة مملكة إيطاليا اليوم ، وهى سابقاً قاعدة لمملكة الرومان ، وأثينا : قاعدة مملكة اليونان ، التوم ـ بضم ففتح ـ جمع التومة : الحبة من الفضة تعمل على شكل الدرة .

(٢) كسرى : لقب لكل من يلى ملك الفرس ، والإيوان مقر العرش ، أدل بالشىء : تجرأ به على الآخرين ، هوى الإيوان : سقط ، على أثر النيران : على أثر خمودها ليلة مولده ﷺ ، الأيم ـ بضمتين ـ جمع الإيام ـ بكسر الهمزة ـ : الدخان .

(٣) الهرم : الأهرام ، ورعمسيس : اسم بعض الفراعنة ، رمز به الشاعر إلى من اغتروا فى نهضتهم بالأهرام ، وإن كان ليس منهم .

(٤) دار السلام : بغداد ، السلم ـ بالتحريك ـ : التسليم .

(٥) ملتأم : مجتمع ، ومختصم : اختصام .

(٦) الطراز : علم الثياب ، والجيد من كل شىء ، الرشيد : هارون ، المأمون : ابن هارون الرشيد ، والمعتصم : ابن هارون كذلك ، ولى الخلافة بعد موت المأمون .

(٧) الكتائب ـ جمع الكتيبة ـ : الجيش : والتخم ـ بضمتين ـ جمع تخوم : الفواصل بين الأرضين من معالم وحدود .

(٨) داناه : قاربه .

يطأطــىء العلمـــاء الهام إن نبسوا ... من هيبة العلم لا من هيبة الحُكُم [١]
ويمطــرون ، فمـــا بالأرض من محل ... ولا بمن بات فوق الأرض من عُدُم [٢]

ولكن شوقيا ـ بعد ذلك العرض المصور ـ يخشى أن يؤخذ ذلك منه على أنه موازنة منه بين صحابة رسول الله ﷺ ، وبين هؤلاء الملوك ، فيصرح بتحفظه على ذلك ، فى قوله : إن الخلفاء الراشدين أعظم قدرا من أن يوازنوا بأحد غيرهم ، بل إن ملوك الأرض جميعا لا تقاس بهم ، فمن هذا الذى يعدل الفاروق رضى الله تعالى عنه فى عدله ، أو يضارع عمر بن عبد العزيز فى خشوعه واحتشامه ، أو يوازن بالإمام على كرم الله وجهه فى صولاته الحربية ، وفى وضوح آرائه ، ودقة فتاواه ، وسعة علمه ، ونصوع بيانه ، أو يشبه عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه فى حنوه على القرآن الكريم ، وحرصه عليه ، حرصا دفعه إلى النهوض بجمعه ، حتى يحميه من التشتت والضياع ، ومع ماله من فضل لم يسلم من الأحداث الجسام التى أصابت كبد الإسلام بجرحين غائرين تمثلا فى مقتل عثمان نفسه ، وإسقاط المصحف من يديه ودمه يسيل عليه .

وأما أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فما كان بلاؤه بأقل من بلاء أصحابه ، فبالإضافة إلى ما قدمه من جلائل الأعمال ... لا يمكن أن ينسى موقفه الحازم فى مواجهة ما حاط بالإسلام من محن أضلت أحلام العقلاء ، حتى الفاروق رضى الله تعالى عنه ، فقد ذهل عن الصواب حين فتن المسلمون بموت المصطفى ﷺ كما ذهل جمهور المسلمين ، حتى نهض الصديق بكلماته الحاسمة التى ردت المسلمين إلى الرشد ، أوردت إليهم رشدهم ، فواجهوا فراق الحبيب بالتسليم لما غاب عنهم فى لحظة الذهول من أن محمدا ﷺ رسول كغيره من الرسل ، وليس فوق عوارض البشرية !

حيث يقول :

خلائــف الله ، جلُّــوا عن موازنــة ... فلا تقــيسَنَّ أمــلاك الــورى بهم [٣]
من فى البريــة كالفــاروق معدلـــة ... وكابن عبد العزيز الخاشع الحشم [٤]
وكالإمــــام إذا ما فض مزدحما ... بمدمــع فى مآقى القــوم مزدحـــم [٥]
الزاخر العــذب فى علــم وفى أدب ... والناصر الندب فى حرب وفى سلم [٦]

---

(١) نبس ـ بالتحريك ـ : تحركت شفتاه بشىء ، الحكم ـ بضم فسكون ـ : السلطان ، وحركت الكاف تبعاً لحركة الحاء .

(٢) المحل ـ بالتحريك ـ : الجدب ، العدم ، ـ بضم فسكون ـ : الفقر ، وحركت الدال تبعاً لحركة العين .

(٣) خلائف الله : عام فى الخلفاء ، ثم خصص بمن ذكر بعد ذلك .

(٤) المعدلة : العدل ، الحشم : الخجل .

(٥) الإمام : على بن أبى طالب ، فض الشىء : فرقة ، المزدحم : تزاحم القوم بعضهم مع بعض ، المدمع ، مآقى العيون : أطرافها مما يلى الأنوف ، وهى مجارى الدموع .

(٦) الرجل الندب : السريع الخفيف عند الحاجة ، الظريف النجيب .

أو كابن عفان ، والقرآن فى يده ... يحنو عليه كما تحنو على الفُطُم [1]
ويجمع الآى ترتيبا ، وينظمها ... عقدا بجيد الليالى غير منفصم [2]
جرحان فى كبد الإسلام ، ما التأما ... جُرْح الشهيد ، وجرح بالكتاب دُمى [3]
وما بلاء أبى بكر بمتهم ... بعد الجلائل فى الأفعال والخِدم [4]
بالحزم والعزم حاط الدين فى محن ... أضلت الحلم من كهل ومحتلم [5]
وحُدْن بالراشد الفاروق عن رشد ... فى الموت وهو يقين غير منبهم [6]
يجادل القوم مستلا مهنده ... فى أعظم الرسْل قدرا ، كيف لم يدم [7]
لا تعذلوه إذا طاف الذهول به ... مات الحبيب فضلَّ الصب عن رغم [8]

وشوقى — فى حديثه عن موقف المسلمين من وفاة الرسول ﷺ — يحسن استخدام هذا الحدث الجلل ، فكما توسل به إلى إبراز حزم أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، نراه يتوسل به إلى التنبيه على فراغه من إبراز تلك الشحنة الوجدانية المتدفقة مع إجتلاء سجايا المصطفى ﷺ من أفعاله وأقواله ، وتاريخه المجيد ، ومن آثاره الخالدة .

ابتهال ورجاء :

ومن هنا تسنح له الفرصة من جديد ليتجه بتوسلاته وابتهالاته إلى الله تعالى أن يصلى ويسلم على خير المرسلين محمد ﷺ الذى أحيا الليالى صلاةً ، وخشوعا وإشفاقا وتسبيحا لله ، محتملا فى سبيل ذلك ما يجلبه عليه السهد والسهر من ضر ، راضى النفس ، منشرح الصدر ، لا يشعر إلا براحة اللقاء بمن يحب ... ويشفع هذه الابتهالات برجائه ربه أن يصلى على آل محمد ﷺ الذين رضى الله عنهم باصطفاء محمد من بينهم ، وبأن يكونوا معه على الحادثات التى واجهته ﷺ فى أثناء قيامه بأمر الدعوة ... وأن يصلى على أصحابه الأربعة الذين تميزت صحبتهم بما جعلهم فى مقدمة المسلمين ؛ إذ كانوا أسرع تلبية لنداء رسول الله ﷺ كلما نزل بالمسلمين أمر جلل ، وكانوا معتزين دائما بالصبر فى مواجهة المحن .

---

(١) ابن عفان : عثمان بن عفان : الفطم — بضمتين — جمع فطيم : الصبى : المفصول عن الرضاع .

(٢) الآى : الآيات القرآنية ، العقد — بكسر فسكون — : خيط ينظم فيه خرز ونحوه يحيط بالعنق . الجيد : العنق .

(٣) يشير بالجرحين إلى مقتل عثمان — رضى الله تعالى عنه ، ووقوع المصحف من يده ، حيث سال دمه عليه ؛ فكأن هذان الحدثان جرحين أصابا كبد الإسلام ، إذ فتحا أبواب التجرؤ على الخلفاء ، والتجرؤ على كتاب الله .

(٤) البلاء : مبالغة الجهد فى الأمر ، الجلائل — جمع الجليل — : العظيم ، الخدم — بكسر ففتح — جمع الخدمة بكسر فسكون : القيام بحاجة المخدوم ، وهو هنا الإسلام والمسلمون .

(٥) يشير بالمحن التى حاط الدين منها إلى وفاة رسول ﷺ ، وما كان بعد وفاته ﷺ من ارتداد بعض العرب . الحلم : العقل : الكهل : من جاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين ، المحتلم : الصبى إذا بلغ مبلغ الرجال .

(٦) حاد الأمر به عن الصواب : مال به ، يشير بهذا البيت وما بعده إلى ما كان من عمر رضى الله عنه حين سمع بنبأ وفاة رسول الله ﷺ .

(٧) المهند : السيف المنسوب إلى الهند .

(٨) العذل — بالتحريك ، وبتسكين الذال — : اللوم ، الرغم — بالتحريك : الإكراه على العمل .

وينتهز الشاعر تلك الفرصة ــ أملا فى الاستجابة ــ فيبتهل إلى الله تعالى أن يلطف بالمسلمين الذين يعانون فى هذا الزمان أشد المعاناة من تكالب الأمم عليهم ، حتى أصابهم التخلف عن ركب الحياة ، متوسلا فى ابتهاله هذا برسول الله ﷺ ، راجيا من الله أن لا يزيد الكرب بالمسلمين ، وأن يتمم فضله فيمنح المسلمين من يقودهم إلى ما فيه رضا الله ، والنهوض من تلك الكبوة ، كما أحسن بالمسلمين فى البدء فأعز الأمة بخير المرسلين .. وفى ذلك يقول :

يارب صل وسلم ــ ما أردت ــ على ... نزيل عرشك ، خير الرسل كلهم(1)

محيى الليالى صلاةً ، لا يقطِّعها ... إلا بِدَمْعٍ ــ من الإشفاق ــ منسجم(2)

مسبحا لك جنح الليل ، محتملا ... ضُرا من السهد ، أو ضُرا من الورم(3)

رضيَّة نفسه ، لا تشتكى سأما ... وما مع الحب إن أخلصت من سأم(4)

وصل ربى على آل له نُخَب ... جعلت فيهم لواء البيت والحرم(5)

بيض الوجوه ، ووجه الدهر ذوحلك ... شم الأنوف ، وأنف الحادثات حمى(6)

واهد خير صلاة منك أربعة ... فى الصحب صحبتهم مرعية الحُرَم

الراكبين إذا نادى النبى بهم ... ما هال من جلل ، واشتد من عمم(7)

الصابرين ونفس الأرض واجفة ، ... الضاحكين إلى الأخطار والقُحَم(8)

يارب هبت شعوب من منيتها ... واستيقظت أمم من رقدة العدم(9)

سعد ونحس ، وملك أنت مالكه ... تديل من نعم فيه ، ومن نِقَم(10)

رأى قضاؤك فينا رأى حكمته ... أكرم بوجهك من قاض ومنتقم

فالطف لأجل رسول العالمين بنا ... ولا تزد قومه خسفا ، ولا تُسم(11)

يارب أحسنت بدء المسلمين به ... فتمم الفضل ، وامنح حسن مختتم (12)

---

(1) نزيل عرشك : كناية عن محمد ﷺ ، إشارة إلى ما كان ليلة المعراج .

(2) انسجم الدمع : انصب .

(3) جنح الليل ــ بضم أو كسر فسكون ــ : طائفة من الليل ، السهد : الأرق .

(4) الرضية : المطيعة والمحبة ، السأم ــ بالتحريك ــ : الملل .

(5) النخب ــ بضم ففتح ــ جمع النخبة : الرجل المختار .

(6) الحلك ــ بالتحريك ــ : شدة السواد : الشمم فى الأنف : ارتفاع القصبة وحسنها ، وهو هنا كناية عن الحمية وشرف النفس ، وأنف الحادثات حمى : كناية عن اشتداد الخطب واستفحال الأمر .

(7) هاله الأمر يهوله : أفزعه ، والجلل ــ بالتحريك ــ : الأمر العظيم ، والعمم ــ بالتحريك ــ : التام العام من كل أمر ، يقال : أمر عمم أى تام عام .

(8) الواجفة : المضطربة . القحم ــ بضم ففتح ــ جمع القحمة بضم القاف وسكون الحاء : الأمر العظيم الشاق لا يكاد يركبه أحد .

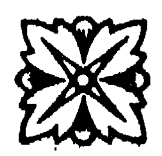
(9) هب من نومه : استيقظ ، المنية : الموت .

(10) أدال الشىء : جعله متداولاً .

(11) اللطف من قبل الله تعالى : التوفيق والعصمة . الخسف : الذل ، سامه ذلًا أو خسفاً أو هوانا : أراده عليه وأولاه إياه .

(12) الفضل : الإحسان ابتداء بلا علة ، المختتم : الختام .

فشوقى فى وقوفه أمام رسول الله ﷺ إنما استضاء بمن تقدمه فى هذه السبيل — خصوصا البوصيرى — فى بعض الجوانب الفنية ، ولكن رؤيته العقلية والوجدانية تختلف عن الآخرين ، بالقدر الذى يختلف به الإنسان عن الإنسان ، تأثرا بمشاعره الذاتية ، وثقافته البيئية ، بما تتضمنه من خصائص وسمات ؛ ولذلك تميز شوقى بمناقشة بعض أفكار المستشرقين ، والمبشرين الأوروبيين الصليبيين ومن احتذاهم فى أضاليلهم وافتراءاتهم على الإسلام ورسوله ﷺ ، كما رأيناه فى وقفته أمام زعم انتشار الإسلام بالسيف ، فقد رأى ما فى هذا الزعم من تضليل عن حقيقة الاسلام ، وما فيه من تشويه لصورته ﷺ ، وتميز بالاشارة الى ما واجه الإسلام والمسلمين من محن فى وقت مبكر ، كان من أشدها وفاة رسول الله ﷺ ، وارتداد بعض القبائل عن الإسلام وتعرض القرآن للضياع ، إيماء إلى ما قام به صحابة رسول الله ﷺ من جليل الأعمال فى مواجهة ذلك كله ، مما يكشف عن نجاحه ﷺ فى إعداد المسلمين الإعداد المنشود ، فكانوا من بعده الخلفاء الجديرين بأن يخلفوه ﷺ . كما تميز فى ختامه بتوجهه الجماعى فى ابتهاله ودعائه ، فلم يقصره على نفسه ، ولا غفران الذنوب للمسلمين ، ولكنه أومأ الى ما يعانيه المسلمون من ذل الاستعمار ، فرجا الله أن ينقذهم مما هم فيه . !



ـ ٣ ـ

محمد عبدالمطلب (١)

فى قصيدته

(ظل البردة)

لا شك أنه تشريف وتكريم يسعى إليه كل عاقل طموح من شعراء أمتنا ... أن يستطيع الوقوف بباب الرسول محمد ﷺ مادحاً ؛ إذ هو بذلك ينال من السمو والرفعة والمكانة ، ما يجعلهّ يدرك أنه مهدى موفق ـ فليس ذلك بميسور لكل شاعر ـ وأنه قد أدى بعضاً من

---

(١) محمد بن عبدالمطلب بن واصل بن بكر بن بخيت بن حارس بن قراع بن على بن أبى خير . ولد ببلدة (باصونه) إحدى قرى مديرية (الآن محافظة) سوهاج سنة ١٢٨٨ هـ سنة ١٨٧١م .

وجده السابع (أبو الخير) هو أبو واحدة من عشائر جهينة ـ إحدى بطون قضاعة ـ التى استوطن أكثرها محافظة سوهاج منذ فتح مصر .

وكان والد الشاعر رجلاً صالحاً ، متفقهاً ، متصوفاً خلوتياً ، ولما أتم الشاعر حفظ القرآن دون العاشرة ، أرسله أبوه إلى الأزهر فجاور نحو سبع سنين ، ثم انتظم فى سلك طلبة دار العلوم أربع سنين ، تلقى العلم فى أثنائها على كبار العلماء ، أمثال الشيخ حسن الطويل ، والشيخ محمود العالم ، والشيخ حسونة النواوى ، والشيخ سليمان العبد ، وغيرهم .

لم يقتصر فى قراءته القرآن الكريم على رواية حفص ، بل كان يتقن بعض الروايات الأخرى ، مما مكنه من اللغة وآدابها ، وأعانه على أن يكون فى شعره على مستوى شعراء القرن الثالث والرابع الهجرى ، لغة وصياغة . وكان رحمه الله شديد الحفاظ على شعائر الإسلام وآثاره ، عاملاً على نشر آدابه ، فكان عضواً فاعلاً فى جمعية المحافظة على القرآن الكريم ، وجمعية الشبان المسلمين ، وجمعية الهداية الإسلامية ، كما كان شديد العصبية لسلف الأمة الإسلامية ، وقوادها ، وعلمائها ، وشعرائها ، ومؤلفيها .

وبعد تخرجه فى دار العلوم عمل مدرساً بالمدارس الابتدائية (الإعدادية اليوم) بمدينة سوهاج ، فقضى بها بضع سنين ، ذاع فى أثنائها صيته ـ خطيباً وشاعراً ـ بين كبار الحكام والأعيان ، واختصه منهم بصداقته الشيخ عبد الرحمن قراعة . وتقلب بين التعليم الابتدائى والثانوى .

ثم اختير مدرساً بمدرسة القضاء الشرعى ، ومنها انتقل للتدريس فى دار العلوم .

ولما شبت ثورة الاستقلال خاض عبابها ، أديباً قوالاً ، وسياسياً فعالاً ، إلى أن لحق بالرفيق الأعلى سنة ١٣٥٠هـ الموافقة سنة ١٩٣١م أنظر ديوان عبد المطلب ص م إلى ص ع الطبعة الأولى طبع مطبعة الاعتماد ، بشرح وتصحيح إبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى .

واجب الوفاء ، والاعتراف بالفضل لمن بذل حياته وراحته ليصلنا على الأرض بالسماء ، فيمكننا من الرقى بأنفسنا ، والسمو بنوازعنا ، والسداد فى تفكيرنا ، والاستقامة فى سلوكنا ... صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه .

ولقد كان الشاعر محمد عبد المطلب واحداً من شعرائنا المعاصرين الذين شرفهم الشعر بأداء ذلك الواجب نحو الإنسانية ، فسار فى ظلال الإمام البوصيرى ، وحاول أن يحاذيه ، فى تقديم صورة للنبى ﷺ ، تعكس ما قام بنفسه ـ عقلياً ووجدانياً وتاريخياً ـ من حياته ﷺ وسجاياه ، وسلوكياته .. على مدى ثلاثة وعشرين ومائة بيت من الشعر .

وعبد المطلب إذا قرر أن قصيدته تلك هى ظل للبردة ، فهو ـ فيما أرى ـ لم يقصد أن ينفى عن نفسه التأثر بغير البوصيرى ، ولكنه قصد أن ينبه إلى أن أثر البردة فيه أبلغ وأوضح ، وإن كان لغيره ممن سبقه إلى هذا الميدان نفسه آثارهم ..!

وعبد المطلب فى قصيدته التزم المسار التاريخى فى تصوير حياته ﷺ على وجه العموم ، تاركاً للفيض الوجدانى المجال بين الفينة والفينة ، يتخلل التنقلات التاريخية ، فجاءت القصيدة نسيجاً سداه التاريخ ولحمته الوجدان .

وعبد المطلب ـ فى رحلته تلك ـ كان يتحرك وعيناه مسلطتان على واقع المسلمين أكثر من سابقيه ؛ ولذلك ـ فيما أرى ـ لم يطل نفسه الشعرى فى مقدمته ، كما كان أوضح اتصالاً فيها بموضوعه ومقاصده ؛ فقد بدأها بحديث نفسى عن أشواقه التى جاشت بها مشاعره ، وحركت نفسه بعد أن أسكنها ما نزل به من الشيب والهرم ؛ منبهاً إلى أنها أشواق من نوع آخر ، غير ذلك النوع المعهود مع نزوات الشباب ؛ فهى أشواق حركتها مؤثرات وافدة من أرض نجد إلى أرض مصر ، تهفو إليها نفس كل مؤمن لاشتمالها على ريح المصطفى ﷺ ، إذ يقول :

أغرى بك الشوق ـ بعد الشيب والهرم ـ سارٍ ، طوى البيد ، من نجد إلى الهرم[1]
يا سارى الطيف ، يجتاب الظلام إلى جفن مع النجم لم يهدأ ولم ينم[2]
يغريه بالدمع حادٍ بات مرتجزا يحدو المطى لأجراع بذى سلم[3]
إذا خفا البرق أذكى فى جوانبه نارا تؤججها الذكرى بلا ضرم[4]

---

(١) أغراه بكذا : حرضه عليه ، طوى الطريق : قطعه ، البيد ـ جمع البيداء ـ : الصحراء .

(٢) اجتاب الظلام : خرقه واجتازه .

(٣) المرتجز : الذى يقول الأراجيز ، وهى القصائد من بحر الرجز ، الأجراع ـ جمع الأجرع ـ : الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل ، وذو سلم : واد ينحدر على الذنائب .

(٤) خفا البرق : لمع ، أذكى النار : أوقدها ، أجج النار : ألهبها ، الضرم ـ بالتحريك ـ : الاشتعال .

فالشاعر فى تلك المقدمة التشبيبية يدور حول موضوعه الأصيل ؛ إذ يكشف لنا أن أشواقه ليست موجهة إلى امرأة قد يرمز بها إلى ما يريد ، ولكنها موجهة إلى الأرض التى نشأ فيها حبيبه الحقيق بأضعاف تلك الأشواق ، ﷺ ، والتى كانت ميدان دعوته وما صاحبها من صراع محتدم بينه ﷺ وبين مشركى قومه ، فتضوعت الأرض كلها بنسائم من أنفاسه ، نفحتها من روحه ﷺ ما يذكر به فى كل حين .

والشاعر ــ كما نرى ــ قد أعجلته شدة الشوق إلى المصطفى ﷺ ، عن منهج سابقيه فى المقدمات التشبيبية الذى يلتزم فيه الطول ، والرمز إلى مقصوده باسم نسائى يجعله مثار تلك الأشواق ؛ فكانت تلك الصراحة والوضوح من أول الأمر ، من غير حاجة إلى الإيماء والإشارة .!

الشكوى مما آل إليه حال المسلمين :

ومن هنا هجم الشاعر ــ بعد أن كشف عن أشواقه إلى أرض المصطفى ﷺ ــ على موضوعه ؛ فخلص إلى شكواه مما وصل إليه حاله وحال المسلمين جميعاً بعد أن نزلت بهم النوب ، وبعد أن ضل الطريق من أقدامهم حين ابتعدوا عن نهج الرسول ﷺ ، فأخذ يحث البرق على أن يحكى آلام الشاعر ، ويصور ما يعانيه من شوق إليه ، ويناشد ريح الصبا أن تهب عليه بما يريحه بعد أن أفقده إياه الفراق ، ويبسط لساكنى البان ما أصابه به النوى والبعد من ضيق وعنت لا يحتمله الصبر ، وتنوء به الهمم ؛ فقد تفاقمت النائبات حتى صارت فى افتراسها كالأسود ، وحتى جعلت من بنات آوى أسداً تخيف الأشبال فى منازلها ، وتجترىء عليها فى مواطنها ، فأنى نحن اليوم تحت وطأة هؤلاء المستعمرين مما كنا فيه يوم امتد سلطاننا ، وبلغنا من القوة درجة توحى بأن القضاء يجرى وفق مشيئتنا . فكان قوله :

يا برق مالك لا تحكى جوى كبدى ... إذا تألقْتَ ليــــلا فى نَدِيِّهم ؟![1]
ويا صَبا روِّحى ، روِّحى ، فقد ذهبت ... بها النوى بعد عهد البان والعلم[2]
يا ساكنى البان ، طال البين فى غِيَرٍ ... أرْبت على الصبر فاستعصى على الهمم[3]
واستأسدتْ نوَبُ الأيام فاجترأت ... بنات آوى على الأشبال فى الأجم[4]
لله أيامَ كنا والوجود لنا ... يجرى القضاء بما شئنا على الأمم

---

(١) حكى الشىء حكاية : أتى بمثله ، وحكى عنه الحديث : نقله ، الندى ــ بفتح فكسر ــ مجلس القوم ومجتمعهم .

(٢) الصبا ــ بالفتح ــ : ريح مهبها من شرق الشمس إذا استوى الليل والنهار . روح عنه ــ بفتح الراء وتضعيف الواو ــ : أراحه ، وروحهم : ذهب إليهم فى الرواح ، النوى : البعد ، البان : ضرب من الشجر .

(٣) البين : الفراق ، الغير ــ بكسر ففتح ــ جمع الأغيار : أحوال الدهر وأحداثه المتغيرة . أربى على الشىء : زاد .

(٤) النوب ــ بضم ففتح ــ جمع النوبة بضم النون : النازلة أو المصيبة ، بنات آوى ــ جمع ابن آوى ــ : حيوان وحشى شبيه بالذئب ، الأجم ــ جمع الأجمة ــ : الشجر الكثير الملتف .

وذلك أن الله عز وجل هيأ لنا بهذا الدين الحنيف ، ما جعل لنا دولة تعلو كل الدول ، بدت بشائرها فى غرر الأجيال السالفة ، بما خلفت من آثار ، أشرق على الوجود نورها ، فبعث العالم من العدم تمهيداً لمقدم أبى القاسم طه ﷺ المبعوث من مضر إلى الناس جميعاً ، لينشر بينهم رحمة الله ، فى وقت اشتدت فيه حاجتهم إلى رحمته :

إذ يرفـــع الله بالـــدين الحنيف لنـــا	على الذرى دولة خفاقـــة العـــلم [1]
فى سَورة العـز والمجـد الذى سلفت	بِشْـرا به غـرر الأجيال فى القـدم [2]
مجـد بنـاه الذى فاض الوجـود بـه	نـوراً لـه قـامت الدنيـا من العـدم
طــه أبـو القاسـم المبعـوث من مضـر	إلى البريـة من عـرب ومن عجـم [3]

حال العالم قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم :

ومن هنا انطلق الشاعر يرسم صورة لما كان عليه العالم قبيل مبعث محمد ﷺ ، تكشف عن مدى حاجة الناس إليه من مشرق الأرض إلى مغربها ؛ بحيث يرى الناظر ما أصاب بلاد العالم من بلاء ، وما نزل من مصائب ، تفتك بالناس الذين أعماهم الضلال فلم يعرفوا طريق الخلاص ، فصاروا يخبطون فى الأرض خبط عشواء ، وأصبحوا هائمين على وجوههم كأنهم الإبل العطاش تسعى بحثاً عن الماء ، ولا راعى لها يرعاها أو يقودها ، فقدوا العقل المتزن ، فاجتذبتهم الأهواء ، واستبدت بهم النحل المختلفة التى لا تقوم على أساس ثابت من عقل أو روية ؛ لأنهم أخطأوا القصد ، ففترستهم الأهواء التى أوردتهم ــ على ظمأ ــ موارد التهلكة ، بما تضمه من أسباب الضلال ، والاختلال ، وتفرقوا ــ بذلك ــ شيعاً ، يستهوى كل شيعة مذهب من مذاهب الكفر ، فلم يجنوا من وراء ذلك إلا الخزى والانقسام ، والتشتت ؛ فهذا يرى الأفلاك على غير حقيقتها ، حتى ينخدع فى قوتها وسلطانها ، فيراها إلٰها يخلص له العبادة ، وذاك تفتنه النار بسطوتها وآثارها فيخصها بالعبادة ، وآخر يستهويه كائن ضعيف لا يحير جواباً من شخص أو صنم ، ولكن العمى يبرزه له فى صورة إله ، فيسعى إليه بالعبادة ، ويسلم النفس بالطاعة لمن يقومون بأمره من السدنة .

وكما انقسم الناس هذا الانقسام المذهبى بحثاً عن المعتقد ، انقسموا كذلك انقساماً قبلياً واجتماعياً ، فكانوا قبائل وشعوباً يسيطر على كل منها التعصب الذى لا ترى فى ظله جديراً بالحياة والسيادة سواها ، مما أغفلها عن وحدة الأصل ، وأذهلها عن روابط الأخوة ، ووشائج القربى ، وعلائق الأرحام ، وانقسم الشعب الواحد ، أو القبيلة الواحدة ــ بتأثير هذا التعصب الضّالّ ــ إلى سوقة تبذل كل الجهد فى سبيل الحصول على الضرورى من أسباب العيش ، وملوك

(١) الحنيف : المستقيم الذى لا عوج فيه ، الذرى ــ جمع الذروة ــ : أعلا الشىء .

(٢) السورة ــ بفتح فسكون ــ : الوثبة ، سورة المجد : أثره وعلامته ، وسورة الرجل أو السلطان : سطوته .

(٣) مضر ــ بضم ففتح ــ : أحد أجداد الرسول ﷺ ، وبه اشتهرت قريش ، البرية : الخلق .

يتعمون بكل شيء ، فحال بينهما ما حال بين سباع الجو والنعم ؛ فبينما يستمتع الملوك فوق عروشهم بكل أسباب الرخاء والنعيم ، يقوم السوقة بكل أعمال الخدمة والحراسة والقتال ؛ تجد الصورة واحدة هنا وهناك ، فكما تجد القياصرة فى بصرى يستعبدون الروم ، تجد الأكاسرة فى المدائن تستهلك العجم .

وكان من أثر هذا الانقسام الاجتماعى أن عمل كل على إبقاء سيادته وتسلطه ، فلم يسمح لواحد أن يلجأ إلى العقل فى التقسيم الاجتماعى ، وإلا أطاح السيف عنقه ، ولم يبح لأحد أن يبدى ضجره مما يعانيه ، ويتطلع إلى العدل فى الحكم ، وإلا سامه السادة الردى ، وأوقعوا به ألوان العذاب .

ولم يكن هذا مقصوراً على الفرس والروم ، فقد كان العرب الجاهليون ، مثل هؤلاء وأولئك ، تسودهم الأحقاد ، وتشتعل بينهم نيران العدواة والبغضاء ، ولا أدل على ذلك مما كان بين القبائل المختلفة من حروب وغارات ، فأينما سار الفرد وجد الموت فى انتظاره يتربص به ، فالحياة يسودها الجهل المبيد ، والفوضى الزاخرة ، والفقر المدقع ، والفتنة الشاملة . فى ذلك قال الشاعر :

ولو ترى قبله الدنيا ، وما لقيت ... من البلاء ، وما ذاقت من النقم

والناس ضُلاَّلُ قفرٍ فى مسارحها ... هيمٌ من السَّرح ، أو غُفْل من الغنم[1]

ضلوا سواء النُّهى ، فاستمسكوا عمها ... بكل حبل من الأهواء منجذم[2]

هاموا بكل سبيل فى غياهبها ... من يخطىء القصد فى ليل الهوى يهم[3]

فأوردتْهم ظِماءً كلَّ مُهتلَك ... يشوبه الكفر بالأقذاء والوَخم[4]

تفرقوا شيعا فى الكفر ، وانقسموا ... شتى ، فباءوا بما يخزى من القِسَم[5]

هذا عن الحق ـ بالأفلاك ـ فى عمه ... وذاك ـ بالنار ـ عن نور الجلال عمى[6]

وذا يؤله من لا يستجيب له ... من ناطق بشر ، أو صامت صنم

---

(١) ضلال ـ بضم الضاد وتضعيف اللام ـ جمع الضال : مقابل المهتدى ، والقفر : الخلاء من الأرض لا ماء فيها ولا كلأ ، المسارح ـ جمع مسرح ـ : مرعى الماشية ، هيم ـ جمع الأهيم ـ من الرجال والإبل : العطشان أشد العطش ، السرح : الماشية ، الغفل من الماشية ـ بضم فسكون ـ جمع الأغفال : كل ما لا سمة عليه .

(٢) النهى ـ جمع النهية ـ : العقل ، العمه : التحير والتردد بحيث لا يدرى أين يتوجه ، وهو فى البصيرة كالعمى فى البصر ، الأهواء ـ جمع الهوى ـ : الميل إلى الشهوة ، المنجزم : المنقطع .

(٣) هاموا على وجوههم : خرجوا على وجوههم فى الأرض لا يدرون أين يتجهون . السبيل : الطريق ، الغياهب : الظلمات .

(٤) الظماء ـ بالكسر ـ جمع الظمآن : العطشان . اهتلك : ألقى نفسه فى التهلكة . شابه الكفر : خالطه ، الأقذاء ـ جمع القذى ، وهو القذاة ـ : ما يقع فى العين والشراب والماء من تراب وغير ذلك ، الوخم ـ بالتحريك ـ : داء كالباسور بحياء الناقة .

(٥) الشيع ـ بكسر ففتح ـ جمع الشيعة : الفرقة والجماعة ، شتى ـ جمع شتيت ـ يقال أشياء شتى : من غير جنس واحد ، باء بالشىء : رجع به ، أخزاه : أهانه وفضحه وأخجله ، القسم ـ بكسر ففتح ـ جمع القسمة : النصيب .

(٦) يشير بهذا البيت إلى الصابئة والمجوس .

قبـائـل ، وشـعـوب لا يعطفهـــــا … إخـــاء صـــدق ، ولا قـربى من الرحم
وســوقة ، وملــوك حــال بينهمــا … ما حــال بين ســباع الجو والنَّعم [1]
هــذا على العـرش محمود بعزتــه … يــزجى أولئك فى الأجناد والخِدم [2]
إن عبَّـد الـرومَ فى بُصـرى قياصرها … ففي مـدائن كسـرى تهلكُ العجـم [3]
من قـال بالعقــل غـال السيف هامته … ومن يَسُـم يوم عدل ، بالردى يُسَـم [4]
والجاهليـون بالأحقـــاد فى لهــــب … ـ من العداوة والبغضاء ـ محتــدم [5]
فى يعــرب ومعـــدٍّ كل بائقــــةٍ … تسـقيهم الموت فى الغـارات والإزم [6]
إن أتهموا فركــاب المــوت متهمـــة … أو أنجدوا فالـردى موف على القمـم [7]
جهــل مبيــد ، وفوضى عَبَّ زاخرها … والعيش بين الضنـى والفتنــة العَمـم [8]

اصطفاء محمد من أشرف الأصلاب :

ويخلص الشاعر من حديثه عن العالم وما كان عليه من ظلم وجهل وضلال ، إلى الحديث عن قريش التى جعل الله غوث الوجود على يدى واحد من أبنائها ، فهم ـ فى جملتهم ـ خيرة الله مذ كانوا ، وهم موئل الناس وعصمتهم ، وهم القائمون على خدمة الحجيج إطعاماً وسقاية وحماية ؛ فلقد شيدوا فى الصحراء بين الحل والحرم مجداً للإنسانية جميعها تأصل وثبت ، حتى كانوا قوام الحياة للناس قروناً متطاولة ، وذلك حيث يقول :

لولا قـريش سقـى الله الوجـود بهـا … غوثـا من الأمن فى غيث من الديـم [9]
قـوم إذا ابتدر الناسُ العـلا نهضـوا … فى زاخـر من تليـد المجـد ملتطـم [10]

(1) السوقة ـ بضم السين وفتح القاف ـ : الرعية وأوساط الناس ، وتطلق على الواحد وغيره . النعم ـ بالتحريك ـ : المال السائم ، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل .

(2) أزجى القائد الجند : ساقهم ودفعهم .

(3) القياصر ـ جمع القيصر ـ : لقب لملوك الروم ، والعجم : يقصد بهم الفرس .

(4) غال السيف هامة الرجل : أخذه من حيث لا يدرى فأهلكه . والهامة : الرأس ، وهامة الشىء : أعلاه أو وسطه . يسم الأولى من السوم بمعنى طلب الشراء ، والثانية من السوم بمعنى تجشم المشاق والعذاب ، يريد : أن من احتج على ما يقع عليه وطلب العدل ، سامه هؤلاء الملوك ألوان العذاب .

(5) احتدم اللهب : اشتد اشتعاله .

(6) يعرب : هو ابن قحطان أبو اليمن ، إليه تنسب لغة العرب العاربة ، قيل : أول من تكلم بالعربية . ومعد : هو ابن عدنان ، أبو العرب المستعربة من نسل إسماعيل عليه السلام ، البوائق ـ جمع البائقة ـ : الداهية أو الشر ، الإزم ـ بكسر ففتح ـ جمع الأزمة : الشدة .

(7) أتهم القوم : أتوا تهامة ـ بكسر التاء ـ : أرض منخفضة بين ساحل البحر وبين الجبال فى الحجاز واليمن ، أنجد القوم : أتوا نجداً ، ونجد : قسم من الجزيرة العربية بين الحجاز والعراق ، الردى : الهلاك ، أوفى على المكان : أشرف عليه .

(8) عب البحر عباباً : ارتفع موجه واصطخب ، الضنى : المرض أو الهزال الشديد ، العمم ـ بالتحريك ـ : العامة الشاملة .

(9) الغوث : الإعانة والنصر ، والغيث : المطر ، الديم ـ بكسر ففتح ـ جمع الديمة : مطر يدوم فى سكون بدون رعد .

(10) ابتدره بالشىء : عاجله به . الزاخر : الفائض الطامى ، المجد التليد : الأصيل القديم .

هم خيرة الله مذ كانوا وصفوته — وجيرة الله فازوا منه بالذمم [1]
أبناءَ فهر، بنيتم فى البطاح لنا — مجدًا تأثل بين الحل والحرم [2]
كنتم نظاما لأقوام مضوا حقبا — من الزمان بلا شمل ولا نظم [3]
يا موئل الناس والأيام راجفة — بأهلها، وسمير البأس فى حدم [4]
وعصمة الناس إن ضاق الفضاء بهم — فاءوا إلى موئل منكم ومعتصم [5]
يا مطعمى الناس إن أكدى الغمام، ويا — رِىَّ الحجيج إذا يوم الهجير حمى [6]

والشاعر بحديثه عن قريش إنما يمهد للحديث عن مولد الرسول ﷺ فيهم ومنهم؛ فقد كان كان مولده ﷺ من قريش تصديراً للمجد من أشرف بيوتهم، وتوجيهاً للنور المشع، كى يطل على الآفاق من مرتفع، حيث تنقل من أشرف الأصلاب إلى أشرفها، حتى حملت به آمنة بنت وهب بن زهرة الطاهرة الشريفة العفيفة، فحملت بأفضل إنسان، إذ جاء نوراً من الله مجملًا خَلْقا وخُلقا، مزكى بالآداب والحكم، عمت بشائر مولده البلاد شرقيها وغربيها، فى ليلة فريدة لم تر الدنيا لها مثيلاً، فبدا شمساً ساطعة فى موكب من تكريم الله وإجلاله، إذ يقول:

تصوب المجد من أعلى ذوائبكم — نورا أطل على الآفاق من شمم [7]
مسراه فى شرف الإسلام منتقلا — بين القبيلين من طود إلى علم [8]
حتى أقلته فى عليا مشارقه — زهراء (زهرة) ذات الطهر والعصم [9]
من ذا الذى حملت تلك البتول، ومن — قامت لمقدمه الدنيا على قدم ؟! [10]
نور من الله سوَّاه، وصوره — خلقا، وزكاه بالآداب والحكم [11]
فى الشرق والغرب آيات تطوف بها — رُسْل البشائر من شاد ومرتسم [12]

---

(١) الذمم ـ جمع الذمة ـ : الكفالة والعهد.

(٢) فهر ـ بكسر فسكون ـ : قبيلة من قريش، البطاح ـ جمع البطحاء ـ : المكان المتسع يمر به السيل فيترك فيه الرمل والحصى الصغار، المجد المؤثل : الثابت المؤصل.

(٣) نظام الشىء : قوامه وملاكه، الحقب ـ بكسر ففتح ـ جمع الحقبة : المدة لا وقت لها، أو السنة.

(٤) الموئل : الملجأ، رجفت الأيام : اضطربت وزلزلت. البأس : الشدة، الحدم ـ بالتحريك ـ : شدة اتقاد النار.

(٥) العصمة : الحفظ، فاء إليه : رجع.

(٦) أكدى : بخل، أو افتقر بعد غنى، الهجير : نصف النهار فى القيظ خاصة.

(٧) تصوب مطاوع صوب : توجه وتسدد، الذوائب ـ جمع الذؤابة ـ : من كل شىء أعلاه، الشمم : الارتفاع.

(٨) القبيلان : يعنى أصله صلى الله عليه وسلم من جهة أبيه، ومن جهة أمه، الطود : الجبل العظيم الذاهب صعداً فى الجو، والعلم : الجبل.

(٩) أقلته : حملته، الزهراء : يعنى السيدة آمنة بنت وهب، والزهراء : البيضاء الصافية المشرقة، وزهرة ـ بضم فسكون ـ : اسم جدها، العصم ـ بكسر ففتح ـ جمع العصمة : ملكة إلهية تمنع من فعل المعصية والميل إليها مع القدرة عليه.

(١٠) البتول من النساء : العذراء المنقطعة عن الزواج إلى الله، قامت الدنيا على قدم : كناية عن الاهتمام والاحتفال.

(١١) زكى الشىء : أصلحه وطهره.

(١٢) الشادى : المترنم المتغنى، والمرتسم : المكبر المتعوذ الداعى، يريد : المهلل المكبر.

فى ليلة لم تر الدنيا لها مثلاً ... فيما تقضّى من الأجيال والأمم
تنفست عن سنا شمس الوجود بدا ... فى موكب من جلال الله منتظم[1]

من شمائله صلى الله عليه وسلم وآثاره :

ومن هنا أخذ الشاعر يذكر بعض شمائله ﷺ ومناقبه التى بدت منذ طفولته ، فقرر أنه ﷺ روح الحياة الدنيا والآخرة ، وأنه نور مكة والمدينة الذى أضاء العالم كله ، وأنه إمام القبلتين الذى شرف بيت المقدس والكعبة بالتوجه إلى الله من خلالهما ، وأنه خيرة الله من بين خلقه ، لقد ظهر عليه من الأمارات والأدلة ما ينبىء بما له من قدر ومكانة تميزه عن كل من عداه ، وذلك بخلوص أصله للمجد والعظمة ، ويمن مولده وحلول البركة على الأرض به ، واختصاصه بالحمد اسماً وصفة ، يسامى النجوم رفعة ، حتى اختلط جمال محياه بجلاله ، فكان مجموعة باهرة من الشيم والسجايا . فإذا كان أبناء السادات معرضين لأن يصيبهم الهوان حين يلحق اليتم بهم ، فإن محمداً ﷺ باليتم زاد عظمة ورفعة ، ظهر أثرهما فى عشيرته ، فتاهوا به على العشائر اعتزازاً وفرحاً . فقد قال الشاعر فى ذلك :

روح الحياتين ، نور القريتين ، إما ... م القبلتين ، صفى الله فى القدم[2]
لاحت مخايله ، تنبيك أن له ... قدرًا تفرَّد فى السادات بالعظم[3]
المجد محتده ، واليمن مولده ... والحمد مورده ، معنى اسمه العلم[4]
يرمى النجوم بعين فى تقلبها ... معنى يفوت مدى الأفلاك والنجم[5]
يا أحمد الرسل ما هذا الجلال به ... جمال هذا المحيا ، باهر الشيم[6]
ما هان باليتم ، لكن زاده خطرا ... وقد يهون بنو السادات باليتم[7]
لما دعوا أحمد اهتز الحمى ، وبدا ... لآل عبد مناف صدق جدهم[8]

ومن هنا انتقل إلى الحديث عن آثاره الطيبة فى بنى سعد ، حين تحملت أمر إرضاعه واحدة منهم ، فقد رأى الشاعر أن الزمن قد تحول بتلك القبيلة كلها منذ رجعت حليمة به ﷺ لتقوم برضاعته ، حيث فاضت النعمى على هوازن ، وجرى الخير بينهم كأنه الغيث ، فنالوا السعد

---

(١) السنا : الضوء ، الجلال ـ بالفتح ـ : العظمة .

(٢) روح الحياتين : يعنى الدنيا والآخرة ، والقريتان : مكة والمدينة المنورة ، والقبلتان : بيت المقدس والكعبة المشرفة ، الصفى المختار .

(٣) المخايل ـ جمع المخيلة : الدليل والعلامة .

المحتد ـ بفتح فسكون فكسر ـ : الأصل والطبع ، اليمن : البركة ، الحمد : الثناء ، المورد : المنهل ، والطريق والمصدر ،

(٤) يعنى أن اسمه العلم هو أصل الحمد ومورده .

(٥) فاته : سبقه ، المدى : المسافة والغاية .

(٦) المحيا ـ بضم ففتح ـ : جماعة الوجه ، الباهر : المدهش المعجب ، الشيم ـ جمع الشيمة ـ : الخلق .

(٧) الخطر : المثيل فى الشرف والرفعة . هان الشىء : ذل .

(٨) اهتز الحى : تحرك بشدة ، الحمى : الموضع فيه كلأ يحمى من الناس أن يرعى .

والإكرام بما صنعته ابنتهم حليمة ، وانتشرت البشائر فى حيهم ، وأصبحت حليمة خير المراضع حين رجعت من مكة بهذا الطفل الميمون ، فما وصلت به إلى منازلها حتى نزل بهم فيض عميم من الخير ، ومازال ينمو بين بنى سعد ، ويرق بشمائله حتى كان بارزاً مميزاً بين أترابه ..فقال :

واستقبل الدهر بالنعمى مراضعه ... إلى هوازن يجرى الغيث بالنعم[1]
يا سعد حىٌّ بنى سعد بما صنعت ... فتاتهم ، وانشر البشرى بحيهم
خير المراضع من أم القرى رجعت ... أما لأكرم مكفول وملتزم
فما استقرت به حتى أناخ بهم ... من جوده كل جود بالندى رزم[2]
مازال ينمى ، ويسمو فى مناقبه ... نماء نجد بما شاء الجلال سَمى[3]

ثم تداعى إليه فى هذا السياق بعض مناقبه البارزة ، التى كانت أمارة تميز عامة ، أبرزته بين قومه جميعهم ، فقد بدت فيه شمائل أبيه وأجداده ، إذ كان سمحاً ، وقوراً ، أميناً ، صادقاً ، ذكياً ، عفا عن الدنايا ، قديراً لا يخالجه عجز ، حريصا على حماية الحرم ، إلى غير تلك الشمائل التى عجز حكماء قريش وعقلاؤها عن إدراك واحدة منها بالمستوى نفسه الذى توفر له ، فكان وجوده بتلك الشمائل بينهم أمارة أظهرت ما أكبرته قريش من مناقب أبنائها صغيراً ضئيلا ، وذلك قوله :

فيه شمائل عبدالله نعرفها ... عن شيبة الحمد ، عن عمرو عن الحكم[4]
سمح ، وقور ، أمين ، صادق ، فطن ... عف ، قدير ، وصول ، مانع الحرم[5]
شمائل قصرت عن درك أيسرها ... أهل النهى من قريش أو بنى جشم[6]
وهمة أصغرت ما أكبرت سفها ... تلك النفوس ، وكانت موطن الهمم[7]

تميزه منذ الصغر بين اترابه :

وكان اشتماله ﷺ منذ صغره على تلك المناقب ، دافعا له لفعل كل ما يميزه من أترابه ، ويسمو به عن كثير من عوائد قومه ، فلما أوشك موعد الدعوة ، وأظل الناسَ أوانها ، وبدأت بشائر نورها تغزو ما سيطر على الناس من غمم وظلام ، ملك قلبه ما يدعوه إلى ترقب نور الله

(١) النعمى : النعماء .
(٢) أناخ بالمكان : أقام به . الندى : الكرم ، الرزم ـ بفتح فكسر ـ : الغيث الذى لا ينقطع رعده .
(٣) نمى الحديث ـ بالتحريك ـ : شاع ، ونمى الشىء : رفعه وأعلى شأنه .
(٤) عبد الله : والد الرسول ﷺ ، شيبة الحمد : هو عبد المطلب ، وعمرو : هو هاشم بن عبد مناف ، ويقال له : عمرو العلا ، أول من سن الرحلتين لقريش ، رحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة ، ورحلة الصيف إلى الشام وغزة وأنقرة .
(٥) السمح : اللين السهل ، الوقور : ذو الرزانة والحلم ، الفطن ـ بفتح فكسر ـ صاحب الاستعداد الذهنى لإدراك ما يرد عليه ، الوصول ـ بالفتح ـ المبالغة فى وصل الأقربين ، والعطف عليهم ، والرفق بهم ، ومراعاة أحوالهم .
(٦) الشمائل : المناقب والصفات ، قصر عن الشىء ـ بفتح فضم ـ : لم يستطع إدراكه ، النهى : العقل ، بنو جشم : أبناء الحارث بن لؤى ، وجشم يطلق على أحياء من مضر ومن اليمن ومن تغلب ومن ثقيف ومن هوازن .
(٧) الهمة : العزم القوى ، السفه : الخفة والجهل والطيش .

الذى سوف يستأصل ظلام الجهل ؛ فقد حباه الله تعالى قلباً صيغ جوهره من الكرم ومعالى الأمور ، فشع نوراً ، جعله ﷺ يشعر بأنَّ الله حمله مسئولية الناس جميعاً ، كى ينقذهم مما استبد بهم وران عليهم ، بينما قريش من حوله يموج أبناؤها فى نتن الكفر ، فلم يكن مجتمعهم بالذى يجد فيه راحة نفسه ، ولكنه استشعر الوحشة بينهم ، ففر إلى البيداء باحثاً عن الأمن والراحة والأنس ، حيث وجد من جلال الله فى الغار ما يؤنس وحدته ، ويبدد وحشته :

لما أظل الورى إبان دعوته	وثار نور الهدى يسطو على الغمم(1)
أوفى على قلبه داع أهاب به	من جانب القدس : هذا نورنا فشم(2)
نور أضاء بقلب صاغ جوهره	من الندى والمعالى بارىء النسم(3)
قلب جرى فيه أن الله حمَّله	عبء البرية من عُرب ومن عجم
وحوله من قريش كل معتقم	من حمأة الكفر ، يهوى حول معتقم(4)
فاستوحشت بينهم نفس له أنست	بوحشة البيد ، وارتاحت إلى الوجم(5)
مستأنساً بجلال الله ، يشهده	فى الغار بين خشوع البيد والأكم(6)

وظل صلوات الله وسلامه عليه يعتكف فى الغار طلباً للأنس ، وفراراً من ظلام الجاهلية المسيطر على قومه ، حتى تبين بشائر النبوة فيما رآه حين زاره فى معتكفه رسول الوحى ، حاملا إليه أمر ربه ، كما أوحى من قبله بالهدى والدين القيم إلى الرسل السابقين ، فأرسله الله عز وجل الذى علم بالقلم بما ينير للناس طريقهم ، ويهديهم إلى الحق ، ويبصرهم باليقين ، وفى ذلك جاء قول الشاعر :

حتى تبيَّن أعلام النبوة فيـ	ـما قد رأى ، ثم لم يرتب ، ولم يهم(7)
أوحى إليه كما أوحى إلى رسل	من قبله بالهدى والملة القيم(8)
بالنور ، بالحق ، بالعرفان أرسله اللـ	ـه الذى علم الإنسان بالقلم(9)

(1) الورى : الخلق ، الإبان : الأوان ، سطا عليه : بطش به .

(2) أوفى عليه : أشرف عليه ، أهاب به : دعاه للعمل أو للترك . شام السحاب والبرق : نظر إليه يتحقق أين يكون مطره ، وشام الشىء : حزره وقدره .

(3) صاغه : صنعه ، الجوهر من الشىء : ما وضعت عليه جبلته ، الندى : الجود والسخاء والخير ، البارىء : الخالق ، القسم : الخلق .

(4) الاعتقام : أن تحفر البئر فإذا قربت من الماء احتفرت بئراً صغيرة بقدر ما تجد طعم الماء ، فإن كان عذباً حفرت بقيتها ، هوى ـ بفتح العين ـ يهوى : سقط .

(5) الوحشة من الناس : الانقطاع وبعد القلوب من المودات ، البيد ـ جمع البيداء ـ الفلاة : الوجم ـ بالتحريك ـ حجارة مركومة بعضها فوق بعض على رءوس الآكام .

(6) الخشوع : الخضوع ، الأكم ـ جمع الأكمة : التل .

(7) ارتاب فى الأمر : شك ، هام : خرج على وجهه فى الأرض لا يدرى أين يتوجه .

(8) الملة : الشريعة أو الدين ، القيم ـ بكسر ففتح ـ جمع القيمة : الثابتة الدائمة على الأمر .

(9) العرفان : الإدراك بإحدى الحواس .

بدء الوحى وأثر الدعوة فى قومه :

ومن الحديث عن بدء الوحى ينطلق الشاعر مستعرضاً أثر الوحى وما تلاه من جهر بالدعوة استجابة لأمر الله تعالى .. فى قريش ، فقد زلزل القوم ، وأدركوا أنهم يواجهون قوة لا قبل لهم بها ؛ فحجتهم واهية ، والأصنام التى يعتزون بها واجمة لا تضر ولا تنفع ، حتى بدت بوادر الحق زاهية مشرقة فى مقابلة ما أصاب الطغيان والكفر من غيظ وندم ؛ فكان عقلاؤهم مثار الدهشة والتعجب ؛ إذ طاشت عقولهم التى كانت ترجح الجبال رزانة وحكمة ، كما كان ﷺ فى نهوضه بهذا الأمر وتلك المواجهة وحده ، داعياً أمم الأرض للخلاص من الأهواء التى طالما رضخوا لها وما يصدر عنها ، بمن فيهم من الطغاة المتجبرين الذين يتيهون كبراً وفخراً ، والذين يطوون جوانحهم على الضلال ؛ فقام ﷺ بينهم داعيا بكل وسيلة ملائمة ، ولكنهم على الرغم من ذلك ظلوا على عنادهم يصمون آذانهم عنه ، فإذا حاول أن يلفت ضمائرهم إلى الحق باللين واجهوه بالشراسة المؤذية ، وإذا تلا عليهم آيات الكتاب الكريم ـ بما تتضمنه من قوة بيانية معجزة ـ اشتطوا فى خصومتهم ولووا رءوسهم مظهرين انصرافهم عنه . ولكن شيئاً من ذلك لم يصرفه عنهم ، بل زاده ذلك إصراراً على مواصلة دعوتهم ، يقابل صدودهم وغلظتهم بالحنو والرحمة ، ليعلمهم كيف يكون الولى رفيقاً ، وكيف يكون السيد باراً ؛ فلم يقابل طغيانهم العجيب إلا بقلب لا يعرف العدوان ولا الحقد ، ولا عجب فى ذلك منه ﷺ ، فقد أحلهم منه بمنزلة الأبناء والأهل . قال الشاعر :

هنـــاك زلـــــزل قوم حين قال له : قم منـــذراً ، وبحبـــل الله فاعـــتصم[1]

فالكفـــر يرجـــف ، والأصنـــامُ واجمة والحق يبسِـم ، والطاغـوت فى سدم[2]

فاعجب لأحلامهم طاشت وكم رجحت على شماريخ رضْـــوى ، أو على إضم[3]

واعجب له ، كيـف يدعـو وحـده أمماً عن دعوة الحق ـ بالأهواء ـ فى صمم

من كل أصيـــد ، يطـــوى فى جوانحه ـ على الضلال ـ حنايا الوالد الرَّخم[4]

إن قام بالـــلين يسترعـــى ضمائرهـــم رأيت كل حمى بالخنـــــــــى عَرِم[5]

---

(١) اعتصم بحبل الله : امتنع به ولجأ .

(٢) رجف : تحرك واضطرب اضطراباً شديداً ، الواجم : الساكت العابس : الطاغوت : كل رأس فى الضلال يصرف عن طريق الخير ، السدم ـ بالتحريك ـ : الغيظ مع حزن وهم وندم .

(٣) طاش عقله : خف وتشتت فجهل وأخطأ ، الشماريخ ـ جمع الشمراخ ـ : غصن دقيق رخص ينبت فى أعلى الغصن الغليظ ، رضوى : جبل بالمدينة ، وإضم : اسم لأكثر من موضع ، والظاهر أنه يريد به هنا جبلاً .

(٤) الأصيد : من يرفع رأسه كبراً ، والمتكبر المزهو بنفسه ، الجوانح ـ جمع الجانحة ـ : الضلع القصيرة مما يلى الصدر ، الحنايا ـ جمع الحنية ـ : القوس ، الرخم ـ بالتحريك ـ : المحب اللين ذو العطف .

(٥) الخنى : الفحش فى الكلام . العرم ـ بفتح فكسر ـ : الشديد الشرس .

أو جاء بالآى مدوا بالخصام له | حبال ألوى على حكم الهوى خَصِم[1]
يحنو عليهم وإن صدوا ، يعلمهم | رفق الولى ، وبر السيد الخذم[2]
وكم طغوا لم يقابلهم بما صنعوا | قلبٌ تخلى عن العدوان والاضم[3]
ومن يَقُد مثلهُ قوماً أحلهم | منه بمنزلة الأبناء والحشم

وكانت وسيلته ﷺ فى دعوته إلى الله .. هو كتاب الله الكريم بآياته البينات التى تهدى إلى الرشد بالبرهان الساطع ، والحكمة الواضحة ، فكان ــ إلى ذلك ــ معجزة تنبىء بصدقه ، وتؤكد أنه مبعوث من الله . هذا الكتاب الكريم الذى نزل به الأمين جبريل وحياً من الله تعالى فى هيئة أحرف عربية ونظم معجز من الكلام ، تحداهم جميعاً ــ وهم أرباب الفصاحة والبيان ــ بأن يأتوا بمثله ، فلم يستطيعوا الا أن يقابلوا ذلك التحدى بالصمت والتسليم .

بيد إن مكابرتهم وعنادهم فرضا عليهم أن لا يذعنوا ، وأن لا يعلنوا عن هذا الاستسلام ، فحولوا التحدى من ميدان الكلمة ، إلى ميدان الحرب ، ولجأوا إلى أسلحتهم يشحذونها ويشهرونها فى وجهه ﷺ ومن تابعه منهم ممن جلا نور اليقين بصائرهم ، وبدد من آفاقهم ظلام الشك ، فعرفوا صدق محمد ﷺ ، وفهموا حقيقة الإسلام . وفى هذا كان قوله :

يدعوهمُ وكتاب الله آيته | يهدى إلى الرشد بالبرهان والحكم
يتلوه فى أحرف جاء الأمين بها | وحيا من الله فى نظم من الكلم
لم يبق حين تحداهم به لَسِنٌ | إلا تردَّى شعار العِيِّ واللَّسَم[4]
وإذ قضى العجز فيهم حكمه فزعوا | فاستنجدوا بالقنا والصارم القضم[5]
إلا فريقاً جلا نور اليقين لهم | عن ظلمة الشك ، بالعرفان والفهم

الإقبال إلى الإسلام وتمادى قريش فى العداوة :

وهكذا تهيأت المناسبة أمام الشاعر ليتحدث عمن بادر إلى الإسلام من قريش ــ بعد أن زالت عنهم غشاوة الجهل ــ مبتدئاً بالحديث عن الثلاثة السابقين ؛ أم المؤمنين خديجة التى صدقتها فراستها بما رأته عليه من عظمة ونبل ، فلم تتلجلج فى تصديقه ، ولم يغب عن الصديق أبى بكر ما اجتمع إليه ﷺ من امارات النبوة والعلم ، ولم يضلل عليا ما فى الصبا من غفلة ؛ فعرف

(١) الألوى : الشديد الخصومة ، الخصم ــ بفتح فكسر ــ : العالم بالخصومة وإن لم يخاصم .

(٢) الخذم ــ بفتح فكسر ــ : السمح الطيب النفس عند العطاء .

(٣) الطغيان : مجاوزة الحد المقبول ، الأضم ــ بالتحريك ــ : إضمار الحقد .

(٤) اللسن ــ بفتح اللام وكسر السين ــ : الفصيح البليغ ، تردى بالرداء : لبسه ، الشعار : ما ولى جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب ، العى ــ بالكسر ــ : ضد الإبانة فى الكلام ، اللسم ــ بالتحريك ــ : السكوت عيا .

(٥) القضم ــ بفتح فكسر ــ : القاطع .

صدق محمد ، ورآه بعيني الحاذق اللبيب ؛ فكان هؤلاء الثلاثة فى ميادين الهدى أعلاماً بارزة ، أحرزوا قصب السبق إلى الإسلام ، فكانوا بإسلامهم علامات بارزة اجتذبت إلى الإسلام – على آثارهم – نفراً من قومهم فكانوا جميعاً دعاة وهداة ، أذاعوا الإسلام بالقول وبالفعل فى الدنيا كلها ؛ إذ كانوا بسلوكهم وأخلاقهم وأصول آبائهم قوة ذات أثر فعال ، استطاعت أن تجتذب إلى نور الهدى صناديد يثرب وقادتهم ، فكانوا قوة تدعم ، ونوراً يبدد الغمم من سماء الدعوة :

لم يكذب الرأىُ أمَّ المؤمنين بما ... تخيلت فيه من نبل ومن عظم[1]

ولم يفت نظر الصديق ما جمعت ... فيه النبوة من آى ومن علم

ولا أضلَّ علىٌّ – والصِّبا غرر – ... فى صدق أحمد رأىَ الحاذق الفهم[2]

ثلاثة فى ميادين الهدى سبقوا ... فأحرزوا قصب الحسنى بسبقهم[3]

جلَّوا وصلى على آثارهم نفر ... سنوا الهدى لبنى الدنيا بهديهم[4]

من كل أبلج سامٍ فى أُرومته ... من آل فهر كبير القلب ذى شمم[5]

وكل أروع نجد فى حفيظته ... من أهل يثرب لا نِكسٍ ولا برِمِ[6]

صيد صناديد فى يوم الوغى صُبُرُ ... غُر أماجيد كشافون للغمم[7]

الهجرة إلى يثرب :

ولكن كثرة قريش فرضت لهم من السطوة ما جعل لهم اليد الطولى فى تعذيب المؤمنين ، وتتبعهم فى كل مكان للتنكيل بهم ، حتى استمرأ القوم ذلك ، وأهملوا عرف العصبية القبلية ، وبلغ بهم الأمر درجة التخطيط لقتل محمد ﷺ ، فلما عزموا على إنفاذ ما دبروه ، قامت يد الله سبحانه وتعالى بالدفع عنه ، ومقابلة تدبيرهم البشرى بالتدبير الإلهى ، فأخزاهم الله ، ونصر

---

(١) النبل – بضم فسكون – : الشرف .

(٢) الصبا – بالكسر – : الصغر والحداثة ، الغرر – بالتحريك – : الخطر ، والغرر : الغفلة ، يقال : غر الرجل غرراً : كان ذا غفلة وقلت فطنته . الحاذق : الذى أوغل فى ممارسة العمل حتى مهر فيه ، الفهم – بفتح فكسر – : من جاد استعداده للاستنباط .

(٣) القصب : كل نبات ساقه أنابيب ، ويقال : أحرز قصب السبق ، أصله أنهم كانوا ينصبون فى حلبة السباق قصبة ، فمن سبق اقتلعها فعلم أنه السابق .

(٤) جلى الفرس تجلية : سبق فى الحلبة . صلى الفرس فى السباق : جاء الثانى فى السباق ، سن الأمر : بينه .

(٥) بلج وجهه – بفتح فكسر – : ابيض وتنضر سروراً . الأرومة : الأصل ، آل فهر : أجداد قريش . الشمم : الارتفاع .

(٦) الأروع : الذكى الفؤاد ، النجد – بفتح فسكون – : ما ارتفع من الأرض وصلب ، الحفيظة : الغضب ، والحمية ، النكس – بكسر فسكون – : الضعيف ، والرَّذْل – بفتح فسكون –: المقصر عن غاية النجدة والكرم ، والبرم – بفتح فكسر – : السئم الضجر .

(٧) الصيد – جمع الأصيد – : كل ذى حول وطول من ذوى السلطان . الصناديد – جمع صنديد – : الشريف الشجاع ، الوغى : الحرب ، الصبر – بضمتين – جمع الصابر : غير الجازع ، غر – بالضم – جمع الأغر : الذى كرمت فعاله واتضحت ، أماجيد – جمع ماجد على غير قياس – : النبيل الشريف .

عبده ، وحفظه من كل سوء ، ورد بقضائه عليهم سوء مكرهم ، فرجعوا من محاولتهم تلك بالخزى والندم ، فقد سخر الله لحفظه ﷺ كل ما صادف فى هجرته ، فجعل من الغار خير مأوى له ولصاحبه الصديق رضى الله تعالى عنه ، حيث قام الحمام بأجل خدمة فى هذا الموقف ـ حين رآه المشركون فى هيئة تنبىء بأن أحداً لم يدخل الغار وإلا لطار الحمام ولهدم العش ـ وكذلك قام العنكبوت بدور الجندى اليقظ ، فقد ضللت المشركين عن الحقيقة ، وأوهمتهم أن وجودها على مدخل الغار يعنى أن الغار خال من الآدميين ، وإلا تمزق نسجها الذى غطى واجهة المدخل ، وهكذا سخر الله جنوده ـ على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ـ لحماية من يريد حمايته .

ولما اطمأن ﷺ إلى يأس قريش ، وتوقفهم عن البحث ، يمم شطر يثرب ، حيث نهض أهلها لاستقباله فى فرح وسعادة ، بينما الكائنات فى مكة بالبكاء تشارك البيت والحرم أحزانهما لفراقه ﷺ :

لما تمادت قريش فى عداوتـــــه ... وبيتـــوا قتلـــه تدبير معتـــزم[1]
قامت يد الله تخزيهم وتـــنصره ... من ينصر الله يعصمـــه فيعـــتصم
رد الـــقضاء عليهم سوء ما مكـــروا ... فلـــم يبـــوءوا بغير الخزى والنـــدم
يا طيبَ للغـــار ، آواه وصاحبـــه ... وللحمـــام بما أسدت من الخدم[2]
والعنكبـــوت لها فى نصره عمـــل ... عن درك آياته جفن الضلال عمـــى
من يحمـــه الله ساوى فى حمايتـــه ... فعل الجمادات فعل الناس والبُهـم[3]
لما نحا (يثرب) اهتز الحمى وبـــكت ... وُرْق الربى لبكـــاء البـــيت والحرم[4]

الإذن بالجهاد دفعاً للظلم :

فلما وصل يثرب ـــ وأصبح ميدان المعارضة أفسح ـــ جاءه إذن ربه باستعمال القوة فى دفع الظلم ليحمى الدعوة بالقول المنطوق ، والكلمة المكتوبة من العدوان ؛ فأصبح على المسلمين أن يعدوا أنفسهم لينهضوا بمواجهة الشرك فى مختلف مواطنه ، فتتابع الداخلون فى الإسلام ، والمتعاهدون معه ﷺ على المناصرة ، وهكذا أثبت الواقع أن الناس حين يظلمون الحقيقة ، ويصمون آذانهم عن الكلمة الواضحة ، والبرهان الساطع .. لا يجدى معهم إلا الحرب ، وما كان الناس كلهم من هذا النوع ، فقد كان هناك فريق أسلموا أنفسهم لله ، بعد أن عرفوا حقيقة التجارة الرابحة ، حيث باعوا أنفسهم رخيصة لله ، فأصبحت عند الله غالية

---

(١) تمادى فى العداوة : بلغ فيها الغاية .

(٢) أسدى إليه معروفاً : أعطاه وأولاه ..

(٣) البهم ـ بضمتين ـ جمع البهمة : الشجاع الذى لا يهتدى من أين يؤتى .

(٤) الورق من كل شىء ـ بضم فسكون ـ جمع الأورق : ما كان لونه لون الرماد ، والمراد هنا : الحمام .

القدر ، وبذلك قدموا أوضح العبر والآيات التى تدل على قوة الإيمان ، حين يقدم الإنسان على الموت غير هياب ، فلا يملك الموت إلا أن يخضع ويذل أمام شدتهم . وتلك هى دروعهم خير شاهد عليهم ، تنبىء بما كان منهم فى اللقاءات الحاسمة ، وتلك هى السيوف الصوارم تروى ما صنعه هؤلاء الأبطال فى الطواغيت ، موقنين أن كل ما يتحملونه من مشاق إنما هو فى سبيل الله ، سواء كان ذلك بتجريد السيوف من أغمادها وخوض الحروب ، أم كان بإغمادها والجنوح إلى السلام ؛ فإن هؤلاء المجاهدين ما حملوا سيوفهم لتحصيل مغنم دنيوى ، ولا استجابة لهوى شخصى ، فالخيل تعلم أن غايات هؤلاء الفرسان انحصرت فى القضاء على الشرك وحصونه ، حتى كان لهم فى كل يوم معركة خالدة مثل غزوة بدر التى أصابت المشركين بالخزى والعار ، فكانت أياما خالدة انتصر بها الحق ، ولم تكن معارك دفع إليها السفه والجهل ، كما كان فى يومى « الأنعمين » ، و « ذى حُسم » ، إنها أيام بنى الله بها أركان الدين القويم . وأقامه على دعائم العز الخالدة ، ففتح الله بها على العالم أبواب الحضارة والخير الذى شمل الأنام جميعا .

وحين يصل الشاعر الى ذلك يتوجه إلى الرسول ﷺ بالخطاب تعظيماً له وإجلالا ليقدم صورة تحدد معالم الجيش الذى حقق به المصطفى هذا النصر المبين ؛ إذ كان جيشا يضم جندا متميزين ، لا يعرفون الهزيمة ، وما ذلك إلا لأنه يجمع بين كبار الملائكة ، وعظماء القادة مثل جبريل عليه السلام وحمزة وعلى رضوان الله تعالى عليهما ، وغيرهما من الآل والصحب الذين حققت بهم هذا النصر الخالد ؛ فقدمت للدنيا كأس الحضارة الخالصة تنهل منه على مدى الزمان :

ما حل طيبة حتى حل حبوته ... للسيف ، يدعو بأمر الله والقلم[1]

وأذن الله أن تغشى كتائبه ... منازل الشرك فى نجد وفى تهم

فقام أهل المصلى والعقيق إلى ... نصر النبى ، بعهد غير منفصم[2]

وشِيمَت البيضُ ، فاهتز الحجاز لها ... واستنت الخيل فى شوق إلى اللجم[3]

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا ... فالحرب أجدى على الدنيا من السلم[4]

ومعشر أسلموا لله أنفسهم ... تبينوا الربح فى بيع وفى سلم[5]

لله ما أرخصوا من أنفس ذهبت ... فى الله غالية الأقدار والقيم

---

(١) طيبة : المدينة المنورة ، الحبوة : الجلوس على الأليين ، وضم الفخذين والساقين إلى البطن بالذراعين ، ويقصد بحل الحبوة : القيام .

(٢) العقيق : موضع بالمدينة ، وباليمامة والطائف وتهامة ونجد .

(٣) شام السحاب والبرق : نظر إليه يتحقق أين يكون مطره . استنت الخيل : جرت فى نشاط على سننها فى جهة واحدة .

(٤) اعتسف القوم الطريق : ساروا فيه على غير هدى .

(٥) السلم ـ بالتحريك ـ : بيع شىء موصوف فى الذمة بثمن عاجل .

ألقوا على الدهر من آياتهم عبرا ... وساوروا الموت ، فاستخذى لبأسهم[1]

سل نسج داود إذ هم يخطرون به ... فى كل مصطرخ عال ومصطدم[2]

وسل شبا البيض كم شبوا لها لهبا ... على الطواغيت فى أيامها الدهم[3]

فى الله ما جردوا منها وما غمدوا ... فى الله ما سفكوا من أنفس ودم[4]

لم يحملوها لدنيا ـ قل ما جمعوا ... منها ـ ولا عن هوى فى النفس محتكم

والخيل تعلم كم دكت سنابكها ... مما بنى الكفر من دار ومن أجم[5]

فى كل يوم (كبدر) جرَّ أيومُه ... على العدا كل ماض بالردى خذِم[6]

يومٌ قضى الحق ، لا يوم جرى سفها ... بالأنعمين ، ولا يومٌ بذى حُسُم[7]

يوم بنى الله أركان الحنيف به ... على دعائم عز غير منهدم[8]

صفت سماء الليالى منذ ليلته ... على الأنام ، فلم تُظْلِمِ ولم تغم

يا قائد الجيش يسعى تحت رايته ... من عسكر الله جندٌ غيرُ منهزم

إن كان جبريل من أركان حربك فى ... بدر فحمزة ، والكرار فى الحشم[9]

فى آلك الغر ، مذ كانوا وهم بشر ... ما فى الملائك من أيد ومن كرم

ويا نبيا سقى الدنيا بملته ... رَوْقَ الحضارة من سلسالها الشبم[10]

فعبد المطلب فى وقوفه أمام رسول الله ﷺ ـ كما نرى ـ اعتمد على ما تجيش به نفسه نحوه ﷺ من حب وإجلال ، وما أفعم به عقله من معلومات تاريخية ، وما خلفه سابقوه إلى هذا المجال من خبرات فنية ، فقدم هذه القصيدة المطولة فى مدحه ﷺ مدحا لم يخرج فيه قيد أنملة عن الحقائق المتواترة التى لا تغيب عمن يعايشه ﷺ .

---

(١) ساوروا الموت : صارعوه ، استخذى : خضع وذل ، البأس : الشدة .

(٢) داود : نبى الله عليه السلام ، ونسج داود : الدروع ، خطر بالثوب : اهتز به وتبختر : المصطرخ : مكان الصياح والاستغاثة ، والمصطدم : مكان الاصطدام والتقابل .

(٣) الشبا ـ جمع الشباة ـ : الحد والطرف ، والبيض ـ جمع الأبيض ـ : السيف ، شب الرجل النار : أوقدها ، الطواغيت ـ جمع الطاغوت ـ : كل رأس فى الضلال يصرف عن طريق الخير ، الدهم ـ بضمتين ـ السود .

(٤) جرد السيف : سله من غمده ، وغمد السيف : أدخله فى غمده .

(٥) سنابك الخيل ـ جمع السنبك ـ : طرف الحافر ، الأجم ـ جمع الأجمة ـ : الشجر الكثير الملتف .

(٦) يوم أيوم : طويل شديد ، الخذم ـ بفتح فكسر ـ : السريع .

(٧) قضى الحق : أمر ، وظهر ، السفه : الخفة والجهل والطيش ، الأنعمان ، وذو حسم : من أيام العرب .

(٨) الحنيف : الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه .

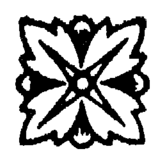
(٩) الكرار : الذى يحمل على العدو المرة بعد المرة ، ويقصد هنا : على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فقد اشتهر بذلك ، حتى لقب به . الحشم ـ بالتحريك ـ : خاصة الرجل الذين يغضبون لغضبه ولما يصيبه من مكروه .

(١٠) الملة : الدين ، الروق ـ بفتح فسكون ـ الصافى من الماء وغيره ، السلسال : النمير الصافى ، الشبم ـ بفتح فكسر ـ : البارد .

معايشة المؤمن على الرغم من الفاصل الزمنى ، فالرسول صلوات الله تعالى عليه وسلامه يعيش فى وجدان كل مسلم !

ومن ينظر فى شعر عبد المطلب يلمس مدى احتذائه بسابقيه ، ومدى تفرده الشخصى فى الوقت نفسه ، حيث دفعته مصاحبة الرسول ﷺ إلى أن يستحضر أحوال أمته على ضوء ما كان من المسلمين الأوائل بقيادة رسول الله ﷺ ، راجيا من وراء ذلك أن تتكرر المعجزة ، ويفىء الله على المسلمين من نعمه ما يوفقهم به إلى قائد يجمع كلمتهم ، وينهض بهم فى الطريق المستقيم ، حتى يخلصهم من استبداد المستعمرين بهم ، ويعيد إليهم مكانتهم الريادية ، وحتى يصلح الله بهم ما أفسده الجهل المتخفى فى أزياء المدنية الحديثة . !

ولذلك نرى الشاعر فى ختام مدحته يوجه أنظار المسلمين إلى ما كان عليه أسلافهم ، وما قدموه فى كنف رسول الله ﷺ من تضحيات وجهاد متواصل ؛ مشيرا إلى البعد الحضارى لما قدمه ﷺ للبشرية جمعاء !



ـ ٤ ـ

علي أحمد باكثير[1]

في قصـــيدته

(نظـــام البـــردة)

(١) علي بن أحمد بن محمد باكثير الكندي ، ولد سنة ١٩١٠ بمدينة (سورابايا) االأندونيسية ، حيث مهاجر والديه إلى حضرميين ، ولكن الدكتور أحمد عبد الله السومحي رجح أن يكون مولده سنة ١٩٠٨ . وعندما بلغ الثامنة ، أرسله والده موت لينشأ تنشئة عربية خالصة ليبدأ خطواته على طريق الثقافة العربية الإسلامية ، حيث أحيط ببيئة ـ خاصة وعامة ـ تغص بعوامل الإثارة في مجالي العلم والأدب ، خصوصاً في ظل ما كان يضمه المجتمع الحضرمي من صراع وتناقضات .

وتوجه باكثير إلى الاكباب على قراءة الكثير من النتاج الأدبي المصري المعاصر قراءة مستوعبة ، إلى جوار الكثير من كتب التراث العربية ، فاستطاع أن يوازن بين السلفية والمعاصرة ، ولم يسلم نفسه لسجن التراث ، ولا لتفسخ الانفتاح على الحياة العصرية وحدها .

وفي سنة ١٩٣٢ سافر إلى الحجاز ، فأنشأ هناك صداقات مع طائفة من الأدباء والمصلحين ، وقدم مطولته (نظام البردة) ، كما كتب في الطائف مسرحية (همام أو عاصمة الأحقاف) إلى جانب الكثير من القصائد التي ضمنها كراسة تحت عنوان (الحجازيات) .

وفي مصر التحق بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية سنة ١٩٣٤ ، بعد أن حصل على درجة الليسانس في الأدب الإنجليزي .

وفي المنصورة ـ التي عمل بها مدرساً واصل نشاطه الأدبي ، فكتب عدة أعمال أدبية ، مثل مسرحية (أخناتون ونفرتيتي) التي كتبها بالشعر المرسل ، منضجاً بذلك تجربته في هذا الميدان ، حين ترجم مسرحية (شكسبير) ، و (روميو وجولييت) إلى العربية في شعر مرسل ، ليؤكد مقدرة اللغة العربية في هذا الميدان .

وكتب في المنصورة عدة مسرحيات ، من أهمها (الثائر الأحمر)، و (سلامة القس) .

وفي سنة ١٩٥٠ انتقل إلى القاهرة ، مواصلاً نشاطه الأدبي ، فبدأ نجمه يلمع في سماء الأدب . وفي غرة رمضان سنة ١٣٨٩هـ الموافق ١٠ من نوفمبر سنة ١٩٦٩م أسلم روحه إلى بارئها ، ودفن في مقبرة عائلة زوجه المصرية بمدافن الإمام بمصر .

لمزيد من التفصيل راجع (علي أحمد باكثير حياته ، شعره الوطني والإسلامي) للدكتور أحمد عبد الله السومحي ، إصدار النادي الأدبي الثقافي بجدة ، و (مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر) للدكتور إبراهيم عوضين طبع القاهرة ، و (ديوان علي أحمد باكثير) تقديم وتحقيق الدكتور محمد أبو بكر حميد طبع الدار اليمنية للنشر والتوزيع .

فى سنة ١٣٥٢ هـ ١٩٣٣م ذهب باكثير إلى مكة ليؤدى فريضة الحج ، وفى جوار الكعبة المشرفة ، استشرفت نفسه أن تتخلص من أوزارها ، وتتخفف من أثقال الحياة المعقدة ، وتنفض عنها ما ران عليها من أصداء ، وتفر من ماديات الحياة العصرية الكثيفة وتتوب إلى الله خالصة .. فتجاوبت مشاعره مع نفسه ، وحلقت به فى سماوات هذا الجو الروحانى ؛ تمده منه بشىء من نسائم الحياة الحقيقية ، التى تعبق برائحة الراحة والأمان ، والتى تحمل من إشعاعات الرضوان ما تكشف به أمام البصائر أخطار ما تخفيه ماديات الحياة ، فحركت فيه وثبات الآمال ، وجسمت الأحلام والأمانى وشخصتها ، بعد أن أسقطت عنها ما شابها من أكدار ... !

وفى غمرة هذه المشاعر الفياضة رأى باكثير فى هذا الجو القدسى الباهر نجمة الأمل تبدد من نفسه ظلمات كثيفة أناخت بكلاكلها على قلبه ، حتى كادت تقضى عليه ، وتقصيه بعيدا عن ميدان الإيمان الرحيب ، ويجتر آلامه ، ويستبد به القلق ، فينزف كل مصادر الخير فيه . !

لقد رأى الشاعر فى جوار الكعبة المشرفة ، نجمة تشع فى نفسه الأمل من جديد ، فتعلق بها يستهديها الطريق المستقيم ؛ رجاء أن يتخلص من شقاء الحياة ، وأن يجد فى إشعاعها ما يبدد ظلام الحياة القارس ، وينجو بنفسه من برد الشتات إلى دفء الايمان ، ويأنس إلى نور الحقيقة الغائبة البازغ منها ، فيبدد عن عقله ما تسرب اليه من شكوك وريب !

فما كان من الشاعر الشاب ابن الخامسة والعشرين ، إلا أن يسلم نفسه ـــ بكل أبعادها ـــ لتجربته الذاتية تلك ، فتمزج فى دفقات شعورية وجدانية موارة ، دفعت الشاعر ـــ بما أوتيه من موهبة تعبيرية مع ما تلقاه من سابقيه على هذا الطريق من تجارب ـــ فقدم للعربية تلك القصيدة ، مهديا إياها إلى روح والده الكريم ، ليقوم هو ـــ بدوره ـــ بتقديمها بين يدى صاحب الذكرى محمد ﷺ ؛ لما يتوسمه فى أبيه من إحسان وتقوى ، ورطابة لسان بذكر الله ، وتقريرا منه لذلك جعل عنوانها (نظام البردة) ، إيماء إلى أثر البوصيرى والبارودى وشوقى وغيرهم فيه .

وهكذا .... استطاع باكثير على مدى خمسة وخمسين ومائتى بيت ـــ أن يمزج واقع الأمة الإسلامية ـــ كما يراه ـــ بأحداث التاريخ الماضية ، فى محاولة ليقدم صورة للمستقبل الإسلامى الذى يرجوه .

وبذلك جاءت القصيدة تعبيرا صادقا عن واقع المسلمين ، وتصويرا للمستقبل الذى تحمله آمال المخلصين للأمة .. على الرغم من أن المقصد الأساسى للقصيدة هو الحديث عن سيدنا محمد ﷺ ، حديثا يكشف عن بعض شمائله ومناقبه وآثارها فى الأمة على مدى أربعة عشر قرنا .

ومع مطلع القصيدة تبدو استقلالية الشاعر عن سابقيه ، حيث لم يلتزم المقدمة الطللية ـــ على اختلاف مذاقها ـــ ولكنه يشغل بواقعه وواقع الأمة الإسلامية ، وما يستشرى فيه من

ظلام يتخبط به السارى ، حتى يكاد الشاعر لا يعرف نفسه مما يطويه من أمواج هذا الظلام الدامس الذى يرين على عقله وقلبه ، فلولا تلمسه جسمه لتأكد لديه أنه غير موجود !

والشاعر ـ إذ تمور نفسه بهذه المشاعر والأحاسيس ـ تبدو لعينيه فى حالك الظلام إشعاعة وانية من أمل ، فيتوجه إلى تلك الإشعاعة راجيا أن تكون دليله المنقذ فى هذا الظلام الحالك ، فيقول :

يا نجمة الأمل المُغْشِىِّ بالألَمَ ... كونى دليلى فى محلولك الظلم[1]

فى ليلة من ليالى القر حالكة ... صخابة بصدى الأرواح والديم[2]

دجى تتالى ، كأمواج المحيط بها ... عقلى ، وقلبى ، وطرفى ، كل ذاك عمى

أكاد أرتاب فى نفسى فأنكرها ... لولا مسيس جسمى غير متهم

فى نفنف هائل ، جم مزالقه ... رهن الحياة به فى زلة القدم[3]

وهكذا .. نبه الشاعر ـ من أول الأمر ـ إلى ما تضطرب به نفسه من حيرة وتوجس ، يكاد الشك معهما يفقده إحساسه بوجوده ، كما نبه إلى توجهه الاستقلالى فى مدحته ، على الرغم من إعلانه الصريح فى العنوان ، عن التزامه بمحاذاة البردة .

وينطلق الشاعر من الوصف المجمل لمعاناته النفسية .. إلى التفصيل النسبى ، الموضح لمنشأ هذه المعاناة ، فيذكر أن خشية المزالق تساوره على طريق لا يأمن سالكه الزلل ، لما ينتشر فيه من الأهوال ، فسالكه مهدد بتلك الأهوال ، ومجتنبه مهدد بالموت ، ولذلك لا يملك إلا أن يكرر توجهه إلى نجمة الأمل بالدعاء والرجاء أن تشرق لتنير له السبيل ، فإن نجاته متعلقة بنورها وحدها ، وحياته مرتبطة بها أوثق ارتباط ، حتى أصبحت هى الحياة نفسها ، ولولاها لأطبقت عليه الهموم والأسقام فضيقت عليه سبل العيش .

ولا عجب فى تحميل نجمة الأمل هذا كله ، فهى التى بإيماءتها تفتح أبواب الآمال على مصراعيها أمام كل من ضاقت به السبل ، حتى كاد اليأس يقتله ، فتنبئه بإيماءتها تلك أن ما أصابك زائل ، وأن ما أصابك يوشك أن ينقشع ، وأن خير علاج لليأس هو التفاؤل ومواجهة الشدائد بالابتسام وأسباب السرور ، وذلك فى قوله :

على طريق كحد السيف ، مسلكُها ... هولٌ ، وحَيْدى عنها الموتُ من أمم[4]

فأشرق وأنيرى لى السبيل ، فما ... لى غير نورك من مَنْجى ومعتصم

---

(١) المغشى ـ بفتح فسكون فكسر ـ : المغطى ، المحلو لك : الذى اشتدت حلكته وسواده كالمحترق .

(٢) القر ـ بالفتح ـ : البرد ، الصخاب : متلاطم الأمواج ، الصدى : رجع الصوت ، الديم ـ جمع الديمة ـ : السحابة الممطرة الدائمة المطر .

(٣) النفنف : المرتفع بينه وبين الأرض مهوى : والمفازة البعيدة .

(٤) الحيد ـ بفتح فسكون ـ : الميل ، يقال : حاد عن الطريق : إذا مال عنه . الأمم ـ بالتحريك ـ : القرب ، والبين من الأمور .

أنت الحياة ، ولولا أنت ما اتسعت ... مضايق العيش بين الهم والسقم
تلوِّحين لمن ضاقت مذاهبه ... وأوشك اليأس يلقيه إلى الرجم[1]
أنْ هذه نوبة فى الحال زائلة ... ودون بضع خطى مارُمْته فقم
والوهم أمتن أسباب الحياة ، له ... آثاره فى سرور الناس والألم

وإن هذه المعاناة لتبلغ بالشاعر درجة تفعم قلبه بهموم تجعله كالبركان الذى يقذف بالحمم ، حتى إنه ليئن من ثقل الآمال التى يضطر إليها أمام وطأة ما يجيش به من الهموم ، على ما يصوره قوله :

يا ويح قلب بجنبى ، لا هدوء له ... يجيش بالهم ، كالبركان بالحُمم[2]
يئن من ثقل الآمال تبهظه ؛ ... أن الهموم رسالات من الهمم[3]

واقع الأمة العربية :

ثم يأخذ فى الإفصاح عن أسباب تلك الهموم الموئسة ، فيذكر أنه ينظر بعين التأمل إلى العروبة ـ التى أصابها الزمان بالبؤس بعد العز والرفعة ـ فيجد شعوب الغرب قد تقاسمتها ، بقصد القضاء عليها ، فأصبحت خاضعة ذليلة أمام قراراتهم ، فهى تساق كما تساق الأنعام والشياه .. ويذكر أن ينظر إلى الدين ، فيرى الأعداء يفتكون به ، ويصيبونه بشتى ألوان المصائب ، حتى تجرأ هؤلاء الأعداء ، وجاهروه بالعداوة ، وأصبحوا يكيدون له بيننا فى وضح النهار ، على مرأى ومسمع من علماء الأزهر ، الذين رصدوا ـ فى الحقيقة ـ للدفاع عنه ، ومنعه من تجاوزات المعتدين .. وأنه يتأمل واقع العرب فيجدهم غارقين فى الجهل والفوضى ، لا تقوم حياتهم على نظام ، ولا يحافظون على عمل ، ولكنهم يتفننون فى البحث عن الطعام . وتصنيفه ، مهملين ما تقتضيه الحياة ، فاستبد بهم الاختلاف ، حتى مزقهم ، فتركهم كيانا ضعيفا وانيا .. فقال :

أرنو إلى (يعرب) ، والدهر يعرضها ... رواية البؤس ، بعد العز والنعم[4]
تقاسمتها شعوب الغرب تدفعها ... إلى المهالك ، سوق الشاء والنعم
وأرمق (الدين) ، والأعداء تُوسعه ... فتكا ، يضاف إلى أدوائه القُدم[5]

---

(١) الرجم : بالتحريك ـ : القبر ، والبئر ، والتنور .

(٢) جاش القلب : غلى غيظاً ، وجاشت العين : فاضت بالدموع ، وجاشت النفس : اضطربت من حزن أو فزع ، الحمم ـ بضم ففتح ـ : كل ما احترق من النار .

(٣) بهظه الأمر ـ بالتحريك ـ : شق عليه .

(٤) رنا إليه : أدام النظر فى سكون طرف . يعرب ـ بفتح فسكون فضم ـ : هو ابن قحطان ، أبو اليمن كلهم ـ وهم العرب العاربة ـ نشأ إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام معهم فتكلم بلسانهم ، فهو وأولاده : العرب المستعربة . والمقصود هنا : الأمة العربية جميعها .

(٥) رمق الشىء : أتبعه بصره يتعهده وينظر إليه ويرقبه ، أوسعه فتكاً أو ضرباً : زاده منه وكثره له . الأدواء ـ جمع الداء ـ : المرض ، والقدم ـ بضمتين ـ جمع القادم ـ : يقصد الأمراض القادمة على الدين من خارجه .

يُكاد فى داره ، ظهر النهار ، على | مرأى العمائم من أهله والحمم[1]
وأرجع الطرف فى (الأحقاف) غارقة | فى الجهل فوضى بلا عمل ولا نظم
تفننت فى ملاذ العيش تاركة | ما تقتضيه ، فلم تفطر ولم تصم
والخلف محتكم فيها يمزقها | حتى يغادرها لحما على وضم[2]

عندئذ يتساءل الشاعر مستنكرا أن يتمكن أحد ذو حس حيوى على القرار مع هذه الحياة الفارغة من كل قيمة ، الخاضعة لكل أسباب الهزيمة ، بحيث لا يجد الإنسان الكريم له مكانا مع تلك الأحوال التى يذوب لها قلب المخلص ، ويمتزج دمعه بدمه ، حسرة على وطنه المنهك المضاع .. ويتمنى أن لو عثر على الوسيلة التى تدفع به إلى العلياء بعد أن اشتد شوقه إليها ، ولكنه يقف عاجزا عن اقتحام الصعاب التى تمنعه عنها ، حتى أصبح شوقه إليها ، وعجزه عنها يعذبانه عذابا أليما مضطرما .

كيف القرار على حال يذوب لها | قلب الكريم ، ويجرى دمعه بدم!
ياليت شعرى! أللعلياء من سبب | ألفيه يقذفنى منها إلى القمم!
شوق إليها ، وعجزى عن تسلقها | يعذبانى عذاب الويل والضرم!

ومع استغراق الشاعر فى هذا الخضم الزاخر من الهموم النفسية المتولدة من تمثله ما حاق به وبأمته وبدينه من أعدائه وأبناء جلدته معا .. أومأ إلى أن شواغله الواقعية تلك كانت أقوى من شواغله التقليدية التى تعود الشعراء أن يجعلوا منها مطالع لقصائدهم ، حيث يقفون على أطلال الأحباب ، ويجترون ذكرياتهم معهم .. وليس ذلك لأنه تجاوز مراحل الحب ، وما يستلزمه من بكاء وأسى لفراق من أحب ، فقد استبدل بهذا الحب حب أمته ، واستبدل بشواغله بما يتصل بتلك العلاقات الشخصية شواغله بأمته وبدينه ، وبما أصابها فى هذه الآونة من مصائب وكوارث تنبض بالأسى ، وتفيض بالآلام .

ومن هنا .. قرر الشاعر أنه إذا ابتدأ مدحته باكيا ، فهو لا يبكى ما بكاه غيره من الشعراء من فراق محبوب ، أو دروس معالم ، أو نأى جيران ، ولكنه يبكى استسلام أمته للجهل بعد ما تخلصت منه ، ووقوعها فريسة الظلم والفوضى ، فهو ليس الشاعر المقطوع عن أمته ، أو المعزول عن مجتمعه ، أو المستغرق فى عواطفه النسائية ، ولكنه الشاعر ذو الطموح الإنسانى ــ بما يقوم عليه من وفاء وحفظ عهد ــ الذى لا يستطيع أن ينسى آلامه الشخصية إذ فقد زوجة وهى فى مقتبل عمرها .. فى زحام آلامه العامة تلك ، فهذه وتلك قد أناخا بكلا كلهما عليه ، لأنه إنسان سوى يضم جوانحه على العاطفتين معا ، ويؤمن بأن ذلك هو التوازن مع فطرة الخالق :

---

(١) العمائم : يقصد لابسى العمائم وهم علماء الأزهر ، الحمم ــ بضم ففتح ــ جمع الحميم ــ : القريب الذى توده ويودك
(٢) الوضم ــ بالتحريك ــ : كل ما يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير أو نحو ذلك ، يوقى به من الأرض .

والحب يُقصِر من خطوى ، وهل عرفت (معبودة الحب) مثلى عابداً صنمى
أوفَى وأقوم فى هَجْر وفى صلة منى بحفظ عهود الحب والذمم؟!
بُليت منه بخطب لا عزاء له إلا اللقاء بدار الخلد والسلم
ولن يزال وطيس الحب فى كبدى يرمى بذى شرر كالنصر مضطرم[1]
وما الحياة بلا حب سوى جنف عن فطرة الله ، أو ضرب من العدم[2]

فليس تركه التمهيد لمدحته بالحديث ناشئا عن جفاف عاطفى ، ولا عن جفاء فى الطبع ، فالحب الإنسانى فطرة الله التى تلازم الحياة ، ولكنه ترك ذلك لاشتغاله بما بلى به فى حبه ، وبما أصابه فى أمته!

إن المعاناة النفسية هى التى وجهت الشاعر تلك الوجهة ، وهى التى تحرك أشجانه ، وتثير ذكرياته العامة!

وتحت تأثير هذه المعاناة ، ينظر إلى ما مضى من عمره ـ بعد أن يتلفت وراءه ـ فيرى أن أوائل الشباب قد ندت عنه ، دون أن ينال ما يروى ظمأه من حوض الحياة القريب من تناوله ، فقد مضى من العمر خمس وعشرون عاما ، كما يمر الطيف فى الحلم ، من غير أن يدرك شيئا من مقاصده ، فلا يملك إلا التحسر على ما فات ، وردع نفسه عن مواصلة السعى وراء المطامح ، منكرا الطمع فى تحقق المقاصد بعد فرار الشباب ـ بما يلامسه من طموح ـ من بين يديه ، وما ذلك إلا لأن الشيب يصيب الإنسان بجبن يصده عن اقتحام العقبات ، سعيا فى طلب المجد ، فالشباب هو الآلة المعجزة التى يصل بها الإنسان إلى ما يريد . وفى ذلك يقول :

ويح الشباب ، وقد ندت أوائله والحوض دونى ، وإنى لا أزال ظمى!![3]
(خمس وعشرون) لم أدرك بها غرضا مرت علىَّ مرور الطيف فى الحلم!
ياويلتاه! أأبغى أن أسود إذا ولىَّ الشباب ، وما فيه من العَرم؟![4]
هيهات .. هيهات ، إن الشيب مجبنة تصد عما يريد المجد من قُحم![5]
إن الشباب براق المجد يركبه إليه كل فتى شيحان معتزم[6]

عندئذ يسائل الشاعر نفسه ـ مستنكرا ـ عن سبب وقوفه مستسلما للدهشة ، مستغرقا فى الندم ، بعد أن تكشفت له حقيقة الحياة ، ورأى نور الله ـ بما يحمله من الآمال العراض ـ يوم

(١) الوطيس : حفيرة يختبز فيها ويشوى .
(٢) الجنف ـ بالتحريك ـ : الميل والجور .
(٣) ويح : كلمة ترحم وتوجع ، ند البعير : نفر وشرد ، وندت الفكرة عنى : غابت عن ذاكرتى ، وند الشباب : ولى .
(٤) عرم الصبى علينا ـ مثلثة ـ : أشر ومرح ، أو بطر ، أو فسد ، أو اشتد وشرس .
(٥) القحم ـ بضم ففتح ـ : جمع القحمة : الأمر العظيم الشاق لا يكاد يركبه أحد .
(٦) البراق : اسم المطية التى كان بها الإسراء والمعراج ، ويطلق على كل دابة مسرعة ، الشيحان ـ بفتح فسكون ـ : الجاد الحريص .

الوقوف بعرفة ، حيث تخلص من أدران الحياة المادية ، وتجرد من معاييرها ، وأصبح أمام الله الواحد الحكم ومعه تلك الجموع التى أتت من كل فج ، وكلهم وقوف خاشعون ، يتجهون إلى الله مولاهم ، ودموع الندم والتوبة تنساب من عيونهم ، منذ أعادت إليهم البطحاء ذكريات المصطفى ﷺ حية زاخرة .. إذ يقول :

فمـا وقـوفك مشدوهـا ، تردد ما ... بين النكوص على الأعقاب والقدم[1]
وقـد بدا لك نور الله متقـدا ... (يوم الوقوف) ، أمام الواحد الحكم
حيث الجمـوع خشوع يلجـأون إلى ... مولاهـمُ بدمـوع التـوب والنـدم
مذ شاهدوا هذه (البطحاء) زاخرة ... بالذكريـات (لطـه) سيـد الأمم

الدعوة لزيارة المسجد النبوى :

ومن هنا ينطلق الشاعر فى طريقه للتخلص من مقدمته إلى موضوعه الأصيل ـ على الرغم من تلك العلاقة الوطيدة بين المقدمة والموضوع ـ على عادة السابقين من ركوب ناقة تخلصه مما هو فيه لتوصله إلى ممدوحه !

والشاعر هنا انتهز فرصة الحديث عن الوقوف بعرفات ، ومايستتبعه من ارتحال ، ليأخذ طريقه فى التخلص كى يرتحل من هذا الحديث الشاكى الباكى ، إلى الحديث عن سيدنا محمد ﷺ !

وبذلك .. جعل التخلص الفنى وسيلة للتخلص النفسى ، فدعا إلى جمع المتاع ، وركوب ظهر مطية سريعة لينة مريحة ، لا تحتاج من راكبها إلى بذل جهد فى حثها على السير ، لأنها مثل الشاعر ومدعويه ، تسير مدفوعه بقوة جذب ذاتية ، حتى بلغت السرعة براكبها أن أصبح يرى الأشياء على عكس واقعها ، إذ يرى كل ما يقابله فى رحلته مدبرا ، كأنه منهزم يلحق بمنهزم وكأنما المطية السابحة قد انطلقت هذه الانطلاقة لامتلائها بالغيظ ، فلم تملك إلا أن تندفع فى قوة لتخفف عن نفسها من آثار نار الشوق المحتدمة فى أعماقها ، أو كأنها باحث مستكشف ، انطلقت فى تلك السرعة الهائلة لتسبق إلى الأنباء المجهولة ، مخلفة وراءها الكثير ممن لا يقدرون على مثل سرعتها ، فكانت فى طى البلاد وفى وقوفها على المجاهل كالمؤرخ الذى يمر بذاكرته ـ فى لمح البصر ـ على مختلف الأعصار والأمم .

وهكذا .. قاد الشاعر متلقيه معه ـ فى تلك السرعة الخاطفة ـ إلى مدينة رسول الله ﷺ ، ثم أخذ يهيئه بكل أسباب الأدب ، كى يؤدى الزيارة لمسجد رسول الله ﷺ ، فدعاه إلى استجماع الأحوال المناسبة لجلال الموقف من تهيؤ قلبى ، ونفسى ، وجسمى ، ثم يدخل المسجد بقلب خاشع ، وثغر مبتسم ، ويعمد إلى الروضة الشريفة ليصلى ركعات يحيى بها المصطفى

(١) شدهه الأمر : أدهشه ، النكوص : الرجوع ، نكص على عقبيه : رجع عما كان عليه .

ﷺ ، ويلقى عليه تحية السلام ، ثم يأخذ فى اجترار سيرته ﷺ ، حتى يطوف تاريخه بذاكرته أمام روضته المشرفة ، فيرى الكمال الخالى من الشوائب والأوهام ، حيث يقول :

فاجمع متاعك ، واركب ظهر سابحة ... هول ، تسير بلا رحل ولا لجم[1]
تجرى فتبصر بالأشياء مدبرة ... كأن منهزما فى إثر منهزم
كأنما امتلأت بالغيظ فانطلقت ... تنفسًا عن شواظ منه محتدم[2]
أنبَتْ (ويخلق ما لا تعلمون بها) ... وغَيرُها من بنات العلم من قدم[3]
تطوى البلاد كما مر المؤرخ – فى ... لمح – بمختلف الأعصار والأمم
حتى إذا وجدت عيناك نفسك فى ... ربوع (طيبة) ذات المنهل الشبم[4]
فيمم (المسجد الميمون) فى أدب ... بقلب مدكر فى ثغر مبتسم[5]
واعمد إلى (الروضة) الغَنَّا فحىٍّ بها ... خير الخلائق من عرب ومن عجم !
قل : السلام على فخر الوجود ، على ... خير النبيين طه ، المفرد العلم
واستجل سيرته قدام روضته ... تر الكمال بلا زيغ ، ولا وهم

ويواصل الشاعر مسيرته ، فينتقل من وصف ما يستقبل به الزائر مواطن الذكريات فى مسجد الرسول ﷺ .. إلى وصف ما يلابس الإنسان فى أثناء تلك الزيارة من أشواق وردود فعل ، ففى هذا المكان المشرف ، وأمام هذا القبر الفواح ينهض الشوق مجردا ماثلا ، حتى كأنه كائن شاخص ، ينبىء بما يكون عليه الزائر من حيرة واضطراب حول ما يعبر به عن مشاعره تلك ، أيعلن عما يكمن داخله من تعلق به وولوع بصحبته والمثول أمامه ، أم يترك لعينيه العنان فتفيض بدموعها معبرة عن هذا المكنون ، أم يستسلم لانتفاضات ضلوعه كأن بداخلها ما يود أن يقفز فرحا محييا ، مصورا أشواقه ؟!

إن هذا الموقف الجليل يصاب فيه البليغ بالبكم فلا يملك ما يعبر به عن مشاعره . وفى ذلك يقول :

هناك .. حيث يقوم الشوق فى خجل ... لدى الجلال ، جلال المجد والكرم
تبدى ولوعك ؟ أم تذرى دموعك ؟ أم ... تهفو ضلوعك للآيات والعظم[6]
وما تبث من الأشواق فى حرم ... يصاب فيه بليغ القول بالبكم ؟!

(١) الناقة الهول : التى تفزع من سرعتها وقوتها ، الرحل – بفتح فسكون – : ما يوضع على ظهر البعير للركوب .
(٢) الشواظ – بضم الشين وكسرها – : اللهيب لا دخان له . احتدمت النار : اتقدت .
(٣) أنبى : نبا عن مكانه ولم يستوفى المكان المناسب له .
(٤) المنهل الشبم : ذو الماء البارد .
(٥) المدكر : المتذكر .
(٦) الولوع : التعلق الشديد بالشىء ، هفا الطائر : خفق بجناحيه .

اجترار طرف من سيرته صلى الله عليه وسلم :

وعندما يدرك الشاعر أنه قد أفرغ الشحنة الوجدانية ، التى أفعمت بها نفسه فى رحاب سيدنا محمد ﷺ ، يعود إلى الذاكرة ليحرك الكامن فيها من سيرته ﷺ ، حتى يتمكن من نفخ الروح فى الموقف ، وبعث الأحداث من طوايا التاريخ ، كى يشاهد وقائعها ، فيمتع نفسه برؤية المصطفى ﷺ يتكلم ويتحرك ويتنفس .

ومن هنا .. يأخذ فى عرض بعض ما يرى من وقائع وأحداث ، كى يشرك المتلقى معه فيما يراه ، فيقول : كان الرسول هنا يقدم للناس النور الهادى فى عبارات واضحة بينة ، كان هنا يلقى نصائحه على المسلمين ، فيطربون لها ، ويقبلون عليها ، وكان هنا يفصل فى الأمور ، ويقضى فى المشكلات بأحكام عادلة ، وكان هنا يرتب جيوش المسلمين ، ويعدهم الإعداد المحكم ليدفع عن دين الله وعن المسلمين عدوان المعتدين ، وكان فى هذا المكان يجلس بين أصحابه يستشيرهم فيما يطرأ من مشكلات ، وفيه يستقبل طالبى المعروف بما أنعم الله عليه ، وفيه يقابل وفود القبائل المختلفة ، موضحا لهم أمر ربه بوجه باش وثغر مبتسم ، ومن هذا المكان كان يبعث برسائله إلى الملوك والرؤساء يدعوهم فيها إلى دين الله ويحملهم مسئولية أقوامهم .. فى هذا المكان الذى ضم تلك الأحداث العظام .. دفن أعظم رجل عرفته الدنيا ، وأفضل مخلوق :

كان الرسول هنا يملى هدايته ... على الأنام ، بلا عى ، ولا لسم[1]

كان الرسول هنا يلقى نصائحه ... فيطربون لها أشجى من النغم[2]

وكان يقضى هنا بين الورى حكما ... أكرم بأحمد من قاض ومن حكم

وكان من ههنا يزجى كتائبه ... لنصرة الدين من أصحابه البُهم[3]

ويستشيرهم فى المشكلات به ... وفيه يستقبل العافين بالنَّعَم[4]

وفيه يلقى وفود الناس آتية ... من كل صوب ، بثغر منه مبتسم[5]

ومنه يبعث بالذكرى رسائله ... ورُسْلَه لملوك العرب والعجم

هنا .. ثوى رجل الدنيا وواحدها ... هنا .. ثوى خير من يسعى على قدم

والشاعر بهذا الاستذكار التاريخى ، حريص – كما رأينا – على أن يستحضر الأحداث والمواقف بحيويتها وحركاتها ، وكل ما لابسها من خلجات شعورية ، وتدابير عقلية ، حتى لكأنه ملك آلة الزمن ، فرجع بها إلى هذه المرحلة ، ليعيش فى صحبة رسول الله ﷺ ، فينبض

(١) العى – بالكسر – : ضد الإبانة فى الكلام ، اللسم – بالتحريك – : السكوت عيا أوحيا .

(٢) الشجى : الاهتمام والحزن .

(٣) أزجى القائد كتائبه : ساقها ودفعها ، البهم – بضمتين – : الشجعان الذين يستبهم مأتاهم على أقرانهم ، والمفرد بهيم .

(٤) العافون – جمع العافى – : كل طالب معروف ، النعم – بالتحريك – : المال السائم ، وأكثر ما يقع على الإبل .

قلبه بما كان ينبض به قلب كل واحد من صحابته ﷺ ، وبذلك يتمكن من تقديم الصورة الحية الصادقة ، فلا يجد صعوبة فى مواصلة رحلته التى يزمع أن ينهض بها ، وهو مطمئن إلى أن أحدا من المتلقين لا يخالجه أدنى شك فيما يقدم من معالم الصورة المحمدية .

ومن هنا .. يأخذ الشاعر طريقه فى مدح رسول الله ﷺ ، فيبدأ بالتعريف به من جهة أصوله ، إذ اختاره الله من نسل إبراهيم خليل الرحمن ، من فرع إسماعيل الذبيح بن إبراهيم ، من عدنان الكريم ، من كنانة ، من مضر ، من قريش ، ثم من هاشم الجواد ، فمن جامع الفضل والشيم عبدالله بن عبدالمطلب ، فكانت تلك الأصول عقدا نظيما من النسب لا يماثله عقد آخر ، حتى لكأنما الخلق روض ، والرسول ﷺ هو فى هذا الروض خلاصة عطره والفواح ، فمذ ولدته الدرة العصماء آمنة بنت وهب ، أشرق الكون من أنواره ، واهتز أهل السماوات فرحا بمقدم من علق به إنقاذ الكون مما ساءه من آثام ، فالحور تغنى معلنة سرورها ، وملائكة الرحمن تضاعف من تسبيح ربها شكرا له ، وإظهارا لبشرهم بمجىء ماحى الظلم والظلام ، وفتحت أبواب الجنان مشرقة مرحبة ، وتجلى الله على الكون برحماته .. وذلك قوله :

اختاره الله من نسل « الخليل » ، فمن ... فرع (الذبيح) ، فمن (عدنان) ذى الكرم
فمن (كنانة) فى العلياء من (مضر) ... فمن قريش ، فمن (عمرو) الندى الهشم[1]
فالأبيض الغُر ، والميمون طالعهُ ... فجامع الفضل (عبد الله) والشيم
عِقد من النسب العالى يفوق على ... عِقد من الدر والألماس منتظم !
كأنما الخلق (روض) والرسول به ... (خلاصة العطر) من أزهاره الفُغُم[2]
جاءت به الدرة العصماء (آمنة) ... فأشرق الكون من أنواره العمم[3]
واهتز أهل السماوات العلى طربا ... بمنقذ الكون مما فيه من أثم[4]
وغنت الحور أصوات السرور على ... مقاعد النور فى قدسية النغم
وسبحت ربها الأعلى الملائك عن ... شكر وبشر بماحى الظُلم والظُلَم
وأشرقت رُحُب الجنات وانفتحت ... أبوابها ، وتجلى الله بالرُحُم[5]

من شمائله وصفاته :

والشاعر ــ حين يعرف برسول الله ﷺ ــ يرصد بعين الفنان المسلم من أطوار حياته ﷺ ما يومىء الى علاج مشكلات المسلمين فى هذا العصر الحديث ، فهو مدح موظف ، لا يقف به الشاعر عند حدود اجترار الذكريات ، أو استذكار الأحداث والمواقف ،

(١) عمرو الندى : هاشم بن عبد مناف ، والهشم ـ بفتح فكسر ـ : السخى .
(٢) الفغم ـ بضمتين ـ جمع فغوم ، مبالغة من فغم الطيب فلانا ـ بالتحريك ـ : ملأ خياشيمه .
(٣) العمم : العامة .
(٤) الأثم ـ بالتحريك ـ : الخطيئة .
(٥) الرحم ـ بضمتين ـ الرحمة .

ولا يقصره على تقصى فضائله ﷺ وإبرازها فحسب ؛ ولكنه فى مسيرته الفنية هنا يعيش بمشكلات الأمة فى صحبة رسول الله ﷺ .

ومن هنا ... نرى أى الشاعر جعل من التعريف بأصوله ﷺ تمهيدا لربط الأمة ـــ بمشكلاتها فى االقرن العشرين ـــ بمنقذ الانسانية منذ مبعثه فى القرن السابع الميلادى

وعلى هذا الطريق واصل الشاعر مسيرته فقدم لنا محمدا ﷺ من خلال شمائله وسجاياه ، فاهتم بإبراز صفاته المعنوية ، ولم يقدم من صفاته الجسدية إلا ما يدعم غايته .

فعلى الرغم من أن محمدا فى طفولته وصباه وشبابه لم يكن يعلم بما هو مذخور له .. سار بتوجيه ربه فى الطريق الذى يعد لتخريج الأنبياء المرسلين ، فقد حلاه الله بكل خلق عظيم ، وشيمة عالية ، حتى كان سلوكه مثار حديث قومه ، فكان بينهم شامة بيضاء ناصعة فى ثوب أسود فاحم السواد ، بما برز له من استقلال ذاتى فى كلامه ، وفى لهوه ، وفى شتى ضروب الحياة العامة . فلم يتابعهم فيما هم عليه من أساليب الحياة إلا أن يكون خيرا ؛ فما شرب خمرا كما كانوا يشربون ، ولا لها كما كانوا يلهون ، ولا عكف على صنم كما كانوا يعكفون ، ولا عرف عنه الكذب فى يوم من أيام حياته .. وفى ذلك يقول :

ما كان يعلـــم أن الله مرسلــــه ... يومـا لأمتـــه ، دع سائــر الأمم

لكـن مولاه قد حلاه من صغـر ... بكـل عال من الأخـــلاق والشيم

فكـان فى قومـه بدعـا يبـاينهم ... فيما يجيئون من فكر ومن كَتَـم[1]

وصانـه الله عمـا هم عليـه فلـم ... يشربْ وَيَلْهُ ، ولم يعكف على صنم

لم يعرف الكـذب يوما ما على أحد ... فكيف يعرفه عن بارىء النَّسِم ؟!

المرأة ودورها البناء فى الإسلام :

وكانت خديجة بنت خويلد ـــ على غناها ووعيها وذكائها ـــ فى مقدمة من التفت إلى تميزه ﷺ ـــ على وجه العموم ـــ وإلى ما هو عليه من خلق تثير الدهشة والإعجاب ، فرأت فيه خير زوج ، ولم تتردد فى السعى إلى ذلك ، ومكاشفته بمأربها ، فكان عرسهما من أبرز العلامات الحيوية ؛ إذا كان ذلك من تدبير الله تعالى لتكون هذه الزوجة خير عون له ﷺ عند بعثته ، لشد أزره بعباراتها الواثقة ، ولتهدىء روعه عندما جاءها فزعا بعد اللحظة الأولى من استقباله رسول الوحى ، بما ذكرته به من عظيم شمائله ، وكريم أخلاقه ، ومستقيم خطوه ، اذ قالت له : لا تخش أذى ، فمثلك لا يصيبه الله بأذى ، لأنك تفعل كل خير ، فأنت أحمل الناس للضعيف ، وأعونهم على النوازل ، وأحناهم على ذوى الرحم .. !

لقد أثبتت خديجة بتلك الكلمات أنها من عظيمات النساء ـــ إن لم تكن أعظمهن ـــ فقد بددت عنه ﷺ كل أسباب الشك والخوف ، مؤكدة بذلك دور المرأة فى الحياة ، مقررة أن

(١) النكر ـ بضم فسكون ـ : الأمر المنكر ، والكتم ـ بالتحريك ـ : قصد به الانصراف عن المكارم ، يقال : كتمه عن الأمر : صرفه

حاجة الأمة إلى المرأة لا تقل عن حاجتها إلى الرجل ، داعية كل امرأة إلى أن تنهض بدورها الفعال فى النهوض بأمتها ، ولا تستسلم لما ورثته عن الأسلاف من انصراف عن الحياة العامة الى حياتها الخاصة المحدودة بالماديات من بحث عن الزينة ، واهتمام بأحدث الأزياء .. إلى غير ذلك ، على ما يقول :

رأت خديجة من أخلاقه عجبا ... وهى الغنية ذات الرأى والفهم
فكاشفته هواها فى تزوجه ... فكان عرسها من أبرك القسم
إذ أصبحت خير عون عند بعثته ... لبث دعوته بالمال والخدم
وهدأت روعه إذ جاءها فزعا ... من بدأة الوحى : أن لا تخش من لمم[1]
فأنت أحملهم للكل ، أعونهم ... على النوائب ، أحناهم على الرحم ![2]
أعظم بها امرأة ، أحيت أناملها ... (محمدا) منقذ الدنيا من الغمم !
كذاك لن ينهض الإسلام من ضعة ... حتى نرى (غيده)ينهضن بالعلم !
كيف النهوض وشق من جوارحكم ... عضو أشل ، وشق غير مُعتزم ؟!

وهكذا .. تخلى الشاعر عن الإيماء ــ فى ربطه الحاضر بالماضى ــ وأعلنها صيحة عالية مدوية ، تصم آذان من يزعمون أن التنوير يقتضى إخراج المرأة عن آداب دينها ، ويوهمون الناس بأن التمسك بالدين يحجر على المرأة ، ويفرض عليها قيودا تشلها عن الحركة ، ويحرم الأمة جهودها ؛ إذ يقرر الشاعر ــ هنا ــ أن التنوير الحق هو الذى يسعى بالمرأة ليجعلها على الطريق المستقيم المنتج ، وينتهز فرصة الحديث عن السيدة خديجة ، فيقدمها مثالا يجب على كل امرأة تحترم نفسها ، وتعى مكانتها أن تحتذيها ، وتنهج نهجها فى العمل الوطنى المثمر الجاد ، الخالى عن تلك الشكليات والمظاهر التى تبهر ولا تفيد ، فما خدعها ثراؤها ومكانتها فى قومها عما يجب أن تبحث عنه المرأة فى الزوج ، حين تتصدى لاختيار من يتزوجها ، وما كانت الإنسان التافه الذى يجرى وراء المتعة الزائلة ، أو المظاهر المادية الخادعة ؛ فقد وفرت لزوجها كل أسباب الراحة ، واستقبلت نبأ بعثته بتصديقه ودعمه ، وبذلت كل جهدها فى معاونته على اجتياز تلك المرحلة ، وقابلت فزعه بتلك الكلمات الصادقة التى كانت بردا وسلاما على نفسه ﷺ ، وظلت هكذا على مؤازرته ومعاونته إلى أن لحقت بالرفيق الأعلى ، رضى الله تعالى عنها .

السلوك المحمدى يقدم الصورة الصادقة له :

ثم استأنف الشاعر مسيرته معه ﷺ ، فأخذ فى تقديم صورة له ﷺ من خلال سلوكياته التى تكشف عما ينطوى عليه من خلال وشمائل ، فهو ﷺ لا يلقى إنسانا بوجه متجهم ،

(١) اللمم ــ بالتحريك ــ : الجنون ، أو طرف منه ، يلم بالإنسان ويعتريه .
(٢) الكل ــ بفتح الكاف ــ : من يكون عالة على غيره ، النوائب ــ جمع النائبة ــ : ما ينزل بالرجل من الكوارث والحوادث المؤلمة .

ولكنه البشر الصادق غير المصطنع ، وكانت عادته ألا يكلم شخصا إلا وهو مبتسم ، وبلغ به كرمه درجة جعلته يعفو عما يصدر من الآخرين من أخطاء فى حقه ، ويقبل عذر من يعتذر ما دامت الأخطاء لا تنتهك بسببها حرمة لله ، فإذا انتهكت حرمة لله كان فى غضبه كالليث الهصور حين يستثار . أما فى الشجاعة فلا مثيل له ، كما يرى حين تتلاقى الجموع ، فاذا توالت الكوارث والنوائب كان أثبت من الجبال الشم وأقوى ، فإذا انفض عنه صحبه رئى وحده كأنه جيش كامل . وفى الكرم لا يلحق به منافس ، فهو يعطى بلا حساب ولا من ولا برم ، فاذا استقبل وفود الملوك أو القبائل وجدوا لديه من الأنس والراحة ما يجذبهم إليه ، أما فى علاقاته بالناس فهو نصير كل بائس محتاج ، لاسيما اليتامى والأيامى ، لم تخدعه كثرة الأموال تحت يده عن حقيقة الحياة ، وكان من دماثة خلقه بحيث لم يعب طعاما قدم إليه ، فإن رغب فيه أكله ، وإن عافته نفسه تركه ، دون اهتمام بشكل الطعام ونوعه ، وبحيث لم يغلظ لخادم فى المعاملة . أما زواجه ﷺ فلم يكن الزواج إلا جزءا من خطته فى الدعوة ، ولم يكن سعيا لتحقيق لذة كما توهم بعض أعداء الإسلام وإلا لما اختار للتزوج تلكم المتقدمات فى السن ، الساعيات نحو الشيخوخة ؛ فقد كان الزواج وثيق الصلة بمنهجه فى الدعوة ، قصد من ورائه كفالة بعض من مات عنهن فى سبيل الله أزواجهن ، أو توطيد العلاقة ببعض القبائل والعشائر . وأما علاقته بالآخرين فقد كانت قائمة على الود والاحترام ، فما تعالى على أحد ، ولا اعتز بمصاحبة حراس أو حشم ، وكذلك كان فى بيته ، فما أنف من مباشرة العمل فى منزله متعاونا بذلك مع زوجه ، فكان يخصف نعله ، ويرفو ثوبه ، مقدما بذلك من نفسه خير قدوة وأحسن أسوة ، وفى ذلك قال الشاعر :

يلقى الأنام ببشر غير مصطنع	ولا يكلم شخصاً غير مبتسم
يعفو ذنوب الورى فى حقه كرما	ويقبل العذر من جان ومجترم
حتى إذا انتهكت لله حرمته	رأيت غضبة ليث هيج فى الأجم[1]
سفر الشجاعة فصل من شجاعته	إذا الجموع تلاقت والوطيس حمى ![2]
يبدو ـ إذا وهت الأركان من جزع ـ	أقوى وأثبت أركانا من الهرم !
وربما انفض عنه جيشه فيُرى	كأنه وحده جيش من البُهَم[3]
يعطى العفاة عطاء غير منقطع	بلا حساب ، ولا مَنٍّ ، ولا بَرَم[4]
ويستميل وفود العرب ، تقدم من	شتى النواحى ببذل المال والنعم

(١) انتهك حرمة الله : نقض العهد وغدر بالمعاهد ، الأجم ـ بالتحريك ـ جمع الأجمة : الشجر الكثير الملتف .

(٢) السفر ـ بكسر فسكون ـ الكتاب الكبير ، الوطيس : المعركة .

(٣) البهم ـ بضم ففتح ـ جمع البهمة : الشجاع يستبهم على قرنه وجه غلبته .

(٤) العفاة ـ جمع العافى ـ : طالب الحاجة ، البرم : السأم والضجر .

يحنـــو على كل ذى بؤس ومتربـــــة	لا سيمـــــا بؤساء الأيم والـــــيتم[1]
يطوى الليالى جوعا بعدمـا جبـيت	له الغنـــائم من نجد ومـــن تُهـــم[2]
ما عاب قط طعامـــــا قدمـــــوه له	ومـــا نعـــــى قط تقصيرا على الخدم
إن شاء يأكلـــه ، أو شاء يتركــــه	أكان مؤتدمـــــا أو غير مؤتـــــدم
ومـــا تزوج تسعـــا كى يلـــذ بها	إذن لما اختـــار من يجبـون للهـــرم
لكنــــه كان يرجـــــو أن يتم به	نشر الهدايـــة فى الأقـــوام باللَّـــدم[3]
كما تزوج من بعض ليكفلهـــــــا	ومـــن تفـــز برسول الله لم تتـــم
يكـــون فى صحبـــه فردا كأصغرهـــم	شأنـــا ، ويمشى بلا صحب ولا حشم
ويخصف النعل ، يرفوالثوب ، يأخذ فى	إعانـة الأهـل ، يسعـــى فى سرورهـــم

ويحس الشاعر أن ما ذكره من الصفات والسلوكيات المحمدية قد يكون موضع دهشة من بعض المتلقين ، فأراد أن يزيل أسباب تلك الدهشة والتعجب ، فذكر أن السر وراء ذلك يرجع إلى أن محمدا ﷺ لم يكن ملكا يعتز بأسباب العظمة ، ويحرص على قيام الفوارق بينه وبين رعيته ، حتى يحفظ لنفسه مكانته .. ولكنه كان مرسلا اختاره ربه ليكون للناس رسول هداية ، جاء قومه بما يهديهم به من آيات وحكم ، وقد بعثه ربه فى وقت اشتدت فيه حاجة الدنيا إليه ، حيث امتلأت الأرض بشتى ألوان الكفر والإلحاد ، حتى ضجت بالظلم ، وخلت تماما من شرعية سماوية تنقذ أهلها من ظلم بعضهم بعضا ، يستوى فى ذلك كل بقاع الأرض من غير استثناء ، أما (أوربا) فقد أصبح أهلها وحوشا تقوم حياتهم على البغى وسفك الدماء ، وأما (الهند) و (الفرس) فقد صاروا غرقى فى الإباحية ، وباتوا موزعين أحزابا لا يهدأ لأحدهم بال مع السلام فلم يكن فى الأرض كلها ركن خاليا من جبار يستعبد الناس المحيطين به ، ويعاملهم كالأغنام ، لا فرق فى ذلك بين من يتشبثون بما توارثوه من أديان شكلية ، سواء فى ذلك القبط واليهود ، والهنود والصينيون بدياناتهم المختلفة ، والرومان بوثنيتهم المتحجرة .. فى ظل هؤلاء وأولئك كان الفساد سائدا ، والشر عاما ، وبراكن الصراع والحروب لا تتوقف عن التفجر ، وحتى لا يقف معارض فى وجه مفسد ، عمدوا إلى الكتب السماوية التى جاء بها الأنبياء السابقون فحرفوها حتى تكون فى خدمة مقاصدهم ، وبذلك داسوا بأقدامهم العدل والآداب والنظم ، فلم يعد بين الناس إلا الفوضى وطغا أهل البغى والطمع على سطح الزعامات والقيادات ، فتمكنوا من التستر بالدين فى تعذيبهم الناس ، واستيلائهم على ما يملكون من مال وعقار ... وقد رسم الشاعر هذه الصورة التى سبقت بعثه ﷺ فى قوله :

---

(١) المتربة : الحاجة والفقر ، الأيم ـ بفتح فسكون ـ : الإقامة بلا زوج بكرا أو ثيبا .

(٢) جبيت الغنائم : جمعت .

(٣) اللدم ـ بالتحريك ـ : الحرم فى القرابات .

لا تعجبوا .. إن (طه) لم يكن ملكا ... بل مرسل ، جاء بالآيات والحكم

وافى على فترة ، والأرض واجفة ... مما بها من صنوف الكفر والحرم[1]

تضج بالظلم ، لا شرع يقوم بها ... من السماء ، ولا من واضع فقم[2]

أما (أوربا) فأهلوها برابرة ... مثل الوحوش ، على بغى وسفك دم

و (الهند) و (الفرس) غرقى فى إباحتها ... والروح من إحن الأحزاب فى ضرم[3]

فى كل ركن من الدنيا جبابرة ... يستعبدون رقاب الناس كالغنم

فى أمة القبط ، فى شعب اليهود كما ... فى الهند، فى الصين، فى الرومان، فى العجم

ساد الفساد ، وعم الشر ، وانفجرت ... براكن الوغى والشحناء والوغم[4]

وحرفت كتب الرحمن ، وامتهنت ... كرامة العدل والآداب والنظم

وأصبح الناس فوضى ، لا يسودهم ... إلا الزعانف أهل البغى والعشم[5]

وعذب الناس باسم الدين واستلبت ... أموالهم للقسوس الفسّق الغُشُم ![6]

لقد ساد الفساد والظلم والحقد كل بقاع العالم ، ولم يعد فى مقدور أحد أن يرد على الحياة رونقها ، أو يطمئن على نفسه من بطش طاغ ، أو ظلم جبار ، أو يعيد الانسان إلى حقيقته ، وتمكن الفساد من كل النفوس ، حتى نفوس أولئك الذين ينتمون إلى الدين ، فسخروا الدين لحماية أطماعهم ، وجعلوا مكانتهم بين الناس وسيلة لاستبدادهم وتمكنهم من رقاب العباد ؛ حتى أصبحت الأرض فى أمس الحاجة إلى الإنقاذ السماوى ، فشاءت حكمة المولى جل شأنه أن يبتعث لهؤلاء الناس من يهدى الضال ، وينقذ المظلوم ، ويعيد العقول إلى استقامتها ، ويقدم المنهج العادل المتوازن ، ويتم ما بعث به الرسل السابقون ، على ما تقتضيه سنة خالق الكون جل شأنه ، من أن تكون الرسالة ملائمة لعقول المرسل إليهم ، متدرجة مع أطوارهم ... !

ومن هنا اقتضت مشيئته سبحانه وتعالى أن تكون رسالته ــ بعد أن بلغ الإنسان رشده فى هذه الآونة ــ قائمة على الدليل المقنع ، والحجة البينة التى تخاطب العقول ، بعد أن كانت فى الرسالات السابقة تعتمد على الخوارق المادية فحسب . !

ولذلك .... كان محمد ﷺ أنسب من يسند إليه أمر هذه الرسالة ، لنشوئه من أمة لم تخضع لإفساد رجال الدين ولا لتحريف الحكام والملوك ، فقد نشأ بين قوم بداة ، أقرب فى

---

(١) الفترة : المدة تقع بين زمنين أو نبيين ، الواجف : المضطرب .

(٢) الفقم ــ بفتح فكسر ــ : الرجل الفهم يعلو خصومه .

(٣) الإحن ــ جمع الإحنة ــ : الحقد والضغن ، الضرم ــ بالتحريك ــ : لهب النار .

(٤) الوغم : الحقد .

(٥) الزعانف ــ جمع الزعنفة بفتح الزاى والنون ــ : ردىء كل شىء ورذاله ، أو القطعة من القبيلة تشذ وتنفرد ، العشم ــ بالتحريك ــ جمع العشمة : الطمع .

(٦) الغشم ــ بضمتين ــ جمع الغشوم : الظالم أشد الظلم .

طبيعتهم إلى الفطرة ، لم تجرفهم العلوم الوافدة عن تلك الفطرة الخالصة المستندة على لغتهم القوية الصافية ، التى كانت أصلح اللغات لأن يختارها الحكيم العليم لغة لكتابه الموحى به إلى هذا الرسول المختار ، ذلك الكتاب الذى استطاع به محمد أن ينفخ روح الحياة — بقدرة الله — فى الناس ؛ فنهض بهم من غفلتهم ، وحقق بهم دولة عظمى — لم يعرف لها التاريخ مثالا — تقوم على دعائم القوة كلها مثل الإيمان والهدى والتقوى والعدل والكرم ، فتمكنت بذلك فى أقصر زمن من سيادة العالم ورعايته ، بعد أن كانت مشغولة برعى الإبل والأغنام .. وفى ذلك قال الشاعر :

فكان من حكمة المولى ابتعاثُ فتى ... يهدى شعوب الورى للمنهج اللَّقَم[١]
يتم ما جاءنا الرسل الكرام به ... من دين موجد هذا الكون من عدم
من منذ أن كان يحبو (العقل) ، ثم مشى ... على الجدار ، إلى أن سار بالقدم
والدين يوحى إليه ما يناسبه ... فى كل طور ، ويزجيه إلى الأمم
إلى أن اشتد زنداه مراهقة ... ثم استوى رشده فى آخر الأمم[٢]
حيث استعد لفهم الحق معتمدا ... على الأدلة ، لا بالخرق للنظم
فالخارقات إذا قام الدليل بها ... من قبل ، فهو بهذا العصر لم يقم
فكان أصلح شخص للقيام به ... (محمد) العربى الطاهر الشيم !
من أمة ما قضى قَس ولا ملك ... لها على خلق حر ، ولا شمم
أمِّية ما حوت علما سوى لغة ... شماء ، ماخضعت للطِّرس والقلم[٣]
فلم تزل تترقى فى العصور إلى ... أن أخرج الدهر منها أبدع النغم !
فاختارها لغة القرآن منزلُه ... والله أعلم بالأقدار والقيم !
ذاك الكتاب الذى أحيا النبى به ... بقدرة الله أجيالا من الرمم[٤]
أقام من (يعرب) من بعد شقوتها ... شعبا عزيزا ، قويا ، جد ملتئم
قامت به دولة عظمى على أسس الـ ... ـهدى والتوق والعدل والكرم !
رعت — ولم يمض من تكوينها زمن — ... كبرى المماليك بعد الشاء والنعم

المعجزة الخالدة :

واضح من هذا المنهج العقدى الذى سيطر على الشاعر فى أثناء حديثه عن بعث محمد ﷺ وحاجة الناس اليه فى هذه المرحلة بخصوصها ، .. أن الذى يسيطر على فكره ووجدانه — فى هذه القضية — هو ما أثاره كثير من الناس — ومازالوا يثيرونه — حول الحاجة الى رسالة على

(١) اللقم — بالتحريك — : الطريق الواضح .
(٢) الزندان — بفتح الزاى — : الساعد والذراع .
(٣) الطرس — بكسر فسكون — : الصحيفة .
(٤) الرمم — بكسر ففتح — جمع الرمة : العظام البالية .

الرغم من وجود بقايا الرسالتين السابقتين ــ وهما اليهودية والنصرانية ــ وحول اختصاص محمد ﷺ بذلك ، وحول اختيار الرسول من بين العرب الأميين ، واختيار اللغة العربية لغة للقرآن الكريم .. !

فإذا كان السرد التاريخي قد استولى على البارودى هناك فإن الحوار العقلى قد استولى على باكثير هنا ؛ بيد إن باكثير فى ذلك ينطلق من معاناة وجدانية عقلية ، فرضت عليه تلك الوقفة ، ليبين من خلالها مدى الحاجة إلى ممدوحه ﷺ ومدى الخير الذى ناله الكون على يديه .

وحديث باكثير عن معجزته ﷺ التى أيده الله بها ــ وهى القرآن الكريم ــ من دون الأنبياء السابقين ؛ فرض عليه أن يمد نفسه بالحديث عن تلك المعجزة وقيمتها ، ودورها فى حياة الناس جميعا ، وما تمتاز به عن المعجزات المادية الأخرى .

فالقرآن هو المعجزة الخالدة ، الباقية بجدتها على الزمان ، بحيث يجد فيها كل عصر حاجته ، بخلاف المعجزات الأخرى فإنها لا تخاطب إلا الموجودين فى لحظتها ، ثم تفقد أثرها بمرور الوقت .

وخلود القرآن بين واضح من قيامه على العلم ، ومحاجة العقل ، وتضمنه الشرائع العادلة فى كل ما يسن ويشرع . هذا إلى تفوقه فى بلاغته وصياغته ، فهى ليست كالبلاغة البشرية فى نظامها القوى ، وفى أسلوبها الذى يفوق كل ما عداه .

لقد جاءت آيات القرآن قوية مزلزلة لم يصمد أمامها فصحاء العرب ، واستسلم لها مفكرو العالم ومشرعوه على مدى تلك القرون المتطاولة ، فكانت كالرعد فى قصفه ، وكالريح فى عصفها ، وكالبحر فيما تحدثه أمواجه المتلاطمة من رجفات ؛ فلم يقو أحد على الصمود أمامها ، أو محاولة معارضتها واحتذائها ، بل وقفوا مشدوهين لا يستطيعون قولا . إن هذا الكتاب الكريم يقص بالحق أخبار الماضين ، من قوم نوح ، وعاد ، وإرم ذات العماد ، وكشف من أخبار إسرائيل ما يفضح دسائس القوم وحيلهم وما واجهوا به أنبياءهم ، كما ذكر ما كان فى حرب الروم من نصر لهم مؤزر . والى جانب هذه الأخبار الصادقة تضمن من علوم الغيب ما حير العقول ، ومن العلوم الكونية والطبيعية ما أذهل الباحثين فى شتى مجالات العلم الحديث ، من عقائد ، وطبعيات ، وطبائع النفوس ، وآراء المفكرين والفلاسفة ، من كل ما يؤكد خلوده ، ويبرز نواحى الإعجاز فيه ، إذ يشرع أرقى قوانين الحياة ، على أتم ما عرف من أحدث النظم .

هذا الكتاب الكريم حافظ رواته على نقله كما تلقوه عن رسول الله ﷺ ؛ فصحت روايته ، كما صح مبناه ، وتجاوز الباطل والضعف والخطأ ؛ فأصبح هو المصدر الدقيق الصادق لكل الأخبار والروايات وبذلك كشف التزييف فى الأقاصيص المتداولة عن عيسى ، وبين مدى ما فيها

من تلفيق أدخل عليها فى العصور السالفة ، فمن شاء التعرف على حقيقة عيسى عليه السلام ،فليرجع إلى القرآن الكريم ، فهو وحده مصدر الحقيقة ، أما ما عداه فقد كذب بعضها بعضا ، إلا ما شذ من بينها مثل (إنجيل برنابا) الذى تضمن ما جاء به عيسى عليه السلام من تبشير بمبعث محمد ﷺ الذى يأتينا بالخبر الصادق عن قصة صلب عيسى بن مريم فكان هذا الإنجيل معجزة لمحمد ﷺ تضاف إلى معجزاته ــ على الرغم من أنه جاءنا من عندهم ــ وتقرر عظمة هذه المعجزات إذا ما قورنت بمعجزات سابقية من الرسل .

فالشاعر حين تعرض للحديث عن المعجزة القرآنية ، لم يجد بدا من عقد تلك الموازنة بين معجزات الأنبياء السابقين ومعجزة محمد ﷺ ، على ما نراه فى قوله :

(المعجز الخالد) ، الباقى بجدته … إذ معجزات سوى (المختار) لم تدم

العلم آيته ، والعقل حجته ، … والعدل شرعته فى كل محتكم

جاءت بلاغته ، لا كالبلاغة فى … نظامها الجزل ، أو أسلوبها القُصَم[1]

كالرعد يقصف ، أو كالريح تعصف ، أو … كالبحر يرجف فى أمواجه البُهُم[2]

من ذا يعارضها جهلا وقد رجعت … عن آية منه غُلْبُ القول بالبكم ؟

يقص بالحق أخبار الذين مضوا … من قوم نوح ، ومن عاد ، ومن إرم[3]

وقص أيام (إسرائيل) يفضح ما … قد دسه القوم فيها من فِرىً جُسُم[4]

وآية الروم إذ جاءت بنصرهم … على العدو ، فلم تخطى ، ولم تهم[5]

وكم به من علوم الغيب ما وقفت … لها العقول على عين ولا ندم[6]

وكم جلا (العلم) فى العصر الحديث له … عجائبا لم تبن يوما لذى فهم

فى الدين ، فى الخلق ، فى علم الطبيعة فى … طبائع النفس، فى التاريخ، فى الحكم!

يعلو الأماكن ، والأزمان متفقا … مع الحضارات فيها غير مصطدم

يسن أرق قوانين الحياة على … أتم ما يَعرف الإمكانُ من نُظُم !

صحت ــ كما صح مبناه ــ روايته … عن الملايين من حفاظه النجم

فدع أقاصيص عن (عيسى) ملفقة … كُتِبْن فى أعصر شتى على وهم

مكذبا بعضُها بعضا بلا أسس … من استقامة إسنادٍ ، ولا دعم

إلا (أناجيل) روح الحق عطلها … لدى النصارى ، فلم تقبل ، ولم تُرم

---

(١) الجزل من الكلام : القوى الفصيح الجامع ، القصم ـ بضم ففتح ـ : الذى يحطم كل ما يلقاه .

(٢) البهم ـ بضمتين ـ : السود .

(٣) إرم ـ بكسر ففتح ـ : قوم منهم عاد ، وقيل : مدينة كبيرة لهم .

(٤) الفرى ـ بكسر ففتح ـ جمع الفرية : الكذب ، الجسم ـ بضمتين ـ : الأمور الجسام .

(٥) هام : خرج على وجهه فى الأرض لا يدرى أين يتوجه .

(٦) الندم ـ بالتحريك ـ : الأثر .

وشاء ربك أن يبقى لحجته ... منهن (إنجيل برنابا) على القدم
مبشرا برسول الله ، يخبرنا ... أن (ابن مريم) لم يُصلب ولم يُضَم
الله أكبر هذى بعد معجزة ... لدين (أحمد) جاءت من ديارهم
كهذه ، فليكنَّ المعجزات ، فما ... غناء كشف العمى والبرء للسقم !

تلكم هى معجزة القرآن الكريم التى خص بها سيدنا محمد ﷺ من بين رسل الله وأنبيائه ، لتكون ملائمة لمن أرسل إليهم من أبناء آدم فى المرحلة الخاتمة من مراحل تطورهم .. أما المعجزات المادية التى صاحبت من سلف من رسل الله ، فلم يخل بعث محمد ﷺ من بعضها ، على الرغم من أن تلك المعجزات لم تكن إلا وسائل دعم مساعدة ، هيأها الله لمحمد ﷺ إلى جوار المعجزة الكبرى ، لتؤدى دورها المؤقت المحدود ، فكان الإسراء والمعراج ، ونبع الماء من أصابع يده ، وتأثير حفنة الرمل التى رمى بها جمع المشركين ، وحنين الجذع شوقا إليه ، وإخباره ﷺ عن بعض الأمور المغيبة ، وغير ذلك مما حدث على يديه ﷺ عرضا ، تنبيها إلى خصوصيته .

ومع أن هذه المعجزات لم تهيأ له ﷺ للتحدى بها .. قد رويت من طرق مؤكدة الصدق والدقة ، بخلاف ما روى من أحداث ومعجزات نسبت إلى سابقيه من الرسل ، فإنها قد زيفت بكثير من الإضافات ، التى تفتح أبواب الشك أمامها ، اللهم إلا ما ورد به الكتاب الكريم ... على نحو ما قرر الشاعر فى قوله :

هذا على أن (طه) قد أتيح له ... منهن شىء كثير ليس بالأمم[1]
مثل العروج ، ونبع الماء من يده ... وهزم جيش برمل من يديه رُمى
والجذع إذ حن ، والإخبار عن غُيب ... بموتهم ثم ، والتكثير للوثم[2]
وغير ذلك مما جاء عن عرض ... لا للتحدى ، فشمس الحق لم تغم
صحت أسانيدها ، لا كالتى رويت ... عن سائر الرسل ، لم تثبت لمتهم
ولا سبيل إلى آياتها بسوى ... هذا (الكتاب) الكريم الشاهد الحكم !

خصوصية الإسلام المحمدى :

ومن هنا .. خلص الشاعر ليتحدث عن الدين الذى أرسل به محمد ﷺ ، فذكر أنه أتى بدين قويم ، غير ذى عوج ، بل إنه فوق ذلك يوفر للمعوج ما يستقيم به إذا ولج بابه ، وأن هذا الدين يمنح تابعة سعادة الدنيا والآخرة ؛ فهو يعنى بتربية الأجساد ، عنايته بتربية الأرواح والنفوس ، ويدعو إلى الخير مهما كان مصدره ، وأيا كانت طبيعته ، كما يصد عن الفحشاء والمنكر ، وأنه دين يخلص الإنسان ــ فى علاقته بالله ــ من الوسائط ، فيفتح له الأبواب التى تصله بالله مباشرة ، كى يدعوه بما شاء ، من غير حجاب أو وسيط تحت أى شعار أو نعت ، فهو يخلص

(١) الأمم ــ بالتحريك ــ : اليسير القريب التناول .

(٢) الوثم ــ بالتحريك ــ : القلة بكسر القاف .

الإنسان من هيمنة الأحبار والقساوسة والرهبان. وأن هذا الدين يجعل الأصل فى الأشياء الإباحة، فيحل للإنسان كل صنوف الطيبات، فى غير تجاوز لحدود التوازن والاعتدال؛ فلا يحرم شيئا ـ إذا حرم ـ إلا لمنع ضرر يصيب الإنسان من هذا الشيء. وأن هذا الدين لم يشرع الحرب إلا دفعاً لظلم، أو منعا من عدوان على شيء من حقوق الإنسان الطبعية، أو ردعا عن استبداد. وأن هذا الدين عام للبشرية جميعها، شامل كل ما يأتى من عصور وأزمان، وما خص العرب بلغة القرآن ومقر الكعبة المشرفة، وابتداء الدعوة! إلا لأن أرض العرب وأمة العرب كانت أنسب المواطن والأمم لبدء الدعوة الإسلامية، إذ لم يكن عند أمة العرب دين محدد المعالم والمعتقدات والطقوس تلجأ إليه فى شتى الأحوال؛ إذ ما كان لديهم ـ فى عبادة الأوثان ـ لا يعدو الطقوس الساذجة، التى لا تعتمد على قواعد عقدية ثابتة تنضوى حولها القبائل المختلفة. وأن هذا الدين لا يعنى بجانب من جوانب الحياة على حساب غيره، فكما يدعو إلى العلم ويحض عليه، يرفع من شأن الأخلاق، ويعلى من أمرها، وكما يطلب الخضوع لله الخالق، يبذر فى نفوس المسلمين العزة والكرامة، حتى أصبح الإسلام قرين العز، فلا يجتمع ذل وإسلام فى إنسان، كما لا يمكن اجتماع الماء والنار فى كيان واحد فى لحظة واحدة؛ إذ هما ضدان متنافران دائماً. وأن هذا الدين يسوى بين الناس جميعا فى أحكامه، فلا فضل لمخدوم على خادم؛ لأن كلا منهما يقوم بدوره فى الحياة، فيكمل أحدهما الآخر؛ لأنه يقيم التفاضل على العمل والتقوى، لا على المال والأحساب، والأنساب، ونوع العمل، فالعبرة ـ عنده ـ بأثر العمل وإتقانه، لا بنوعه وهيئته، وأن هذا الدين يجعل الطهارة من أسمى شرائعه، ويفرضها مع كل نسك، بل إنه يفرض الصلاة مناجاة من العبد لله يتطهر بها من الدنس، ويتخلص بها من أدران الحياة. ويفرض الزكاة دواء يطهر الإنسان ويخلصه من أزمات الحياة، سواء فى ذلك من يزكى ومن يتلقى الزكاة، محققا بذلك أمثل صور الاشتراكية والتكافل الإنسانى، من غير أن ينشأ عنها ظلم أو كنود أو انحراف. ويفرض الصيام ترويضا لنفس كل مسلم، وتدريبا لها على تحمل الصعاب والمشاق، وتمكينا لها من مواجهة المغريات فى قوة من غير تبرم أو ضعف، وفى الوقت نفسه يتيح للإنسان ما يقوم جسمه، ويقيه الأمراض والعلل. ويفرض الحج فى هيئة تتيح للمسلمين فرصة الالتقاء لعلهم يتمكنون من تدارس أحوالهم، ويسعون للخلاص مما يصيبهم أو ينزل بهم، ويتبادلون الخبرات فى مواجهة المشكلات. هذا هو الدين الذى أتى به محمد كما حدد الشاعر أبعاده، إذ يقول:

أتى بدين قويم غير ذى عوج ... متى يلج بابَه المعوجُّ يستقم

يولى سعادتى الدارين تابعَه ... يُعنى بتربية الأجساد والنَّسم[1]

يدعو إلى الخير مهما كان مصدره ... كما يصد عن الفحشاء واللمم[2]

---

(١) النسم ـ بالتحريك ـ جمع النسمة: كل كائن حى فيه روح.

(٢) اللمم ـ بالتحريك ـ: مقاربة الذنب.

ويجعل العبد يدعو الله خالقه
بلا حجاب من الأحبار والنُهُم[1]

يُحل كل صنوف الطيبات بلا
تجاوز لحدود القصد للتخم

لم يشرع الحرب إلا في مدافعة
عن دعوة الحق، أو فى كف مهتضم[2]

وخصص العرب بالتضييق، متخذا
ديارها معقلا للمسلمين حمى

إذ لم يكن عندها دين تلوذ به
فى الخير والشر، والسراء والنقم

يدعو إلى العلم، والأخلاق يرفعها
ويبذر العز فى أتباعه الكُرُم[3]

لايلتقى الذل والإسلام فى خلد
أو يمكن الجمع بين الماء والضرم[4]

الناس كلهم فى حكمه شرع
لا فضل فيه لمخدوم على خدم[5]

ولاتفاضل فى مال ولا نسب
وإنما الفضل بالأعمال والهمم

يرى (الطهارة) من أسمى شعائره
لا يقبل الله نسك الأغبر الدَّسَم[6]

وفى (الصلاة) مناجاة تطهر من
نفس المصلى، وتؤويها لدى البُهَم[7]

وفى (الزكاة) دواء لامثيل له
لكشف ماحاق بالدنيا من الإزم[8]

(الاشتراكية المثلى) تتم به
بلا كنود، ولاحيف، ولا وغَم[9]

أما (الصيام) فترويض النفوس على
حمل الشدائد فى صبر، بلا تبرم

وكم جلا الطب من أسراره عجبا
يزيل ما عىَّ عنه الطب من سقم

و(الحج) مؤتمر للمسلمين به
لو أن آذانهم خلو من الصمم

وبعد أن أشار الشاعر إلى خصائص الدين الذى جاء به محمد ﷺ، فى أوامره ونواهيه، وفيما أقام عليه المجتمع الإسلامى من علاقات، وفيما أرسى من تقاليد وأخلاقيات، وفيما فرض من عبادات.. بعد تلك الإشارات تعرض بتفصيل نسبى لعلاقة الرجل بالمرأة فى ظلال الإسلام دافعا بذلك مزاعم المبشرين والمستشرقين المغرضين أو محدودى المعرفة بالإسلام، فذكر أن محمداً ﷺ قد ساوى ـ فى الحقوق والواجبات ـ بين الرجال والنساء، إلا إذا اقتضت فوارق الخلق

---

(١) النهم ـ بضمتين ـ جمع النهام بضم النون وفتح الهاء المخففة : الراهب فى الدير .

(٢) كفه عن الأمر : منعه وصرفه ، المهتضم : الظالم الغاصب .

(٣) الكرم ـ بضمتين ـ : صفة بمعنى الكريم للمفرد والجمع .

(٤) الخلد ـ بالتحريك ـ : البال والنفس ، الضرم ـ بالتحريك ـ : لهب النار .

(٥) الشرع ـ بالتحريك ـ : السواء .

(٦) الأغبر : الذى علاه الغبار ، الدسم ـ بالتحريك ـ : الذى علاه الوسخ والقذر .

(٧) البهم ـ بضم ففتح ـ جمع البهمة : مشكلات الأمور .

(٨) الإزم ـ بكسر ففتح ـ جمع الأزمة : الشدة .

(٩) الكنود ـ بالضم ـ : كفران النعمة وجحودها . والحيف : الجور ، والوغم ـ بالتحريك ـ : الحقد .

والتكوين وغير ذلك ـ منبها بذلك إلى أن ما قد يكون هناك من فوارق فى الحقوق والواجبات ليس لذات الرجل أو المرأة، ولكن، استجابة لطبيعة كل منهما وفطرته ـ حيث كلف الرجل بأن يقوم بالإنفاق على زوجه، دون نظر إلى ماتملكه هى من مال، وأنه ﷺ ـ بمنطق الإسلام ـ يرى أن أنوثة المرأة هى أرقى فضائلها، فيوجه الرجل والمرأة معا إلى أن تحفظ عليها تلك الخصيصة، ولاتزال عنها تحت أى شعار، لما فى ذلك من التزييف والخداع والتضليل؛ فالفطرة تقتضى أن تقوم المرأة بشئون البيت أولا، فهى فيه ـ باسم الإسلام ـ الآمرة الناهية، التى تعنى بتربية الأولاد؛ فتلك هى وظيفتها الفطرية التى أقام الخالق عليها كيان المرأة فى مجتمعها، وأنه ﷺ ـ بمنطق الإسلام ـ قرر أن تكون لها شخصيتها المستقلة فيما تملك، فلها حريتها الكاملة فى أن تتصرف فى مالها كيفما شاءت، فسبق بذلك كل الأنظمة والشرائع الوضعية، حتى فى تلك الدول العصرية التى تزعم أنها بلغت قمة التحضر، والمحافظة على حقوق الإنسان، فهاهى ـ مثلا ـ فرنسا التى أعلنت بثورتها الحديثة مبادىء حقوق الإنسان، لم تحصل المرأة فيها على ماوفره لها الإسلام منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا من الزمان، وهاهى المرأة فى أوربا قبل العصر الحديث تعامل معاملة المتاع فى البيت، أو البهائم، بل لقد بلغ ببعض المجتمعات الأوربية أن شغلت بالبحث فى حقيقة المرأة، ونهض مفكروها يدلى كل منهم بدلوه فى أمرها، حتى كان منهم من يرتاب فى أن لها روحا مثل الرجال، ومنهم من يرتاب فى إنسانيتها. تعرض الشاعر لهذه القضية فى قوله:

ساوى النساء حقوقا بالرجال سوى	**ما يقتضيه اختلاف الخلق والشيم**
فكلف الرجلَ الأنثى القيام بها	**ولو غدا مالُها كالوابل الرَّزِم[1]**
يرى (أنوثتها) أرقى فضائلها	**فلا تُزِلْها بأهوان ولا تُسم[2]**
تكون آمرة فى البيت ناهية	**تعنى بتربية الأولاد، بالرحم[3]**
هذى وظيفتها الفطرية ارتسمت	**فى سنة الله قبل اللوح والقلم!**
تكون فى مالها طلْقاً مخوَّلة	**حق التصرف فى بيع وفى سلم**
فسل نساء فرنسا: هل حصلْن على	**حق التصرف بعد (الثورة) العمم؟!**
أوهل تذكَّرُ (أوربا) زمان ترى	**نساءها كمتاع البيت والعجم؟![4]**
ليالى ارتيب فى الأنثى بها: ألها	**روح، وهل هى إنسانٌ كقومهم؟**

كما تعرض لقضية أخرى بتفصيل نسبى؛ هى موقف الإسلام من الرق؛ لأنها استغلت من المبشرين المستشرقين لتشويه حقيقة الإسلام، بعد تزييف الرؤية الإسلامية لتلك القضية، حتى

(١) الوابل: المطر، الرزم ـ بفتح فكسر ـ: الغيث الذى لا ينقطع رعده.

(٢) الأهوان ـ جمع الهون بفتح فسكون ـ: الحقير.

(٣) الرحم: القرابة.

(٤) تذكر: تتذكر، العجم ـ بالتحريك ـ: البهائم.

قلبوا الأوضاع، وعكسوا الحقائق، لأن الإسلام قد سن للرق من التشريعات مايكفل القضاء عليه نهائيا بطريقة متدرجة لا تحدث اضطرابا فى المجتمع البشرى الذى يقيم كثيرا من نظمه الاقتصادية على وجود الرق؛ فقد حاط الإسلام الموالى بالحسنى، وعاملهم كالمالكين، مع التخفيف فى آثار الجرائم، وشرع نظام المكاتبة للتحرير من الرق، كما دعا الناس ورغبهم فى الإعتاق، فجعل أجره فى الآخرة من أعظم الأجور، وشرع قبول الفدية من أسرى الحرب، أو عتقهم بالمن، فقال:

وسَنَّ (للرق) ما يقضى عليه على	مدى الزمان مع التدريج والسَّلَم
حاط (الموالىَ) بالحسنى، وعاملهم	كالمالكين، مع التخفيف فى الجُرُم
سَنَّ (الكتاب) لإطلاق الإسار كما	دعا، ورغّب فى الإعتاق للنسم[1]
وسَنَّ فى فك أسرى الحرب فديتهم	بالمال، أو عتقهم بالمن والكرم

عظمة محمد كالشمس لا تخفيها غيوم المضللين:

ومن هذا العرض ـ بإيجازه وتفصيله ـ رجع الشاعر نظره إلى من حمل رسالة الخير والبر التى قدمت للإنسان أسباب الخلاص والأمن والاستقرار، مبديا تساميه ﷺ على أن يكون موضع شك أو ارتياب، فهو ـ بكل ما تقدم ـ كالشمس الطالعة، التى يلمس كل إنسان أثرها، فيسمو بها على شكوك الشاكين وأوهامهم، وما كانت عظمته ﷺ وإجلال المحيطين به له لثراء، ولا لقوة أب، ولا لمقدرة علمية، فقد كان يتيما فقيرا، بدويا لم يعتمد على جاه أب، ولا حنان أم، ولا على علم يستوعبه من كتاب أو معلم، ولكنه شغف بكل عمل صالح منذ صباه، فاستغرقت الصالحات شبيبته، ولم ينخدع بما فيه الآخرون من تجبر أو سلطان، فلم يتطلع إلى رئاسة أو قيادة، فاعتزل هذه الحياة المعتادة، حتى إذا بلغ الأربعين، جاءه وحى ربه، فطلع على الناس بما أوحى إليه من الكلام المعجز، الزاخر بالعلم والحكمة، وواجه قومه وسائر الناس بما لا عهد لهم به فى مجال العقيدة والأخلاق، مما تطلع إليه الفلاسفة والحكماء، فوقفوا دون الوصول إلى شيء منه، بل ولم يتبينوا حقيقة ما يرومون.. فقال:

الله أكبر! هل فى الشمس طالعةً	شكٌّ، وهل بعد رأى العين من وَهَم؟!
فتى، يتيم، فقير، فى البداوة ما	جالت يداه على سفر، ولا قلم[2]
قضى شبيبته فى الصالحات، ولم	يبغ الرئاسة يوما ما، ولم يرم
حتى إذا جاء سِنُّ الأربعين أتى	بمعجزٍ زاخر بالعلم والحِكَم

---

(١) سن: شرع، الكتاب: المكاتبة، بأن يتعاقد العبد مع سيده على أن يحرر نفسه نظير مال يقدمه له مما يحصل عليه من العمل، الإسار: الأسر، النسم ـ بالتحريك ـ: النفوس.

(٢) السفر ـ بكسر فسكون ـ: الكتاب.

أتـى بمـا لم يـذُرْ يومـا على خلــد من فيلسـوف، ولا حَبْرٍ، ولا حكم![1]
وكيف يسـبقُ مالم يـأت بعـدُ سـوى رب الزمان، إله الكـون، ذى القِـدم؟!

والشاعر ـ فى حديثه عن بعض مظاهر عظمته ﷺ ـ على ذكر مما يثيره بعض المبشرين والمستشرقين من مزاعم وأكاذيب مضللة حول شخصه ﷺ، وحول الرسالة والوحى، والقرآن الكريم؛ فهو ـ فى الوقت الذى يذكر عن محمد ﷺ ما يعرف به ـ يحرص على أن يرد هذه المزاعم والمفتريات بطريق مباشر، أو بطريق الإيماء؛ فإذا كان أميا لم يتصل بوسائل التعلم فلا مجال لمن يشكك فى تنزيل القرآن عليه من ربه، وإذا كان لم يتطلع إلى رياسة أو نحوها من مراكز الحياة العامة، فلا مكان للمزاعم التى تنكر نبوته، أو تشكك فى نزول الوحى عليه، وإذا كان ما أتى به من بيان وفكر لم يمر بتفكير أحد، فهذا دليل واضح على أنه ليس من صنع مخلوق!

ومن هنا... يواصل الشاعر طريقه المبين، فيلفت النظر إلى دور واحدة من أخطر الحوادث التى اعترضت طريقه ﷺ، ليوضح ما انطوت عليه تلك الحادثة من أدلة على صدقه ﷺ.. تلكم هى (حديث الإفك) الذى قصد به الطعن فى شرف أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها؛ فالشاعر بحسه المرهف، وصدق إيمانه، يلمح فى تلك الحادثة ما يؤكد صدقه ﷺ فى كل ما جاء به، وينفى كل ما أثير حول رسالته، ويرى أن وراءها تدبيراً سماويا، لا تدركه أفهام المخلوقين، فلو أن هذا القرآن كان من صنع محمد ـ كما يزعم الزاعمون ـ لما طال انتظاره ﷺ تبرئة ساحة المتهمة، أم المؤمنين، ولما امتد به زمن الشك الذى كان يعذبه ﷺ، والمسلمون من حوله فى حيرة وإشفاق، وقلق وألم، لا يدرون ماذا يصنعون، وحتى أتى الوحى بالآيات التى تعلن براءة أم المؤمنين، وتكشف أبعاد المؤامرة، فأزاحت عن الصدور تلك الأثقال الكئيبة، وأسقطت عن المنافقين تلك الستر التى يتخفون وراءها، وهم يدسون السم فى السمن للنبى ﷺ، وبعد أن عرفت حقيقتهم، ماكان ليقتلهم لأنهم يعتصمون بإعلان إسلامهم، وكل ما أمكن صنعه معهم.. هو تجنبهم فحسب.

إذن... فلا مجال لشك شاك، ولا مماراة ممار فى نبوته ﷺ، إلا أن يكون أعمى أصم، لا يرى الحق، ولا يسمعه! وفى هذا يقول الشاعر:

و(محنة الإفك) برهـان يَـدُل علـى صـدق النبـى، وينفـى سـائر التهم
لله فيها ـ وطـــه فى تبلبلـــه من هـولها ـ حـكمةٌ تسـمو على الفَهِم[2]

---

(١) الخلد ـ بالتحريك ـ : البال والنفس، الحبر ـ بفتح الحاء وكسرها وسكون الباء ـ : العالم.

(٢) الفهم ـ بفتح فكسر ـ : الذى يحسن التصور.

لو كـان من قلبـه هـذا الكتـاب لما ... قضـى زمانـا طـويلا، وهـو فى غُمَم[1]
يعـذب الشـك قلبـا منـه ممتلئـا ... بالحب والطهـر، مغيـارا على الحـرم
فـلا يبت بأمـر فيـه وهـو على ... مثـل الأسنة لم يبرىء، ولم يَصـم[2]
والمسلمـون بحـال لا شبيـه لها ... من التحيـرُّ، والإشفـاق، والألـم
حتـى أتـى الوحـى بالآيات معلنـة ... براءة الطهر، ذات القدس والعِصَم[3]
زوج النبى، ابنة الصديق صاحبه ... خير الـورى، بعـد خير الخلق كلهـم
فأشـرقت أوجـه الأصحاب من فرح ... وجُللـت أوجهُ الأعـداء بالسخـم[4]
(منافقـون)، يـراءون النبـى ولا ... يألـون يَمْنـون بالسـم فى الدسم[5]
يـدرى النبـى بهم، والمسلمـون، ولا ... يقضـى عليـهم، وهـم أعـدى عدوهم
أن لا يقـال: ابـن عبدالله يقتـل فى ... أصـحابه (وهـو أولى الخلق بالذمم)
ولـو أراد لأفنـاهـمْ بما اجترحـوا ... فهـم أذل من الجِعـلان والحَـلَم![6]
أبعـد هذا يمـارى فى نبوتـه ... إلا أصـم عن الحق المنيـر عمـى؟!

وبعد أن يطمئن الشاعر إلى قوة دفوعه، ووضوح حججه.. يخلص إلى الحديث عن خصائصه التى أهلته لهذه المكانة، فذكر أن القرآن الكريم روح من الله، أوحاه إلى رجل لا مثيل له بين الرجال، فقد فاق الجميع بأنه لم يهتم إلا بالفضل أو أسبابه، فإذا كان أترابه وأسلافه يسعون إلى الشهرة عن طريق قول الشعر، فهذا الرجل لم يعرف عنه شيء من ذلك، وإذا كانوا يفتخرون بما توارثوه من مفاخر، فهذا الرجل لم يأبه لشيء مما التزمه القوم وأغرموا به ،ولم يتطلع إلى ما يتطلع إليه الناس، فلم يكن ملكا ولا ساعيا إلى ملك، لكنه كان بشرا اشتمل على الفضائل ومكارم الأخلاق التى جعلته يفوق الملائكة.. وليس غيره من البشر فحسب . لقد بلغ به سمو خلقه درجة عالية، مكنته من التأبى على الرذائل والدون والصفات والأفعال، فأصبحت العصمة الحقيقية واحدة من مناقبه البارزة. ومع كل هذا لم يسلم ﷺ من قالة السوء، وروايات الأفاقين، وأخبار المتعجلين، فوصفوه ـ فى قوة تأثيره ـ بالسحر، ولو تأنوا وتدبروا الأمر لعرفوا أنهم يفترون عليه كذبا، وزعم جماعة أنه ﷺ أصيب بسحر ساحر فذهل عن الحقيقة، وهو

---

(١) الغمم ـ بضم ففتح ـ جمع الغمة : الكرب أو الحزن يحصل للقلب بسبب ما حصل .

(٢) وصمه يصمه : عابه .

(٣) العصم ـ بكسر ففتح ـ جمع العصمة : ملكة إلهية تمنع من فعل المعصية والميل إليها مع القدرة عليها .

(٤) جللت : غطيت ، السخم ـ بالتحريك ـ السواد .

(٥) لا يألون : لا يفترون ولا يضعفون ، يمنونه ـ بفتح ياء المضارعة ـ : يبتلونه .

(٦) الجعلان ـ بكسر الجيم ـ جمع الجعل بضم الجيم وفتح العين : حيوان كالخنفساء يكثر فى المواضع الندية . والحلم ـ بالتحريك ـ جمع الحلمة : القرادة الضخمة أو الصغيرة ، ودودة تقع فى الجلد فتأكله ، فإذا دبغ تخرق وتشقق .

زعم باطل لا يثبت أمام شيء من التروى والنظر الناقد، لقد كان ﷺ هدفا للدس من الأعداء ومن سذج المسلمين الذين لم يتأنوا فى الأمر، فلهجوا يرددون هذه الأكاذيب من غير وعى ولا إدراك لما يخترعه أعداء دين الله من البدع التى يلصقونها به بقصد الثأر لملكهم الضائع، ونفث السموم بين المسلمين، حتى يحتدم بينهم الصراع، ويشغلوا عن الأجنبى الذى يخطط لالتهام الأوطان الإسلامية، على ما يراه كل متأمل فى شتى الأقطار الإسلامية اليوم.. وهذا قوله:

روح من الله أوحاه إلى رجل ... لا كالرجال، بغير الفضل لم يهم
ماكان مشتهرا بالشعر، مفتخرا ... باللمس، مثل بنى آبائه اللزم[1]
ولم يكن ملكا، لكنه بشر ... فاق الملائك بالأخلاق والعظم!
العصمة الحق من أدنى مناقبه ... إذ كان من خلقه العلوى فى عِصَم
ويستحيل وقوع السحر فيه كما ... روى الرواة، بلا نقد ولا فَهَم
دُسَّت عليهم، فراحوا يلهجون بها ... والله يغفر عنهم زلة القدم[2]
وكم لأعداء دين الله من بدع ... قد ألصقوها به ثأرا لملكهم
سمومها انتشرت فى المسلمين فما ... قاموا لأجنب للأوطان مُلْتهم[3]

حال المسلمين اليوم:

ومن الحديث عن أعداء دين الله، وما دبروه من كيد للإسلام فى حياته ﷺ، وما دسوه من سموم ليفتنوا المسلمين عن استقامة الإسلام.. يمثل أمام عينيه ما آل إليه حال المسلمين فى العصر الحديث، فيتشبث برسول الله ﷺ، مستغيثا، مستنجدا، مقدما أطرافا من الصورة المعتمة التى أصبح عليها المسلمون، بعد أن سلمهم أسلافهم الدولة قوية الجانب، ممتدة الأبعاد والحدود، ممسكة بزمام كل حركة فى العالم.

وكأن الشاعر يتوسم أن رسول الله ﷺ لن يصدقه فيما يحكيه عن الأمة الإسلامية، فيصدر حديثه بما يزيل شبهة الشك فى صحة ما يقول، فيقرر أن لو جاز لى أن أقدس غير الله فأقسم باسم أحد غيره، إذن لأقسمت باسمك أن أمة الإسلام حاق بها ما توقعته أن يحيق بها فى آخر الزمان، حين ينصرف المسلمون عن أسباب القوة الإسلامية، فيصبحون غثاء كغثاء السيل؛ إن أمة الإسلام لم يبق فيها اليوم من الإسلام إلا اسمه، والمسلمون ـ بما أصابهم من سقوط ـ أصبحوا محجوبين عن جوهر الإسلام، حتى لكأن حجابا كثيفا يعزلهم عنه، فلم يعودوا يستمسكون من الإسلام إلا بمحاكاتك فى صور الأعمال، دون ما قدمته لهم من قدوة فى مضاء العزم، وعلو الهمة، وكمال النفس، وصدق الحديث، وعظم الخلق، والاجتهاد فى كل

(١) اللزم ـ بضمتين ـ جمع اللزمة: الرجال الذين يلزمون الشيء فلا يفارقونه.
(٢) لهج بالأمر ـ بفتح فكسر ـ: أولع به فثابر عليه واعتاده.
(٣) الأجنب: يقصد به الغريب الأوربى المستعمر.

عمل، والارتكان إلى القوة الحقيقية، والأنفة من تقبل الضيم. بل إن الدستور الذى أنزله عليك رب العالمين هدى ونور، حولوه عن مكانه، فلم يعودوا يقرءونه إلا سعيا وراء اللحن المطرب، كأن وظيفة الكتاب محصورة فى أن يقرأ بمجلس شراب يتسلى به الحاضرون، أو على مقبرة يسترحم به الميتون. وأصبحوا فى المهام مشغولين بغير القرآن من كتب خادعة، لاحياة فيها، ولكنهم يتوهمون أنها هى التى تناسب العصر، وتمدهم بالنور، فهم يكبون عليها- مع خوائها- كما يكب الوثنى على الصنم؛ فهذه الكتب التى يكبون عليها تشبه الأوعية الحجرية التى توضع فيها جثث الموتى؛ وهم- فى انحرافهم عن جادة الإسلام- قد أصبحوا كغيرهم يتعبدون بآراء المشايخ كما يتعبدون بنصوص الكتاب الكريم، ومن أبى ذلك المسلك الشاذ، فر إلى ماهو أشد منه شذوذا، فأسلموا عقولهم وعواطفهم لأبناء الغرب، فكما كفر الأوربيون فى الغرب بالدين، واستبدلوا الفكر العقلى بالدين، كفر هؤلاء كذلك بالإسلام، وصنعوا صنيع أهل أوربا، منكرين ما خلف آباؤهم من أمجاد يشهد بها- إلى اليوم- فحول العلماء والمفكرين فى أوربا.. وما أرادهم إلى هذا إلا الضعف الذى أصابهم فى كل مناحى حياتهم، إذ الضعف أصل كل فساد وتحلل.. وفى هذا كان قوله:

أقسمت باسمك يا أعلى الورى شرفا ... لو جاز تقديس غير الله بالقسم
لقد غدت أمة الإسلام واهلة ... منها القلوب، فأضحت (قصعة الأمم)[1]
لم يبق فيها من الإسلام- وا أسفا- ... إلا اسمُه، وبها معناه لم يُسم
قامت حجابا كثيفا دون دعوته ... بما إليه سقوط المسلمين نمُى
حاكتك فى صور الأعمال تتبعها ... وما اقتدت بك فى عزم، ولا همم
ولا كمالٍ، ولا صدقٍ، ولا خُلق ... ولا اجتهادٍ، ولاعز، ولا شمم
ولا تقوم إلى القرآن تقرؤه ... إلا أمانىَّ بالألحان والرنم[2]
كأنما أنزلت آى الكتاب لكى ... تتلى على شَرْب راح، أو على رجَم[3]
تبدلوا منه كتْبا لاحياة بها ... كأنما عكفوا منها على صنم
تحكى نواويس موتى صُيرت زمنا ... فلا ترى بين أجسام بغير دم[4]
عَدُّوا المشايخ أربابا بِعدِّهم ... أقوالهم كنصوص الواحد الحكم
وآخرون أصاروا الغرب قبلتهم ... فهم بها غير طواف ومستلم

---

(١) واهلة: ضعيفة، ويشير بقوله (قصعة الأمم) إلى ما جاء فى حديث (ثوبان) أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن تداعى إليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ...».

(٢) الرنم - بالتحريك -: رجع الصوت، مثل الترنم.

(٣) الشرب - بفتح فسكون -: القوم يشربون ويجتمعون على شراب. الرجم - بالتحريك -: القبر.

(٤) النواويس - جمع ناووس -: حجر منقور توضع فيه جثة الميت.

رأوا (أوربا) فراحوا يكفرون ـ على جهل ـ بدينهم الموروث والشيم
وأنكروا مجد آباء لهم شهدت لها فحول رجال الغرب بالقِدَم[1]
وما لذلك غير الضعف من سبب فالضعف أصل جميع البؤس والنقم

التوجه إلى الله بالابتهال :

وبعد أن شخص الشاعر أمراض أمته، وأوضح منشأ تلك العلل، وبين آثارها العاجلة والآجلة، اتجه إلى الله مبتهلا مستنجدا، طالبا منه الرحمة بأمة محمد ﷺ؛ التى غفلت واستسلمت للنوم، تاركة عدوها منتبها يستحوذ كل شيء، حتى لقد بلغ النوم بالعرب درجة جعلتهم يغفلون عما يهددهم فى مستقبلهم، ولا يتعظون بما أصاب بعض أسلافهم فى الماضى، حين غفلوا مثل تلك الغفلة. ومن أوضح مظاهر تلك الغفلة مانراه اليوم من الصراع المحتدم بين العرب بعضهم مع بعض تاركين العدو يقف على أبوابهم راصدا هذا الصراع، مشعلا نيرانه، مترقبا آثاره، حتى ينقض على الطائفتين بعد أن تضعف إحداهما الأخرى، فيستولى عليها فى سرعة خاطفة، كما صنع من قبل فى الأندلس!

ويفسر الشاعر موقفه وحرصه على إنقاذ أمته، فيذكر أن سعادته مرتبطة بسعادة أمته، وأن مصابها يناله، وذلها يصيبه، لأنه واحد من أفرادها الذين تقوم عليهم وبهم.

ثم يواصل ابتهاله بربه صاحب العرش العظيم، الذى يملك أن يحيى ما درس من الأموات وبلى، بما بعث به محمدا ﷺ من هدى ونور، راجيا منه أن يجير أمة محمد من الدواهى التى أنزلها الغرب بها، وأن ينفخ فيها منه روحا تمنح أبناءها الحياة واليقظة والوعى، حتى تنهض مرفوعة العلم، تطهر الكون مما انتشر فيه من رجس وفسوق، ومن ظلم وجور؛ فقد وصل الداء بالأمة درجة لا ينفع معها الأدوية المسكنة، ولكنها تحتاج إلى الدواء الناجع القائم على هدى رسل الله! وذلك قوله:

يارب رحماك إن الغرب منتبه والشرق مشتغل بالنوم والسأم
والعرب فى غفلة عما يهددها لم تعتبر بليالى بؤسها الدهُم[2]
يا ويحها تتعادى، والعدو على أبوابها يرقب الأحداث عن كثَم[3]
والوقت أضيق، والأحداث فى عجل تبنى وتهدم، والآفات كالديم!![4]
إنى السعيد إذا ما أمتى سعدت حالا، وفى ذلها ذلى، ومهتضمى[5]
إذا أملت ففى آمالها أملى وإن ألمت فمن آلامها ألمى!

---

(١) القدم ـ بكسر ففتح ـ : السبق.
(٢) الدهم ـ بضمتين ـ جمع الأدهم : الأسود.
(٣) يرقبه عن كثم ـ بالتحريك ـ : عن قرب مثل : عن كثب.
(٤) الديم ـ بكسر ففتح ـ جمع الديمة : مطر يدوم فى سكون بلا رعد ولا برق.
(٥) المهتضم : الظلم.

يارب، ياصاحب العرش العظيم، ومن تحيي الإرادةُ منه دارسَ الرمم[1]
بما بعثت به خير الأنام أجر يارب أمته من صمة الصمم![2]
ولقها منك روحا لايغادرها إلا وقد نهضت منشورة العلم![3]
تطهر الكون مما فيه من رجس ومن فسوق، ومن ظلم، ومن أزم[4]
فلا دواء له مما يكابده إلا هداية خير الرسل كلهم

ثم ينتقل من هذا اتعميم فى رجائه .. إلى التخصيص، بادئا بنفسه؛ فيرجو الله أن يملأ فؤاده نورا من هداية محمد ﷺ، وأن يجعل توجيهاته ﷺ ممزوجة بدمه، وأن يقدر له الخير، وأن يرزقه شفاعة محمد ﷺ فى يوم يشتد فيه كرب النفوس، وأن يسقيه من حوضه ﷺ ما يزيل به عن حلقه أثر الحرارة يوم الحشر، وأن يغفر ذنوب أبيه وأمه وزوجته، وذوى قرباه، وذوى رحمه، وأن يصلى أزكى صلاة وأدومها على رسول الرحمة الكريم، وأن ينشر رضاه على الصديق صاحبه فى الغار، ذى البر والإشفاق والرحمة، صاحب المواقف الجليلة دفاعا عن الإسلام فى عصر النبى ﷺ، وبعد وفاته حين ووجه بالمرتدين من العرب، وأن يرضى عن عمر الفاروق أول من جهر بالإسلام وصلى فى الحرم على مرأى ومسمع من قريش، والذى قوض مملكتى الفرس والروم، وأقام على أنقاضها دولة تطاول الأقمار والأنجم عزا ومنعة، وأن يرضى عن عثمان ذى النورين، أخشع من تلا كتاب الله، والذى أنفق من أمواله ما يجهز جيشا بأكمله إرضاء لله خالقه، وأن يرضى عن على أبى الريحانين الحسن والحسين، الذى اتخذه خير الورى أخاً له، والذى خاض المعارك دفاعا عن الإسلام، وفدى المصطفى ﷺ بنفسه. ثم ختم ابتهاله بالسلام على طه ﷺ وعترته وآله، وخص من العترة السيدة فاطمة وأبناءها وأزواجهم الأكرمين، راجيا أن يجعل مسك الختام تحيات تفوح على محمد ﷺ، مادام هناك برق يومض فى الظلماء، ومادام هناك ريم يسعى بين البان والعلم. فقال:

واملأ فؤادىَ نورا من هدايته واجعل عزائمه ممزوجة بدمى
واقدر لى الخير وارزقنى شفاعته فى يوم يؤخذ بالأنفاس والكظم[5]
وبلَّ من حوضه حلقى إذا اتقدت نار الأوام، وكل العالمين ظمى![6]
واغفر ذنوب أبى، فضلا، ووالدتى وزوجتى، وذوى قرباى، والرحم

(١) الرم ــ بكسر ففتح ــ جمع الرمة : العظام البالية .

(٢) صمة الصمم : داهية الدواهى ، ويعنى بذلك فتنة الغرب .

(٣) لقاه الشىء ــ بتضعيف القاف ــ : جعله يلقاه .

(٤) الرجس ــ بكسر ففتح ــ : القذر ، لغة فى الرجس بسكون الجيم ، الأزم ــ بالتحريك ــ : الشدة .

(٥) الكظم ــ بالتحريك ــ : الحلق ، أو الفم ، أو مخرج النفس .

(٦) بله بالماء : نداه ، الأوام ــ بضم ففتح ــ : حرارة العطش .

وصــل أزكــى صــلاة منك دائمــة ... على الرســول؛ رســول الرحمة القســم

وانشــر رضــاك على (الصدِّيق) صاحبه ... فى الغــار، ذى البر، والإشفاق والرحم

رب المواقــف فى عصــر النبــى، وفى ... وفاتــه، وحيــال (الــردة) العمــم!

ثم ارض عن (عمر) الفــاروق أول من ... صلى برغــم أنوف القــوم فى الحــرم

مقوِّض الفرســان والرومـان شائدهــم ... ملكــا يطول على الأقمــار والنجــم

وأرض (عثمان) ذا النوريين، أخشع من ... تلا الكتــاب بــدمــع منــه منســجـم[1]

مجهــز الجيش، إرضــــاء لخالقـــة ... فى عسـرة الجيش بالإبريز والقَضَــم[2]

وعـن (على) أبى الريحانتيـــن، أخــى ... خيــر الــورى، بطل الأبطــال قطبـهم

ســيف النبـــى، وفاديـــه بمهجتـــه ... إمام كل صــدوق فى اللقــاء كمــى[3]

ثم الســـلام على (طه)، وعترتـــه.. ... وآلــه قرنــاء (الذكــر) فى الحــــرم

على (البتول) على الكبرى، على (حسن) ... على (حسين) على أزواجهــا العصــم[4]

واختـــم بمســك تحيـات يفــوح على ... (محمـــد) خيـــر مبــدوء ومختتـــم

ما أومض البـرق فى الظلمـاء من إضم ... وما عطـا الريـم بين البـان والعلـم[5]

فالشاعر على أحمد باكثير فى مدحته شاعر مهموم، تلفت حوله بحثا عن وسيلة تخفف عنه شيئا من همومه، فلم يجد؛ لأنها ليست هموما شخصية، بل هى هموم عامة، تحوج ــ فى القضاء عليها أو مواجهتها ــ إلى تجمع عام، ولكن هذا التجمع يبدو للشاعر بعيداً ــ إن لم يكن مستحيلا ــ صعب الإدراك، فى ظل هذا التفتت الذى أصاب الأمة، وأطمع فيها العدو الغاصب الحاقد، المتربص بها كل سبيل!

ومن هنا... انطلق بمشاعره من مكة إلى رحاب المصطفى ﷺ أملا فى أن يجد فى هذه الرحاب ما يذيب من قلبه تلك الهموم، وما يثلج خواطره، ويلهم فكره منفذا للخلاص، ويشرح صدره إلى مستقبل أمته!

ولذلك... وجدناه فى كثير من المواقف ــ بل فى القصيدة كلها ــ لا يملك إخلاص مشاعره لممدوحه ﷺ؛ فما يبدأ فى معايشة إحدى شمائله ﷺ أو مواقفه، حتى يتوارد على ذهنه بعض مصابه فى أمته، فتمتزج فى نفسه المشاعر الخاصة بالمشاعر العامة، على ما رأيناه فى أفكاره المطولة!

---

(١) الدمع المنسجم : السائل .

(٢) الإبريز ــ بكسر فسكون ــ : الذهب الخالص، القضم ــ بالتحريك ــ : السيف .

(٣) الكمى : الشجاع المقدام الجرىء كان عليه سلاح أو لم يكن .

(٤) البتول من النساء : العذراء المنقطعة عن الزواج إلى الله، والسيدة مريم رضى الله عنها، والسيدة فاطمة بنت سيدنا رسول الله ﷺ، وهى المقصودة هنا، العصم ــ بضمتين ــ جمع العصماء : الكريمة .

(٥) عطا الريم : رفع يده، والشاعر يختم قصيدته بهذا البيت إيماء إلى مطالع البوصيرى والبارودى وشوقى .

والشاعر ــ فى اجترار أحداث أمته ــ لم يغب عنه وعيه بتاريخها القديم، ولاندت عنه ثقافته العامة، خصوصا تلك الثقافة ذات المقومات الإسلامية، من قرآن كريم وحديث نبوى شريف، وتاريخ إسلامى مجيد.

كما يلاحظ الناظر فى قصيدة باكثير تمكنه من اللغة، وسعة قاموسه سعة لم تحوجه كثيرا إلى استنطاق المعاجم ليغطى تلك القافية برويها على مدى أكثر من خمسين ومائتى بيت، فتميز ــ بذلك ــ عن سابقيه، على ماتشير إليه الحاجة إلى الترجمة اللغوية هنا وهناك.. ولاريب أن فى هذا ــ إلى جانب التمكن اللغوى ــ مايومىء إلى مدى انطلاقه فى قصيدته مع الدفقات الوجدانية، التى فاضت بها نفسه فى موقفه، من غير حاجة إلى قطعها بمعاودة النظر فى المعاجم.

وقد وضح تميز الشاعر ــ كذلك ــ فى ابتهالاته التى ختم بها مدحته، إذ تغلب عليها المسحة الوجدانية بشفافيتها.. حتى حين ضمنها بعض الأعلام والعلامات التاريخية، من صحابة رسول الله ﷺ وآل بيته.!



ـ ٥ ـ

ميشيل الله ويردى[(١)]

فى قصـــيدته

(وحى البـــردة)

فى لقائنا السابق مع على أحمد باكثير ، رأينا الشاعر تشغله هموم الأمة الإسلامية ، فتفيض على جنبات نفسه ، حين توجه وهو فى رحاب الكعبة المشرفة إلى سيدنا رسول الله ﷺ ، راجيا أن تكون قصيدته المطولة رسولا بين يدى هذا التوجه باثا فيها شكواه مما ألم بالأمة الإسلامية ، فأبعدها عن المسار المستقيم ، راجيا أن تنال من شفاعة رسول الله ﷺ ما يخلصها مما ران عليها ووقعت فيه من غفلة وضلال .

وكان اشتغال الشاعر بهذا وراء تجاوزه منهج أسلافه فى مقدمتهم الطللية التى بدأوا بها قصائدهم ، فلم نجده مشبيا ولا ناسبا كما صنعوا ، ولكن قدم لقصيدته بإيماءات إلى معاناته الفعلية ، فكان أقرب إلى الواقع . !

ونحن ـ هنا ـ مع الشاعر (ميشيل الله ويردى) فى وحى البردة ـ على مدى خمسة وعشرين ومائة بيت ـ ، نراه فى التمهيد لمدحته لا يستطيع الفكاك تماما من أسر البوصيرى ومعارضيه ـ البارودى وشوقى وعبدالمطلب ـ كما صنع باكثير ، ولكنه يستقل عنهم بعض الشيء ، فيخالفهم فى المنهج الطللى فحسب ، وذلك بنقضه ما ذكروه فى مطالع قصائدهم ،

---

(١) القصيدة نشرت كاملة فى مجلة الرسالة القاهرية ، العدد (١٠٠٥) الصادر فى ١٩٥٢/١٠/٦ك . وفى العدد (١٠٠٦) من الرسالة ص ١١٥٨ الصادر فى ١٩٥٢/١٠/١٣ ذكر الأستاذ جمال مرسى بدر تعليقا على القصيدة ، أشار فيه إلى أن كلمة (الله ويردى) لقب تركى ، تعريفه (عطية الله) ، وفى العدد (١٠٠٨) من الرسالة الصادرة فى ١٩٥٢/١٠/٢٧ ص ١٢١٣ نشر الأستاذ عزيز خانكى تعليقا يفيد أن عائلة (الله ويردى) عائلة أرمنية مسيحية كاثوليكية ، لها صلة قرابة بعائلة المرحوم يعقوب أرتين باشا ابن المرحوم أرتين بك ، أحد وزراء محمد على الكبير .

داعيا إلى وجوب الانصراف ـ أمام رسول الله ﷺ ـ عن التشبيب بالنساء ، فالموقف أجل ، والعواطف الجياشة نحو الممدوح أقوى وأوضح من أن يحتاج معها الشاعر إلى وسائط ؛ فأنوار هادى الخلق جميعهم فى دراسة العلم شغلت عن ذكر جيران بذى سلم ، وأرسلت نغم التوحيد التى تلقاها عن رسول الوحى ، فكانت كالروح التى تمنح الحياة وتبثها فى كل ما تصادفه من كائنات ، وكانت كالزهر المبتسم الذى تهش له النفوس ، وتجد فيه راحتها .

ومن هذه الرؤية المبكرة ، يتجه الشاعر إلى نفسه بالخطاب ، حتى ينأى بها عن مسلك سابقيه ، ويقنعها برؤيته هو ، فيوضح أن مزج روح الواقف بباب المصطفى ﷺ بالروح التى ازدهرت ببعثه يغنيه عما فعله أسلافه من مزج الدمع الساجم بالدم ، وأن شمه العطر الفواح من روضة الرسالة المحمدية ، ألذ من عشق ريم القاع والأكم ، وهذا ليس بعجيب ولا غريب ؛ فإن من أحب عظيما اتحد معه فى الرأى والفكر ، قبل أن يتحد معه فى الشكل والفناء ؛ لأن الحب صنوان ، خيرهما حب الروح ، والثانى حب الماديات ، والعاقل الذى لا يهتم بحب الماديات . !

ومع تقرير الشاعر هذه الحقيقة ، ينحى على نفسه باللوم ، ويتندم على انحرافه عن الطريق المستقيم فى الهوى ، ويتمنى أن لو لم يضيع أحلام عمره بالاستسلام إلى ذلك الحب المادى وحده ، فإنه ينشّىء قصرا من الأوهام سريع الفناء والانهدام ، ويتمنى أن لو لم يهم إلا بمن عرفوا برقة القلب ، بدلا من حب من يوسمون بالظلم والعقم ؛ فإن كثيرا من الأحباب يجازون بالصد من يختلف معهم فى أفكارهم ، قبل أن يتجاوزوا ذلك إلى البحث وراء التهم التى يلصقونها بهم ، لقاء اختلافهم معهم ، ولا ريب فى أن من يصحب حبيبا لتوافق على شرب ، أو مجلس غناء ، مآله الندم والتحسر .

ولا يقف الشاعر ـ مع نفسه ـ عند حدد اللوم والتندم ، ولكنه يسعى لقيادتها إلى الاستقامة ، فيتوجه بالأمر إلى نفسه ، ليقيها الانهيار من الألم ، ويقى حسنه السوء من الملل ، وما ذلك إلا بأن يخلص هواه لرسول الله ﷺ ؛ كى يضمن شفاعته له يوم الحساب .

ويسقط عن نفسه المخاوف والريب ، فيغريها بأن تلزم رسول الهدى ، كى ترشف من ورده العذب من الرحمة والشفقة ما ينقع ظمأها ؛ فقلبه ﷺ ينبوع رحمة ، يقبل على كل إنسان بالفرح والبشر ... ففى مطلع قصيدته قال :

أنوار هادى الورى فى دارة العلم	**رفت على ذكر جيران بذى سلم**[1]
وأرسلت نغم التوحيد عن ملك	**كالروح منطلق ، كالزهر مبتسم**
فمزْجُ روحك بالروح التى ازدهرت	**يغنيك عن مزج دمع ساجم بدم**[2]
وشمُّك العطرَ فواحا بروضتها	**ألذ من عشق ريم القاع والأكم**

(١) الدارة من القمر : هالته ، والدارة : ما أحاط بالشىء . رف النور : تلألأ .

(٢) الدمع الساجم : السائل .

ومـــن يهم بعـــظيم يتحـــــد معــــه | بالرأى والفكر ، قبل الوسم والأرم
والحب صنوان ، حب الروح خيرهما | فلا تكـــن للهـــوى الفـــانى بملتـــزم
يا ليت أحلام عمـــرى لم تضع بدداً | بحب قصر من الأوهـــــــام منهدم
وليتنـــى لم أهـــم إلا بمن عُرفـــوا | برقة القـــلب ، لا بالظلـــم والعقـــم
فكم حبـيب إذا خالـــفت فكرتـــه | جازاك بالصد قبل البحث فى التهم[1]
ومـــن يساق حبيبـــا صد ثمرتـــه | وسحر ألحانـــه ، ينـــدم وينفطـــم[2]
فاربـــأ بنـــــفسك أن تنهار من ألم | واربـــأ بحسنك أن يكمـــدَّ من سأم[5]
واجعـــل هواك رسول الله تلـــق به | يوم الحساب شفيعا فائـــق الكـــرم[3]
هذا رسول الهدى ، فارشف على ظمأ | من ورده العذب عطفا شاق كل ظمى
كأنما قلبـــــه ينبــــــوع مرحمة | مستبشر بالرؤى ، جذلان بالـــنسم[4]

واقع محمد صلى الله عليه وسلم من أسرار عظمته :

ويرى الشاعر أنه بتلك المقدمة ، قد هيأ نفسه لمخاطبة رسول الله ﷺ ، ليخاطب فى شخصه الناس أجمعين ، ليكشف بعض خصائصه ﷺ ، التى تميز بها من سائر البشر فى واقع حياته ، تاركاً لخيال من يتلقى شعره أن يضع الخط فى موقعه المناسب حتى تكتمل صورة المصطفى ﷺ ، ملتزما ـ فى ذلك ـ بنهج سابقيه الذى يقوم على أن أصدق المدح وأروعه هو ذلك الذى يقوم على حسن تصور الواقع الحى للمدوح ، ما دام هذا الواقع كله أمارات عظمة ، ودلائل تفوق وفضل . !

ومن هذا المنطلق نسمع صوت الشاعر ـ وهو يستحضر صورة الممدوح أمام بصره وبصيرته ـ يناديه ﷺ ، فى قوة صوت تنبىء بمدى ثقته ، فيتخير من أدوات النداء ، أعلاها صوتا وأنداها ... يا أيها المصطفى المبارك طالعه ، إن بركتك ليست خاصة بك ، ولكنها للبشرية كلها ، فقد اصطفاك الله ليطلع منك نورا يبدد به ظلام الجهل الدامس ، وأبرز مظاهر هذا النور أنك وحدت ربك ، ولم تشرك به ، ولم تسجد لصنم كما كان يصنع قومك ، لرفضك أن تشرك بالله مالا حول له ولا طول ، ولا يستطيع أن يرد الروح إلى الميت ، فعاديت أهلك فى رفضك هذا ، وفى قيامك لتحطيم بدعهم ، وصمدت أمام عداوتهم ، حتى لكأنك وحدك الذى خلقه الله ليدفع عن الناس غشاوة الجهل ، ويعتصم بالحق .. وذلك قوله :

يا أيها المصطفـــى الميمـــون طالعـــه | قد أطلـــع الله منك النـــور للظلـــم
وحَّـــدت ربك ، لم تشرك به أحـــدا | ولست تسجـــد بالإغـــراء للصنـــــم

(١) الصد : الهجران .
(٢) ينفطم : ينصرف .
(٣) ربأ بنفسه ونزهها ، الكمد : التغير وذهاب الصفاء .
(٤) الجذلان : الفرحان .

وكيف تشرك بالرحمن آلهة | لا يستطيعون رد الروح للرمم
عاديت أهلك فى تحطيم بدعتهم | من ينصر الله بالأصنام يصطدم
كأن ربك لم يخلق لدولته | سواك من مرسل بالحق معتصم

وينطلق الشاعر مع انطلاقة المصطفى بالرسالة ، فيبرز أن أثر الرسالة فى الناس قد انعكس على أجناد ابليس الذين ضجوا من بأسهم ومللهم وأساهم ؛ إذ بدا عجزهم واضحا ، وأصبحت جهنم تشكو الجوع ؛ لأنها لا تجد حطبا يلبى حاجتها ، بعد أن استجاب الناس لدعوة السلام فى الأشهر الحرم ، حتى لكأن أحمد قد كبل أجناد إبليس بالأصفاد ، فلم يتمكنوا من مباشرة وساوسهم ، وارتدوا مقهورين نادمين ، وما ذلك إلا لأن هذا النبى الطاهر الشيم قد أسس شرعه الذى قدمه للعالمين على أقوم الأركان ، فغذى عقول الناس جميعا بأوضح الأفكار ، وأصدق المبادىء ، حتى أتاح لهم عيش النعيم ، ونقاهم من الذنوب والآثام ، وعلم العرب ، فنهض بهم حتى ساد أبناؤهم ، وتسنموا أعلا الممالك ، فوجد الناس فى كنفهم الأمان والعدل والسماحة ، وكانوا فى تطبيقهم شرع الله جادين مخلصين ، كأن هذا الشرع جزء من نفوسهم ، فاشتهروا بالأمانة والعدل والصدق ، والوفاء ، ولم يعودوا فى حاجة إلى تأكيد وفائهم بالقسم ، فكانوا مبرزين أعلاما فى كل أحوالهم من غير خلط بين متطلبات الحرب ، وواجبات السلم ، فهم فى الحرب جبابرة ، ولكنهم فى السلم عدل مجسم ، وبذلك مكنوا لملكهم من النفوس ومن التاريخ ، بينما زال من الممالك ما شيد على الطمع .. حيث يقول :

أدى الرسالة ، حتى ضج من سأم | أجناد إبليس ، واشتد الأسى بهم
وأفلست ــ بعد إقبال ــ جَهنمُهم | ولم تجد حطبا فى الأشهر الحرم
كأن أحمد بالأصفاد كبلهم | فارتد جيشهم المقهور بالسَّدَم[1]
شرْعٌ على أقوم الأركان أسَّسه | للعالمين نبى طاهر الشيم
غَذَّى عقول الورى حتى أتاح لهم | عيش النعيم ، ونقاهم من الأَثَم[2]
وعلم العرب حتى ساد نسلهم | هام الممالك ، وارتاحت لعدلهم
كأنما الشرع جزء من نفوسهم | فإن هم وعدوا استغنوا عن القسم
(قوم إذا استخصموا كانوا فراعنة) | فإن هم قَسَموا أرضوك بالقسم
وخلدوا ملكهم ريان مؤتلقا | وكل ما شادت الأطماع لم يدم

صورة الإنسان الكامل :

وعندما يصل الشاعر إلى هذه الدرجة من البيان ، يتوقف مع تأملات عالية الصوت ، يقدمها للمتلقين فى أبيات تضم الخبرة الواعية والحكمة الصافية الخالصة ، كاشفا من أسرار الحياة

(١) السدم ــ بالتحريك ــ : الهم أو الغيظ والحزن .
(٢) الأثم ــ بالتحريك ــ : الوقوع فى الإثم .

ما أبرز الإسلام قيمته ، فيذكر أن الممالك التى تشاد على الجشع لا تدوم طويلا ، وأن أثر تسلط المال على النفوس قوى عنيف ، حتى إن الشيب قد يجعل الفتى يمل من مآربه ، بينما عبيد المال لا يملون من كثرته ؛ فإن حب المال يصنع فى الإنسان ما تصنعه النار المشتعلة فى وقودها ، إذ لا تشبع حتى تقضى على كل الوقود ، كذلك حب المال يظل يدفع محبه حتى يقضى عليه ، دون أن يحصل شيئا ، ولو أن كل إنسان أدرك أن المال لا يبقى ، لما أبقى على علاقة تقوم على رابطة المال ، وكذلك حال العاشق الولهان .. لو أدرك أن العشق مهما بلغت حرارته ، فمآله إلى السلو والنسيان .. إذن لما عنّى نفسه بهذا الأمر .. وكذلك حال الإنسان مع أمور الدنيا كلها ، تبدو ذات بريق خلاب ، فإذا سيطر على الإنسان رغبته فيها تحولت إلى سم قاتل ، فليس أهنأ من إنسان يزهد هذه الأمور ، ولا يطلب منها إلا بقدر حاجته الضرورية .. إنه بذلك يضمن لنفسه راحة الفكر من المتاعب ، وينأى بها عن السقوط فى تلك الهاوية التى يكاد لا ينجو من تأثيرها إلا القلة النادرة ... عبر عن ذلك فى قوله :

إن الممالك إن شيدت على جشع ... تُفْرس ، ولا خير فى الحيتان للبلم[1]
وقد يمل الفتى بالشيب من أرب ... ولا يمل عبيد المال من بشم[2]
أتُّون نار زفور جد محتدم ... والمال يهوى بخلق جد مزدحم[3]
لو أدرك المرء أن المال تاركه ... لمل صحبة خوان الوداد عمى
ولو درى العاشق الموتور كيف سلا ... أحبابه ، لم يبت يوما بقربهم[4]
كفاك هما ، فأهواء الدنى غصص ... تودى بصفوك ، مثل السم فى الدسم
والزهد راحة فكر من متاعبه ... فإن دعانا وأهملناه ينتقم
هِمْنا بفانٍ ، فأغرانا وأذهلنا ... رأى قلب بحب الأرض لم يهم ؟!

والشاعر ــ كما نرى ــ بتأملاته تلك لم يقطع نفسه عن موضوعه ، ولا جمد الموقف ــ كما قد يتبادر إلى الذهن ــ ولكنه وظف تلك التأملات فى إبراز مقصده ــ وهو تصوير ما كان عليه المصطفى ﷺ من تميز وتفوق ــ فبعد أن قدم من تأملاته صورة الإنسان ــ فى عمومه ــ إزاء تلك المغريات المادية الخادعة ، كيانا ضعيفا ، أحمق ، لا ينتفع بتجارب الآخرين ، ولا يستغل ما حباه الله به من وسائل التأمل فى كشف الحقيقة ؛ فهو دائما عبد رغباته الذليل ، على الرغم مما تفعله بكل واحد تحت سمع الباقين وبصرهم ... بعد ذلك قدم الصورة المقابلة لتلك الصورة الضعيفة ؛ فأرانا المصطفى ﷺ إنسانا متأبيا على الخضوع لتلك المغريات ، فلديه من قوة النفس ما يمكنه من التحكم فى أهوائه تلك ، من غير شطط .

---

(١) تفرس : ــ بضم فسكون ــ تفتل وتهلك . البلم ــ بالتحريك ــ : صغار السمك .

(٢) البشم ــ بالتحريك ــ : الإكثار من الطعام حتى يتخم .

(٣) الأتون ــ بفتح الهمزة وتضعيف التاء وقد تخفف ــ : الموقد الكبير ، زفرت النار : سمع لاتقادها صوت .

(٤) الموتور : الذى قتل حميمه .

وتبلغ المقابلة بالشاعر درجة تشخص أمام عينيه صورة محمد ﷺ ، فيتوجه إليه بالنداء ، مبرزا أحد مظاهر هذا التميز ــ وهو الزهد ــ ليكشف أثره فى تعامله مع الأهواء البشرية ، حيث يراه ﷺ أزهد الناس فى الدنيا ــ على الرغم من تمكنه منها ــ فهو ليس زهد العاجز الذى يزهد فيما لا يملك ، ولكنه زهد القوى ، المتمكن مما يرفض ، فقد زهد فى الدنيا ، وتحت يده خزائنها ، وطوع أمره كل من حوله من الناس يلبون له ما يطلب ؛ فكان ﷺ ــ فى ذلك الزهد ــ مثار الدهشة والتعجب ؛ إذ كيف يعانى إنسان آلام الجوع راضيا بالدون الذى يقيم أود الإنسان ، فى الوقت الذى يستطيع فيه أن يستمتع مما تحت يده بما يصيبه بالتخمة ، وكيف يتمكن إنسان مما تمكنت أنت منه ، ولا تهتم بأن تكون ملكا متوجا ، كما يفعل كل من يصل به السلطان قريبا من تلك الدرجة ... بل إنك أشفقت على هؤلاء وأولئك وتوجهت إلى الله راجيا منه أن يجيرهم من عمايتهم ، نائيا بنفسك عن ذلك إلى موارد الصفاء والنقاء ، بينما القوم حولك يتضاحكون ــ بجهلهم ــ مما تفعل من أجلهم ، هازئين بك ، ساخرين منك ، حتى أضعفهم الجهل والوهم ، وقادهم إلى موارد التهلكة ، فكأن أفكارهم ــ تلك ــ ألقت بأرواحهم فى هوة الجحيم ... حيث يقول :

يا أزهد الناس فى الدنيا ، وفى يده ... خزائن الملك ، والأنصار كالخدم
عجبت .. كيف تعانى الجوع مرتضيا ... حظ الفقير ، ولم تلتذ بالتخم
ولم تبال بتيجان مرصعة ... ولم تكن للألى ضلوا بمرتسم[1]
تقول : ربى أجرهم من عمايتهم ... وتصرف النفس نحو المورد الشبم[2]
فاستضحك القوم هزءا ، واستبد بهم ... وَهْم فصيرهم لحما على وضم[3]
كأن أفكارهم من طول ما شقيت ... ألقت بأرواحهم فى وهدة الحطم[4]

عندئذ يعبق الجو بأريج محمد الزاهد فى مغريات الحياة ، الحريص على هداية قومه ، غير المبالى بما يقابلون به حرصه ذاك من هزء وسخرية ﷺ ، فتصفو نفس الشاعر ، ويناله من هذا العبق نفحات ، تسمو بمشاعره ، وترق بفكره ، وتكشف أمام بصيرته وبصره ما يخفى على الكثيرين ، فينطلق لسانه بتلك الحكم المتدبرة ، ليبين قيمة تلك الحياة ، ومصير الإنسان ، ومدى إفادته مما تغص به من بهارج وزخارف ؛ إذ يرى أن النار الحقة إنما هى تلك التى تصيب النفس حين تندم على ما سلف منها ، فليس أشد على الإنسان من أن يستسلم لأهوائه ، ولا يستطيع أن يكبح عنها جماح نفسه ، فليس أفضل للإنسان من أن ينقذ نفسه ويلبى حاجتها الحقيقية التى لا تكون إلا برضا الله الخالق ، والحياة نفسها تؤكد ذلك ، فليس هناك طعام ــ أيا

---

(١) ارتسم خطاهم : لم يتجاوزها .

(٢) المورد الشبم ــ بفتح فكسر ــ : البارد .

(٣) الوضم ــ بالتحريك ــ : كل ما يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير .

(٤) الحطم ــ بضم ففتح ــ كالحطمة : النيران الشديدة ، واسم لجهنم .

كان نوعه ـ ينقذ الإنسان من مصابه ، وليس هناك ثوب ـ مهما بلغت قيمته ـ يقيه شدة النار وويلاتها ، بل إن القصور المشيدة ـ مهما بلغت قوتها وارتفاعها ـ لا تقى الإنسان من الموت ، فالموت ينال ساكن القصر كما ينال ساكن الخيمة من غير تأثير لهذا ولا لتلك . والموت إنما يأتى على الإنسان الذى انهمك فى الملاذ ، وشغل بها عن المآثر التى تبقى على الزمان حاملة اسمه ، فتقيه الفناء ، على الرغم من موته وانتقاله إلى القبر . والعمر مهما طال إنما يعادل يوما ، فإذا انقضى هذا اليوم ، فلن يمكن رجوعه ، فما على العاقل إلا أن يهيىء الزاد الحقيقى الباقى ، قبل فوات الأوان ، وحلول الشيب والهرم .

ثم ينتقل الشاعر من الحديث المتأمل ـ أو من التأمل بصوت مرتفع ـ إلى الحديث عن نفسه ، ليبين أثر تلك التأملات فيها ، فيعلن أنه ـ نتيجة تلك الرؤية البصيرة ـ أسلم أمره لله ، لأنه وحده هو الذى يحفظنى ، كما يحفظ الأزهار فى الحقول ، والأطيار فى الجبال .! وكيف لا يصل الإنسان إلى تلك الحقيقة التى ما غابت عن الكائنات الأخرى ، على الرغم من أن خالق الكون جل وعلا قد فضل هذا الإنسان على سائر الكائنات ، وحلاه بالحكمة ؟!

ولو تصورنا أن الجهل يبلغ بالإنسان درجة تجعله يغفل عما يجب أن تقوم عليه الحياة من رحمة ، فإننا لا نستطيع أن نتصوره بعكس الحقائق ويرى أن فى الألم والشقاء ما يتطلع إليه من مكاسب ؛ إذ لا يصدق عاقل أن الروح المعلقة بالتراب يمكن أن تسمو وهى على حالتها تلك ، كما لا يصدق أن يعلو كائن ضعيف على الآساد فى الآجام . ! وفى ذلك قوله :

والنــــار حرقـــــة نفس من ندامتها ... يا بؤس من لم يجد عن شر مغتنــــم !
فاسلم بنفسك .. إن الروح يعوزها ... رضا الــذى علــم الإنسان بالقلــم
فلا طعــام من البـــأساء ينقذنـــا ... ولا لبــــاس يقينـــــا شدة الضرم
وهــل تفيــدك أبــــراج مشيــــدة ... والموت فى القصر مثل الموت فى الخيم
والمرء يفنــى إذا لم يبــــق مأثـــرة ... تحيـــا إذا باتت الأجساد فى الرجـــم
والعمــر إن طال يوم لا رجــــوع له ... فهيــىء الــزاد قبــل الشيب والهرم
أسلــمت لله أمــرى فهــو يكلــؤنى ... كالزهر فى الحقل ، والأطيار فى العلم
ألست أيها الإنسان أفضلهــــــــــا ... وبارىء الكون قد حلاك بالحكم ؟!
فإن يغب عنك أن العـــــيش مرحمة ... فكيــف تدرك أن الفــــوز بالألم ؟!
وكيف تسمو بروح بالثرى علقت ؟! ... وكيف تعلو على الآساد فى الأجم ؟!

من مظاهر العظمة فى الهدى المحمدى :

ويخلص الشاعر من تلك التأملات ، ليعود إلى ما شرف به من قبل ، حيث توجه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ ثانية مقررا له إعجابه بما أثمره بره من خير ونعمة ، فقد قدم للإنسان من التوجيهات ما لو التزموا به لما كان للجهل ذلك الأثر الفتاك ، ولما أصيب الناس بالعوز والفاقة ، ولما وقع الناس فريسة تلك الأحكام والفلسفات التى تقودهم إلى الهلاك ؛

فقد أغرق الناس فى خضم زاخر من المذاهب المتناقضة ، التى أحدثت فى الأرض من البلبلة ما قاد الناس إلى الحروب المتوالية ، والأزمات المتراكمة ؛ فلقد أغنيت أهل الأرض عن ذل الحاجة بما قدمته بتشريع الزكاة وغيرها من أنظمة المال التكافلية ، التى توطد العلاقة بين الأغنياء والفقراء . حتى يخيل للمتأمل أنك ـ حين قدمت هذه التشريعات ـ كنت تبصر ما سوف يصل إليه العالم فى عصرنا ذلك ، قبل أن تصيب الناس تلك الويلات والكوارث .. أو أنك تنبأت ـ على هذا البعد الزمنى ـ بما وصل إليه مفكرونا فى العصر الحديث من تخبط عقدى انتهى بهم إلى الإلحاد .. قائلا :

إن نبوتك ما أنكرها إلا من حارب الله ، وإلا من روع الناس بالتعذيب والظلم .. !

فيانبى الهدى حياك الله على ما اتسمت به من طهر ، وما نهضت عليه من عدل .. لقد أحببت دينك لما نشرته به من مساواة بين الناس ، وجعلت التقوى معيار التمييز ، ولما أسست عليه نظام الحكم ، ولقولك أنك مرسل لهداية الناس جميعا من غير تخصيص ولا تمييز ، ولاعتمادك فى دعوتك على الإقناع بالحوار ، دون اللجوء إلى العنف ؟ !

إن فى دينك السمح يذوب الاعتزاز بالجنس والعرق ، وتتلاشى حواجز الدول والممالك ، فكل إنسان يربطه بالآخرين روابط الأخوة ، حيث ينهض الجميع معلنين أن الله وحده هو الأكبر ، وأن كل شىء من المخلوقات إلى فناء ، فمن اعتز بشىء منه فقد اعتز بزائل ، ولا عزة إلا لمن يلوذ بجلال الله ، فهو وحده الذى بيده الملك كله ، وإليه وحده مرجع الجميع يوم البعث ..

إن الشاعر فى وقفته تلك أمام رسول الله يتجاوز ـ فى حديثه معه ـ فيض العواطف وتحليق المشاعر ، ونبض القلوب ، ليسلك كل ذلك مع رؤية البصيرة ، وإفراز العقل فى نظام واحد ☼ هو ذلك العقد الذى ربط فية بين إعجابه بسلوك المصطفى ﷺ ، وإعجابه بما تضمنه الإسلام من مبادىء تقود الإنسان إلى الهدى والنور فى شتى مجالات الحياة .. وذلك قوله :

أقول للمصطفى : أعظم بما ابتدعت ... آيات برك من خير ومن نعم

لو يتبع الخلق ما خلّدت من سُنن ... لم يفْتك الجهل والإعواز بالأمم

ولم ير الناس أحكاما وفلسفة ... فى الإجتماع ، تلقّيهم إلى العدم

مذاهبٌ أحدثت فى الأرض بلبلة ... وأورثتنا بلايا الحرب والإزم

أين الزكاة ، وأين العشر يحمله ... أهل الغنى للألى ماتوا من السقم

هل كنت تبصر ما أودى بعالمنا ... من قبل أن فاض بالويلات والنقم

أم هل تنبأت عما تم فى زمن ... سادت به فكرة الإلحاد والنهم

نبوة .. حارب الجبارَ مُنكرُها ... وروّع الناس بالتعذيب والحمم

فيا نبى الهدى حييت من علم ... بالطهر متسم ، بالعدل مدّعم

أحببتُ دينَك لما قلت : أكرمكم　　أتقاكمُ ، وتركت الحكم للحكم
وقلت : إنى هدى للعالمين ، ولم　　تلجأ إلى العنف ، بل أقنعت بالكلم
فى دينك السمح لا جنسٌ ولا وطن　　فكل فرد أخ ، يشدو على علم !
الله أكبر ، والأكوان فانية　　ومن يلذ بجلال الله لا يضم !
سبحان من بيديه الملك أجمعه　　ويرجعون إليه يوم بعثهم !

كيف نعض محمد بأمته :

فالشاعر أمام إعجابه بما قام عليه الإسلام من مبادىء وقيم جردت الناس من أسباب العنف والجور ، وخلصتهم من عوامل الحقد والحسد ... لا يملك إلا أن يقدم التحية والتعظيم لمن جاء بهذا الدين ، دون أن يفصل بين الإسلام ورسوله ﷺ ، منبها بين الحين والآخر إلى أن صلته بالقرآن الكريم وطيدة ، على ما تبديه إشاراته الكثيرة إلى بعض المضامين القرآنية .. !

ولكنه لا يغفل عن مقصده الأصلى ـ وهو مدح النبى ﷺ ـ فيقود متلقيه من لقاء الرسول ﷺ لتحيته ، إلى الوقوف أمامه من قرب ، للاستمتاع بالنظر إليه ، مستجليا بعض شمائله وصفاته ؛ فهو ﷺ عبقرى الورى ـ على الرغم من أميته ـ الذى تفرد بين العرب بما دعاهم إليه من الوحى المتوازن ، فقدم إليهم وحى ربه فى آيات كريمة غراء ، لا يمكن لمخلوق أن يأتى بمثله ، واستطاع بهذا الوحى أن يسترد شاردهم ، ويلم متفرقهم ، ويجمعهم من شتات ، فصنع منهم لحنا جميل الإيقاع ، متناسق التوزيع ، حيث وضع كل واحد فى مكانه المناسب ، كما استطاع أن ينقذهم من ظلام الجهل ، وينتشلهم من براثن العادات المرذولة ، ويطهر عقولهم من الحمق والخطل الذى قادهم إلى وأد بناتهم ، وتمسكهم بكثير من النظم البالية التى لا تمدهم إلا بما يفتك بهم ؛ إذ جاء محمد ﷺ فرد من ضلوا إلى الصواب ، وعلمهم أن المرأة كالرجل لها حقوق وعليها واجبات ، فاستنقذ النساء من الهلاك المحقق . !!

ويزداد إعجاب الشاعر بمحمد ﷺ حين يتأمل بعض شمائله ، فيصيح معلنا أن محمدا بما قدم كان فخراً لكل عربى ، يتيه به على كل إنسان ، أيا كان موقعه من الأرض .

وأنه ﷺ ـ بتشريعه الذى أخذ به الناس ـ كان سيد المصلحين ، من عرب ومن عجم ؛ فقد كرم المرأة بصيحته السديدة الواقعية ، التى أعلن بها الناس علاقة المرأة بالرجل ، ونبه فيها إلى أنها لا تقل عن الرجل أهمية ، فهى التى تمد الأمة بالأبناء الصالحين ؛ إذ تقوم عليهم بالرعاية والإعداد ، والتربية ؛ فكان أول من أيقظ الناس من غفلتهم ، ولفتهم إلى واقعهم الذى طالما غفلوا عنه ، منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، وعلى الرغم من ذلك .. نرى أهل الغرب فى عصرنا الحديث يتوهمون أنهم هم الذين كشفوا تلك الحقيقة . !

وأنه ﷺ ، ما خاطب الناس بطريقة واحدة ، ولكنه كان يخاطبهم على قدر عقولهم ، وكان أرأف بالمسكين من هؤلاء الذين يرفعونها شعارات براقة ، ولكنها لا تتجاوز الشعارات ، فهم فى

سلوكهم يرون الفقراء أسرابا من الغنم الضعيفة ؛ فكان ﷺ الطبيب البارع المخلص الذى عالج الأرواح ، وداوى النفوس ، من غير تمييز ، فأولى اليتيم والأرملة رعاية وحياطة ، كما رعى النفوس التى ذلت تحت وطأة الشر والظلم ، فنشر الخير والعدل والوفاء . ! وفى ذلك قال الشاعر :

يا عبقرى الورى الأمىَّ هل سمعتْ ... من قبلك العربُ وحيا جد منسجم

آياتك الغر إعجاز تنزه عن ... ند ، وليس دعى الحب كالسَّدِم[1]

كأنما الناس آلات مبعثرة ... أخرجْت منها جميل اللحن والنغم

من علم الجاهلىَّ الغِرَّ مكرمةً ؟ ... وأدُ البناتِ أم البالى من النظم ؟

محمد رد من ضلوا ، وعلمهم ... حق النساء اللواتى كن كالرمم

يا فخر أمتنا فى الأرض قاطبة ... وسيد المصلحين ، العرب والعجم

عزَّزت كل فتاة ، حين صحْت بنا : ... ما أولد العز غير السادة الحُشم[2]

فأنت أول من نادى بمأثرة ... يظنها الغرب من آلاء بعضهم

خاطبت كل ذكى حسب قدرته ... ولم تكن بغبى القوم بالبرم

وكنت أرأف بالمسكين من دول ... رأت بأمثاله سربا من الغنم

إن كان ينجع طب الناس فى جسد ... فأنت تفعل بالأرواح كالحسم[3]

ترعى اليتيم ، وترعى كل أرملة ... رعى الأب المشفق الباكى من اليتم

حاجتنا اليوم إلى مانهض بأمتنا أمس :

ومن هنا ... يتوجه الشاعر إليه ﷺ بالدعاء ، أن يخلصنا اليوم من أشباه ما خلص منه الإنسان قبل ، من الأمراض الجسمية والنفسية والاجتماعية ، تلك التى أصابتنا حين انصرفنا عن دين الله .. فيرجوه ﷺ أن يرعى النفوس وينقذها من الذل الذى أصابها من ظلم الطغاة الجبابرة ، حتى أفقدوها أبويها الكريمين : حب الخير ، والشمم ، وحتى صيروها يتيمة ضعيفة ، لا تستطيع المقاومة .. ويتمنى أن يهبنا مبدأ حيا ، ويمنحنا قوة نستطيع بها أن نقدم على التضحية ، كما صنع هو من قبل ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

عندئذ .. تتراءى للشاعر صورة المجتمع الإسلامى الذى صنعه محمد ﷺ منذ وطئت قدماه ثرى مدينة يثرب ، فيتمنى أن لو انتشر بيننا فى هذه الآونة ما نشر هناك من إخاء ، ظلت راياته ترفرف فى سمائها من غير انقطاع .

ويقرر الشاعر أن ما يتمناه ليس بالمتعذر ، ولا المتعسر ؛ فالإنسان هو الإنسان ، والقلوب هى القلوب .. إذا ألفت ائتلفت ، لأن الود كالحبل ما دام لم يقطع . إذ يقول :

(١) العاشق السدم ـ بفتح فكسر ـ : شديد العشق فى الحب .

(٢) الحشم ـ بضمتين ـ : ذوو الحياء التام .

(٣) حسم الداء بالدواء : قطعه .

فارع النفوس التـــى ذلت ، ويتَّمهـــا فقـد الكـريمين : حب الخير ، والشمـم

وهب لنــا مبـــدأ حيـــا ، وتضحيـــة بها تفـــردْت بين النـــاس من قدم

ليت الإخاء الـذى فى يثرب انتشرت راياتـــه .. ظل فينـــا غير منـــفصم

إن القلـــوب إذا ألـــفتها ائتلـــفت والـــودُّ حبـــل ، فإن تصرمـــه ينصرم

واقع المسلمين القاتم يؤكد حاجتنا إلى الهدى المحمدى :

وهنا ... تبدو لعينى الشاعر ، حقيقتنا القاتمة ، التى تبين ما آل إليه أمرنا اليوم ، حيث يرى الشر مستشريا ، والخطر عظيما ماحقا ، يكاد يستعصى على العلاج ، فيتساءل بحثا عما يمكن أن يطهرنا اليوم من الاختلاف والقطيعة التى علقت بالأرواح كأنها الوشم فى علوقه بالأجساد ، ويتعجب مما ران على الناس ، فاستبدت بهم الجفوة ، وسيطر عليهم الطمع ، كأنما أصابهم صمم ، فلم يسمعوا صوت الحق والعدل الذى أطلقه محمد عالياً قوياً . !

لقد أسمعتنا وأرشدتنا .. ولكننا نسينا وغفلنا ، واستسلمنا لأهوائنا ، ففقدنا التوازن ، وأمسى العزيز بيننا ذليلا ، وأصبحنا فى حاجة ماسة إلى أن تنفخ فينا ــ من جديد ــ روح نخوة تعيدنا إلى التوازن وتجمع أواصرنا ... وأن تبعث فينا همة تنهض بها ، كما نهض بها من قبل آباؤنا ، وفى ذلك كان قوله :

ماذا يطهـــر قومـــى من تنابذهـــم والصد يعلـــق بالأرواح كالـــرشم[1]

أجفـــوة ورعـــاة غرهـــم طمـــع كأنهم عن نداء الحق فى صمـــم

أسمعتنـــا فنسينـــا ، واستقـــل بنـــا هوى ، فأمسى عزيز القـوم كالحطـم

فانفـــخ بنـــا نخوة تجمـــع أواصرنـــا وابـــعث بنـــا همة يابـــاعث الهمـــم

الموازنة بين مايتيه به السابقون وبين الهدى المحمدى :

وهنا يقوم الشاعر بعقد مقارنة بين ما قدمه محمد ﷺ ، وما قدمه السابقون مما يعتزون به ويتيهون فخرا ، على الرغم من أن ما قدموه لم يكن له من تأثير فى بناء النفوس ، والسمو بالأرواح ، فهم لم يتجاوزوا الشكل المادى ، أما أبناء بابل فقد أفنتهم مآثمهم ، وأما الفراعنة فإنهم لم يخلفوا إلا الهرم ، وكذلك صارت حدائق أهل تدمر وبساتينهم خرابا ، فلم يبق شىء يذكر بهؤلاء وأولئك إلا تلك الآثار البالية ، ولا ريب أن الفارق شائع بين من يذكر الخير به ، ومن لا يذكر به إلا الأطلال والمبانى الدارسة ، ولو أن من اعتمدوا فى تسجيل أمجادهم على المبانى المشيدة رأوا ببصيرتهم مآل تلك المبانى لما اعتمدوا عليها ، فقد زالت أمجادهم ولم يبق منها سوى أطلال بالية ، والتاريخ خير شاهد على صدق هذا ... بينما نجد المصطفى ﷺ قائما حيا فى الناس بما قدم لهم من قيم وأخلاقيات ومبادىء ، حتى أصبح كل لسان يلهج بالثناء عليه ، على نحو ما يقرره فى قوله :

---

(١) الرشم : الوشم .

أبنـــاء بابـــل أفـــنتهم مآثمهـــا ❊ وآل فرعـــون ما شادوا سوى الهرم
وتدمـــرٍ ومغـــانيها غدت خربـــا ❊ والذكـــر بالخير غير الذكـــر بالإرم
يا ليت من شيدوهـــا للفنـــاء رأوا ❊ عقبـــى المبـــانى فأغـــنتهم عن النـــدم
زالـــــوا وزالت مع الآثار عزتهم ❊ فإن تجادل سل التـــاريخ واحتكـــم
والمصطفى خالد فى الناس ما بزغت ❊ أم النجـــوم ، وممدوح بكـــل فم

ويخلص الشاعر من تلك المقارنة المدعومة بالحجج ، التى تقفنا على بعض مناحى العظمة المحمدية ، ذات التأثير الإنسانى ، فلم تكن عظمته ﷺ عظمة ذاتية شخصية فحسب ، ولا كانت عظمة فردية أو إقليمية كذلك ، ولكنها عظمة شملت الإنسان فى شتى بقاع الأرض بالخير ، وأمدته فى مختلف العصور بالنور والهداية ، فلا يملك الشاعر إلا أن يتوجه — بصيحته — إلى العرب الذين انبثق فى أرضهم وبينهم هذا النور ؛ موقظا هممهم ، منبها غافلهم ، لافتا أنظارهم إلى ما كانوا عليه حين اعتزوا بدينهم ، واقتدوا بهدى نبيهم ، وإلى ما آل إليه حالهم حين تنكبوا الطريق ، وخدعوا بمظاهر الأشياء ، فشغلوا عن لبابها !

والشاعر — فى صيحته تلك — ينادى فى العرب أمجادهم المأثورة ، ليتذكروا حقيقة كادوا يغفلون عنها ، وهى أن المجد لا يفوز به إلا الشعب الموحد ، ويستنكر أن يقلبوا — بتخاذلهم — الأمور ، فيصبح الخير شرا ، ويترك الميدان للأشرار ينهبون خيرهم وأمنهم . ويذكرهم بأن الكرامة تأبى عليهم أن يستسلموا للذل ، ويدفعوا ثمن جرائم لم تصدر منهم !

دعوة المسلمين والنصارى الى التمسك بهدى محمد صلى الله عليه وسلم :

ومن هنا .. يتهيأ المقام لأن يطلب إليهم أن يستجمعوا أمرهم معتزين بالله الذى وحدهم ، حريصين من المكر والدهاء الذى كان وراء ما آل إليه أمرهم من شتات وفرقة ، ويذكرهم بما نالوه بشريعة أحمد من تهذيب ، وما نشرته بينهم من حب وعدل وسلام ، وذلك قوله :

يا أيها العـــرب المأثـــور مجدهـــم ❊ ما فاز بالمجد شعب شبـــــه مختصم
أيصبـــح الخير شرا من تخاذلنـــا ؟! ❊ ونعتدى نهبة الغربـــان والرخـــم ؟!
إن الكرامـــــة تأبى أن نذل ولم ❊ نهضم حقوق الورى كالهائـــج الضرم
فاستجمعـــوا أمـــركم ، فالله وحـــدكم ❊ والمكـــر فرقكـــم فى حومـــة الجسم
وشرع أحمد بالقـــرآن هذبكـــم ❊ وجـــد فى أمـــركم بالحب والسلـــم

ثم يتوجه بالنداء إلى المسلمين مذكرًا إياهم بأن الفخر فخرهم ، وأن النصارى العرب إخوانهم باللسان والعلم فوحدة اللغة والوطن ، تربط النصارى بالمسلمين ، وهذا يوجب على المسلمين أن يؤيدوا دينهم بالفعال الكريمة ، ويقيموا حياتهم على أعظم القيم الإنسانية وهو الحب ، فهذا هو الدين الحق . وفى ذلك يقول :

يا أيها المسلمـــون الفخـــر فخـــركم ❊ ونحن إخوانكـــم بالنطـــق والعلـــم
فأيـــدوا بالفعـــال الغـــر دينكـــم ❊ فقيمـة الحب عنـــدى أعظـــم الـــقيم

ما الدين إلا هوى فى نفس عاشقـــة ومـن يبـح بالهوى يوم النـــوى يلـــم

وتصل هذه الرؤية البصيرة بالشاعر إلى وقفة متأنية يسترجع فى أثنائها ما توصل إليه من توجهه إلى رسول الله ﷺ ، ونظره فى الإسلام وواقع المسلمين فى ماضيهم الزاهر ، وحاضرهم الكئيب ، فإذا بالحكمة تتوارد على لسانه ، مصورا بها خلاصة الموقف ، فقد رأى أن عالم الفناء الذى ينتظر كل إنسان يتساوى فيه من نال فى دنياه مآربه ، ومن مات قبل أن تتحقق آماله ، وذكر أن هذه الرؤية أملاها عليه لحظة صفاء ، تمكن خلالها من إدراك الحقيقة من غير زيف ، وكانت تلك الرؤية الصوفية دافعا لانصراف نفسه عن الدنايا ، لأن من يسعى إلى المعالى يتحمل فى سبيلها كل عناء . ومن يدرك هذه الحقيقة ، يجب عليه أن يستهدى فى الكون بهدى الله جل شأنه ، وأن يكون حبه ـ كحب الملائكة ـ مقصورا على حب الله ، وأن يلزم الاستقامة ، ويتجنب سبيل من قصروا هواهم وحبهم على الدنيا ، فإن حب الحسان يخلف المحب عليلا دامى المهجة ، من غير سأم ولا ملل . وذلك قوله :

سيان ـ ياقوم ـ من يقضى بلا أمـل ومـن ينـال المنى .. فى عالم العـــدم[1]
صوفيـــة أدركتها النـفس ، فانصرفت عن الدنايا ، ومـن يهوى الـعلى يصم
فاستهد بالروح فى الأفلاك ، واهْوَ ـ كما تهوى الملائك ـ وجـــه الله واستقـــم
وقـل لمن أدمت الأهـــواء مهجتـــه : أمـــا اكتفـــيت من الدنيـــا بحبهم ؟!

حب الشاعر محمداً وأثر ذلك فيه :

ويندفع الشاعر ـ بعد التعرض لتلك التجربة الإنسانية على تباينها ـ مصورا أثر حبه محمدا فيه ، فيذكر أنه أصيب فى فؤاده بسهم الحسن ، حتى أصبح ثبات قدمه مثار دهشة وتعجب ، إذ كيف يقوى على الوقوف من أصابه مثل هذا الجرح البالغ . ولكن الذى مكننى من تحمل هذه الآثار إنما هو ما جرى على لسانى من أناشيد أذكر فيها تجربتى ، فقد رطبت تلك الأناشيد صدرى ، وأطفأت نيران لوعتى ، ففرجت عنى مصابى ولو أن فؤادى بخل على فلم يسعفنى بما أخلد به حبى هذا فأولى بنفسى أن تبحث لها عن كهف ببطن الأرض يطويها . وإنى بهذا الشعر الذى أخلد فيه حبى إياك لأرجو أن تخلد ذكراى ، فأكون كمن نسيه الموت وتركه للخلود .. فيقول :

رمت فؤادى بسهـــم الحسن فاتنـــة فاعـــجب لصب جريح ثابت القـــدم
ندّت أناشيـــــده نيرانَ لوعتـــــه ففـرجت عن عليـل بالجمـال رمـــى[2]
إن لم يخلِّـــــد فؤادى الحب فالتمسى يا نفس كهفا ببطـن الأرض واعتصمـى
علَّ المنيـــــــة تنسانى ، كما نسيت عرائس البحر صيـد النسر فى القمـم

(١) قضى فلان : مات .

(٢) ندى المطر الشجر : أصابه بالبلل .

ولا يطيل الشاعر وقوفه مع التأمل والحكمة وحديث النفس .. ولكنه يرتد سريعا إلى مشافهة محمد ﷺ بما يراه عليه ، ليكمل ما بدأه من تصوير شخصى ، يبرز صورته ﷺ المستقرة فى مكنون نفس الشاعر ـ ممهدا بذلك لختم مدحته ـ فيرينا محمدا نفحة من جنان الخلد ، شرفت بها الأرض ، فعطرت أرجاءها ، واجتذب أريجها المشرق والمغرب ، ثم يقدم نفسه إلى ممدوحه ـ وفى الوقت نفسه إلى متلقيه ليزيل من نفسه ما قد يكون من شبهات ـ بأنه محب يربطه بمحمد ﷺ من وشائح الحب الفطرى الخالص ، ما جعله يتجاوز فوارق الأنساب والأرحام ، فإن ارتباط الحب بالأنساب والأرحام ثمرة زعم كاذب ، لاحقيقة له ، لأن الناس من عهد آدم جميعهم رباط وثيق من محمد ، فقامت على هذا شرعة الحب الحقيقية بالالتزام .

ثم يقرر أنه أحب فى محمد صفات متميزة خصه بها الخالق جل شأنه ـ من جمال الوجه ، وظرف الطبع ، والوفاء بالعهد ـ فكلما يعشق الشاعر فى الغيد جمالهن ، فيمنحنه وحيا شعريا ، يكتب له الخلود .. فكذلك حالى معك ، فقد منحنى حبك هذا الوحى الذى عاد على بالخير العظيم ، فكنت مثل نجم منير استمد من نوركم نوره .. وفى ذلك كان قوله :

يانفحة من جنان الخلد سارية	**كالدر يلثم فى الأسحار من أمم**
إلى محب ، ومحبوب .. ولو زعموا	**أن المحبة بالأنساب والرحم**
فالناس من آدمٍ بالمصطفى اجتمعوا	**وشرعة الحب أم الناس فأتمم**
ياأجمل الخلق سيماء ، وأظرفهم	**طبعا ، وأوفاهمُ بالعهد والذمم[1]**
عشقت منك صفاتٍ ، جل مبدعها	**كالغيد ، تفتن لب الشاعر الفهم**
يرنو ، فيمنحنه وحيا يخلده	**ورب حب مثير جاء بالعظم**
ورب نجم منير يستضىء بكم	**«فأنتم الشمس لم تدرك ولم ترم»**

وهكذا .. يمهد الطريق للحديث عن تلك المدحة التى أفاضها عليه هذا الحب ، فيذكر أن ما فى هذا الشعر من حسن إنما أنت مصدره ، فهو قبس من شمسكم ، ولولا ذلك لما كان هذا الشعر . وما كنت أنت فى حاجة إلى شعر تمدح به بعد أن حياك ربى فى كتابه الكريم ، وبما أجرى على يديك من آيات ، لكن ماأقدمه هنا إنما هو تصوير شعرى لشخصكم الكريم ، قصدت به أن تجيرنى حين أخلع من عالم الأحياء . حيث يقول :

وحسن شعرى بكم من شمسكم قبس	**والنبع ما سال ، لولا صيِّب الدِّيم[2]**
فإن أجدتُ بهذا الطل مدحَكم	**فكل معنى بكم كالهاطل العرم[3]**

(١) السيماء : السيما والعلامة .

(٢) الديم ـ بكسر ففتح ـ جمع الديمة : المطر يدوم ، الصيب : المطر .

(٣) العرم ـ بفتح فكسر ـ جمع العرمة : المطر الشديد .

حيـــاك ربى بآيـــات مفصلـــة   والنـــاس أعجـــز عن إدراك ربهم
لكنها صورة بالشعـــر أرسمهـــا   لأستـــجير بها إن بت كالحلـــم

بيد أن حديثه عن شعره فى مدح المصطفى ﷺ ، لا يشغله طويلا عن ممدوحه ، الذى يجد راحة النفس فى الحديث عنه ، وذكر اسمه ، وتمثل شخصه بالنداء .. فيعاود الوقوف أمامه ـ بعد استحضاره بالنداء ـ مرددًا بعض خصائصه ، مستشفعا به ، مقسما عليه بحق ترديده التوحيد فى الحرم ، راجيا الله أن يصلى عليه حيا فى قلوب من أنار لهم طريق الحياة ، وأن يصلى عليه ثاويا ما كان على الأرض حياة ، وأن يصلى عليه ذكرى محمودة ممدوحة إلى أن يقوم الناس يوم البعث ومحمد ﷺ إمام الصلاة فيه .. وذلك قوله :

ياهادى الفكـــر أهـــداه الإلـــه إلى   عبـــاده منـــةً من فضلـــه العمـــم
إن يمدحـــوك بأبيـــات منمقـــة   فأنت تفـــرق قلبـــى عن قلـــوبهم
تبـــارك الله ، لو شاءت مراحمه   لشع نورك بين النـــاس كلهـــم
إن لم تكـــن بوكيـــل فاشفعـــن لنـــا   بحق ترديدنـــا التوحيـــد فى الحرم
صلى الإلـــه على محيـــاك فى مهـــج   تحيـــا بها كحيـــاة النـــور فى السُّدُم[(١)]
صلى الإلـــه على مثـــواك ما صدحت   ورقـــاء أو هيمـــنت عطريـــة الـــنسم
صلى الإلـــه على ذكـــراك ممتدحـــا   حتـــى تؤم صلاة البـــعث بالأمم

فالشاعر (ميشيل الله ويردى) فى مدحته شاعر مهموم كذلك ، أثقلته هموم أمته ، فلم يملك ـ على الرغم من نصرانيته ـ إلا أن يتجه إلى من قام بالدور نفسه فى إنقاذ العرب والإنسان على وجه العموم مما حاق به فى ظل الجهل والطيش ، وما خلفه ذلك من فساد وظلم واستبداد !

بيد إن الشاعر ـ هنا ـ يختلف عن (باكثير) فى المنهج ، فبينما نجد الهموم تستغرق باكثير ، فيسلط عليها أضواء شعره ليبرز أخطارها ومضاب الإنسان بها ، مؤكدا بذلك الحاجة الشديدة إلى إعادة العصر النبوى بما ساده من علم ، ونور ، واتزان ، وعدل .. نجد (ميشيل) أكثر تركيزا على استحضار السلوك النبوى ، وشمائله ، وقيم الإسلام الذى أوحى إليه ، ليسقط ـ من خلال ذلك ـ من واقع الأمة ما آل إليه أمرها فى ظل هذا الضياع والتفكك الذى استشرى بكل بقعة من بقاعها !

أى إن الشاعر (باكثير) جعل استيحاء واقع أمته وسيلة لاستيحاء العصر النبوى وما قدمه المصطفى ﷺ لأمته فيه من أسباب الإنقاذ . أما (ميشيل) فقد جعل استيحاء العصر النبوى ، والوقوف أمام فعال المصطفى ﷺ وسيلة لاستيحاء همومه وهموم أمته .

---

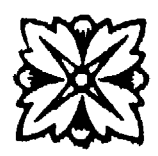
(١) السدم ـ بضمتين ـ جمع السديم : مجموعة نجوم بعيدة جدا تظهر كأنها سحابة رقيقة ، ومنه المجرة .

ومع هذا .. نلاحظ أن هما آخر يثقل كاهل الشاعر (ميشيل) أبداه على حياء ، أو بدا منه عن غير قصد .. وذلك هو الهم الناشيء عن حاجته إلى أن يعادل بين ما يفترضه فيه الكثيرون من أبناء دينه (النصارى) ، حيث يشعر بأنهم يفترضون فيه أن يكون معاديا للإسلام ولرسوله محمد ﷺ ، متغافلين ـ أو غافلين ـ عما بين الإسلام والنصرانية من عرى وروابط تجمع الناس ـ على خير الناس ـ ولا تفرق ؛ فرأيناه بين الحين والآخر ينبه إلى منطلقه فى مدحه ، تارة بالتصريح وأخرى بالتلميح والإيماء .

والقصيدة ـ مع هذا وذاك ـ تكشف عن الأبعاد الثقافية للشاعر ، وتجزم بمدى تأثره بالثقافة الإسلامية ـ على اختلاف ألوانها ومظاهرها ـ خصوصا آيات القرآن الكريم ، وتاريخ المصطفى ﷺ .

وفى ابتهالات الشاعر واستشفاعه ندرك جهده فى محاولة التغلب على همومه الناشئة من الصراعات الطائفية ، حيث كرر الدعاء بالصلاة على المصطفى ﷺ ، شافعا كل دعوة بحالة من خواصه ﷺ .

وكما وضح تميز باكثير فى غلبة النزوع الوجدانى على قصيدته ، نلمس هذا التميز كذلك فى مدحة (ميشيل الله ويردى) !



الدكتور حسن إبراهيم[1]

فى قصـــــيدته

(محمد رسول الله)

وعلى منهج (باكثير) ، و (ميشيل الله ويردى) فى تجاوز الالتزام بالمقدمة الطللية .. يطالعنا الدكتور حسن إبراهيم على مدى أربعة وعشرين ومائة بيت فى قصيدته (محمد رسول الله) ، لكنه فى عدم التزامه ذلك لم يستطع أن يخلع نفسه تماماً من المنهج السلفى فى الوقوف على الأطلال تمهيداً لتقديم موضوعه ، حتى ليبدو أنه متردد فيما اعتزمه ، أو أن سلطان هذا المنهج التقليدى بلغت سيطرته على الشاعر درجة لم يتمكن معها من التخلص من كل آثاره ، ولكنه واقع بين قوتين متضادتين تتنازعانه ، هذه تفرض عليه تجاوز المقدمة الطللية ، وتلك تمليها عليه إملاء ، فلم يستطع إلا أن يكون وسطا بين الوجهتين ، فمهد لمدحته بمقدمة ينفى فيها عن نفسه الوقوع فى حب الغانياتـ كما وقع أسلافه ـ ويقرر أنه اتجه مباشرة بقلبه إلى ربه ، وإلى ممدوحه المصطفى ﷺ دون الحاجة إلى التوسل ـ فى ذلك ـ بمحركات عاطفية أو فنية مصنوعة .. فإذا

---

(١) الدكتور حسن إبراهيم ، العالم الطبيب ، الأديب ، ابن الدكتور على إبراهيم ، نابغة الجراحة ، وأحد الرواد ، الذين هدفوا إلى إحياء لغة الطب العربى ، منذ مطالع القرن العشرين ، والدكتور حسن من مواليد سنة ١٩١٤ ، تخرج فى كلية الطب سنة ١٩٣٧ ، ونال إجازة الماجستير المعادلة للدكتوراه فى ذلك الحين سنة ١٩٤١ ، ثم نال زمالة كلية الجراحين الملكية فى إنجلترا سنة ١٩٤٦ ، ومنحته هذه الكلية لقب أستاذية هنتر على بحث فى سرطان المثانة الناشىء عن البلهاريسيا سنة ١٩٤٧ ، وتدرج فى مناصب هيئة التدريس فى كلية الطب بجامعة القاهرة ، حتى عين أستاذا للجراحة التجريبية سنة ١٩٦٢ ، ثم عين عميدا للكلية سنة ١٩٧١ ، ولما بلغ السن القانونية للمعاش سنة ١٩٧٤ عين أستاذا متفرغاً للجراحة ، واختير عضواً فى مجمع اللغة العربية سنة ١٩٧٩ . وقد ألقى الشاعر هذه القصيدة فى الجلسة الثانية لمؤتمر مجمع اللغة العربية ، فى الدورة الخامسة والأربعين الثلاثاء ٣٠ من ربيع الأول سنة ١٣٩٩ هـ الموافق ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩٧٩ ، ونشرت فى مجلة مجمع اللغة العربية الجزء الثالث والأربعين جمادى الآخرة سنة ١٣٩٩ هـ الموافق مايو سنة ١٩٧٩ .

كان البوصيرى يردد أمره بين تذكر جيران بذى سلم وبين هبوب الريح عليه من جهة الأرض التى ولد فيها النبى ﷺ ، ليرجح الأخير .. وإذا كان شوقى يعلن أنه وقع أسير ريم على القاع بين البان والعلم ، وإذا كان كعب بن زهير - من قبل - لم يتمالك نفسه أمام فراق سعاد ؛ إذ أصاب قلبه التبل .. فإن الدكتور حسن إبراهيم ينفى عن نفسه هذا وذاك ، فلا هو - فى تهيئه لمدح المصطفى ﷺ ثائر العاطفة ، باك ، يبحث عن سر بكائه - كما صنع البوصيرى - ولا هو عاشق استهواه العشق ، وملك عليه أقطار نفسه ، كما صنع كعب وشوقى ... ولكنه يقظ واع لما هو مقبل عليه ، فهو يتجه إلى غرضه مباشرة ، من غير حاجة إلى تمهيد تشبيبى ، ولا حاجة إلى ما يتخلص به لموضوعه ... وما تنبه أنه - إذ ينفى ذلك عنه - وقع فيه من غير أن يدرى ، غاية الأمر أنه تشبيب سلبى ، ينفى فيه عن نفسه أنه ذاب شوقاً لجيران بذى سلم ، ويقرر أنه لم يأرق لذكر أطلال الأحباب وديارهم ، ولا أباح لحسناء القاع أن تسفك دمه فى أى وقت ، ولا وقع فى أسر سعاد وحبها ، حتى إن بينها عنه لا يخلف تلك الآثار التى خلفتها فى كعب بن زهير ...

ويخلص إلى موضوعه الأصيل بتفسيره ذلك التأبى على حب الحسان ، بأنه يرجع إلى اشتغاله بحب أعظم منه ، وأعمق أثراً فى القلب وفى النفس ؛ فقد اتجه بتلك العاطفة إلى الله بارئه ، وإلى رسوله المصطفى راجياً شفاعته من المؤاخذة على ما وقع فيه من آثام ؛ فقد هيأنى المشيب لأن أقف عاطفتى ووجدانى على ذلك ، متندماً على ما كان منى فى سالف أيام عمرى ... وذلك قوله :

ما ذبت شوقاً لجيران بذى سلم	ولا أرقت لذكر البان والعلم
وما أبحت لريم القاع سفك دمى	فى الأشهر الحل ، أو فى الأشهر الحرم
وما سعاد إذا بانت بمتبلة	منى الفؤاد ، فإن القلب فى شبم[1]
إنى اتجهت بقلبى نحو بارئه	من مطلع الفجر ، حتى غيهب الظلم[2]
وسيدى المصطفى ، أرجو شفاعته	وهو الشفيع لنا من زلة القدم
إن المشيب علانى ، فاتعظت به	وكم أرَقْتُ لوزْرى عَبرةَ النَّدم

منشؤه صلى الله عليه وسلم :

ومن هذه المقدمة الموجزة يخلص الشاعر إلى محمد ﷺ ، الذى اتجه إليه راجياً شفاعته ، فبدأ الحديث عنه مؤرخاً كاشفاً بعض ما مر به فى حياته من مشقات ومتاعب ، كان له أثر كبير فى إعداده ، ليكون الإنسان الجدير باصطفاء ربه واختياره لأخطر مهمة ، فتناول يتمه قبل مولده ، وموت أمه فى طفولته ، وقيام جده على تربيته حيناً ، ثم انتقاله إلى كفالة عمه بعد موت جده ، ورعيه الغنم حين شب ، وسفره بالعير متاجراً ، واشتهاره - فى أثناء ذلك - بالأمانة

(١) أتبله الحب وتبله : أسقمه وذهب بعقله ، الشبم - بالتحريك - : برودة القلب ، وقلة حسه .
(٢) الغهيب من الليل : الشديد الظلمة .

والصدق حتى كنى بهما ، ورفضه ما عليه قومه من عبادة الأصنام ، واتجاهه إلى الخلوة ، والتأمل بحثاً عن الحقيقة ، بعد أن أثار تعجبه عكوفُ قومه على ما توارثوه من صنع الأصنام ، ثم السجود لما صنعوا فى خشوع وخشية ؛ فتساءل ــ مستنكراً ــ عن مدى قدرة هذا الحجر الصلد ، الذى لا عقل له .. على إحكام تسيير الكون ، بما يشتمله من أجرام ومجرات ، أو على خلق إنسان ، هو نفسه الذى خلق هذا الصنم بما فى يده من آلات ؛ ولذلك كان موقفه من عبادة الأوثان واضحاً حاسماً ، فرفض أن يشارك قومه فى عبادتها ، أو تقديم القرابين إليها ، ولم يستطع إزاء ما عليه قومه جميعهم من استسلام وخضوع للأوثان ، إلا أن يختار لنفسه مكاناً تطمئن فيه وإليه نفسه ، يقيم فيه الليالى والأيام متأملا ، فتصفو نفسه من أوشاب مجتمعه ، وتتخلص من تلك الأثقال المضنية .. حيث تعلن حركة الأفلاك الكونية ــ بنظامها الدقيق البديع ــ عما وراءها من تدبير وإحكام ، يفرض وجود مدبر حكيم ، هو وحده رب الكون وما فيه ومن فيه .. حيث قال :

محمد عرك الدنيا بما حَفَلت ... من الشقاوة والنعمى ، ومن غُمَم
جاء الحياة يتيماً قبل مولده ... وفى الطفولة عانى شقوة اللَّطم[1]
فعاش مع جده حيناً ، وفى كنف ... لعمه ، والعُرَى موصولة الرحم
وحين شب رعى للقوم شاتهم ... كل النبيين ، قد هشوا على الغنم
وسار بالعير والأموال متجراً ... وهو الأمين على قوم ومالِهم
وهو المصدق فى قول ، وفى عمل ... فصار يكنى أميناً ، وهو خير سمى
وصار يَعْجب من قوم ؛ فدينهمُ ... توارثوه عن الآباء من قِدَم
أينحت الناس من أحجارهم صنماً ... ويسجدون خشوعاً ، خشية الصنم ؟!

وكيف يَحكُم صلدٌ لا جَنان له ... مسيرة الكون ، والأجرام والسدُم ؟!
وكيف يخلق هذا المسخُ مقتدراً ... إنساً ، وقد خلقته الإنس بالقُدمُ ؟![2]
فما تعبد فى يوم إلى وثن ... ولم يشارك بقربان ولم يهم
بل راح للغار يصفو فى تأمله ... وكم تغيب نجم وهو لم ينم !
تأمل الفجر يبدو ، والحياةَ معاً ... وكيف تحيا مواتُ الأرض بالديم
وتشرق الشمس للأحياء جالبة ... دفء الحياة ، ويسرى البدر فى الغَسَم[3]
وهذه الشم من أرسى دعائمها ... فزاحمت شهب الأفلاك من شمم
من خالق الروح والإنسان ؟ هل خلقا ... سُدًى ؟ وماذا وراء الموت من حكم ؟!

(١) اللطيم : من يموت أبواه وهو صغير .

(٢) القدم ــ بضمتين ــ جمع القدوم : آلة للنجر والنحت .

(٣) الغسم ــ بالتحريك ــ : القطعة من السحاب فى السماء .

ومن هذه التساؤلات التى تمثل ما كان يدور بخاطر المصطفى ﷺ فى خلوته .. كانت الإجابة التى حملها إليه رسول الوحى من ربه فى جنح الليل فزلزلت بها العروش ، حيث طلع فجر الحياة ، فبدد ظلمات الجهل والظلم والضلال ، وقد دار فى هذا اللقاء حوار بينه وبين جبريل عليه السلام ، إذ قال له : اقرأ ، فقال له : كيف اقرأ وأنا لم أعلم من قبل ، فضمه جبريل حتى غطه ، ثم أعاد عليه طلبه ، فأعاد محمد جوابه ، حتى كان ذلك تمهيداً لأول تنزيل من الكلام ، فانسال الهدى من تلك اللحظة يسرى فى كل ناحية ، كالنور ينتشر فيبدد ظلام الليل ، أو كالدواء يسرى فى الجسم فيزيل السقام .. هذا الهدى الذى رد الإنسان إلى إخلاص العبادة لله رب الخلق ، وفاطر الكون من العدم ، الواحد الذى لا شريك له فى الملك والتدبير ... بهذا ـ فى إجماله وتفصيله ـ تردد الوحى بالآيات المنزلة ، حتى تكاملت ، فكانت هذا الكتاب الكريم المحكم ... أبرز الشاعر هذه اللحظة فى قوله :

جاء الجواب بجنح الليل فاختلجت ... له العروش ، وكان الفجر للأمم
جبريل فى الغار قال : اقرأ مدوية ... فقال : كيف ، وما عُلِّمت بالقلم ؟!
فغطه ، ثم قال : اقرأ ، فردها ... فكان أول تنزيل من الكلم
وأصبح الهدى يسرى كل ناحية ... كالنور فى الليل ، أو كالبرء فى السقم :
أن اعبدوا الله رب الخلق كلهم ... وفاطر الكون ، والدنيا من العدم
الواحد الفرد عال لا شريك له ... فى الخلق ، والملك ، والتدبير ، والقِدَم
تردد الوحى بالآيات منزلة ... فسطرت كنظيم الدر والتُّوَم[(١)]

من مظاهر الإعجاز القرآنى :

ومن هنا ... انطلق الشاعر مع القرآن الكريم ، مستعرضاً بعض مظاهر إعجازه ؛ فقد جاء الكتاب الكريم عجيباً فى بلاغته ، وفيما تضمنه من نظم وتشريعات ، فلم يستطع أحد محاكاته ، ووقف الإنس والجن أمامه عاجزين ، فكلما تقدمت بالإنسان الحياة ، وكشف شيئاً من أسرارها ، عاد بالنظر إلى القرآن الكريم فوجده قد سبقه إلى ذلك ؛ إذ فيه ما يلائم الأفهام فى كل بيئة ، وما يلبى حاجة الإنسان فى كل زمان ومكان ، ففيه الهداية للدنيا والآخرة ، بما يتضمن من سبل الإيمان والتقوى ؛ تحذيراً للنفوس بتصوير سعير جهنم ، وإغراء بفعل الخير بتصوير الجنة وما تضم من أسباب الراحة والسعادة ، وتوجيها إلى التمييز بين الخير والشر بما يقدمه من مواعظ وقصص ، تحرك العقول للتأمل والنظر .! وذلك قوله :

جاء الكتاب عجيباً فى بلاغته ... وما حواه من التقنين والنظم
فما استطاع محاكاة له أحد ... فالإنس والجن عان إثر منفحم[(٢)]

(١) التوم ـ بضم ففتح ـ جمع التومة : اللؤلؤة .

(٢) العانى : الذليل ، المنفحم : العاجز أمام الحجة .

فى كل يوم يريك العلــــم آيتـــه   فاليوم يكشف ما قد غاب عن فَهَـم
فيــه الهدايــة للدنيـــا وآخـــرةٍ   فيــه الطريــق إلى الإيمان والــعِصَم
ذكـر السعير تُهابُ النفس صورتــه   أمــا الجنــان فمثـوى كل ملتــزم
به الروائـع من وعــظ ومــن قصص   فيــه التأمــل فى سبــع وخلقهــم

بيد إن الشاعر يعود سريعاً إلى الحديث عن محمد ﷺ ، وقيامه ـ فى إصرار ـ على دعوة قريش للهدى ، على الرغم من عنادهم ، ومقابلتهم إياه بفاحش القول ، وإصمام الآذان ؛ فقد عميت قلوبهم فأصبح صعباً شفاؤها مما ران عليها ، ولم يستجب لدعوته إلا قلة ، بينما جنح أكثرهم إلى معاداته والتفنن فى إيذائه وإيذاء من استجاب له وتابعه ، فكان قوله :

وصار يدعــو قريشاً للهــدى فأبــوا   وقابلوه بهجــر القــول والصمــم[1]
غشاوة العين قد تُشفى ، وإنَّ عمًى   يغشى القلــوب لداءٌ غيــرُ منــحسم
فقلــة آمــنت ، والجل قد جنحــوا   إلى العداء ، وإيــذاءٍ ، ومصطــدم[2]

حادثة الإسراء والمعراج :

وبهذه الإشارة مهد السبيل للحديث عن حادثة الإسراء والمعراج التى كانت من أبرز معجزاته ﷺ ، حيث شاء الله تعالى أن يسرى عنه مصابه فى قومه بعد أن مات عمه أبو طالب ، وزوجه خديجة ، فأسرى به ليلا بقدرة الله التى مكنته من قطع الصحراء والوصول إلى بيت المقدس فى سرعة خاطفة لا تدانيها سرعة الأينق القوية ، فاجتمع حولك الرسل والأنبياء لتصلى بهم إماماً وهم من خلفك ، ومن هناك ارتفعت لعرش ربك مجتازاً السماوات ، حتى بلغت مكاناً لا يقترب منه مخلوق سواك ، فتجلى لك الرحمن ، وتلقيت من فيضْ نوره شريعة الإسلام ... وفى ذلك قال :

سريت فى الليـل تطوى البيــد مرتحلا   بقــدرة الله ، لا بالأينــق الرُّســم[3]
حتـى نزلت ببيت القـدس فاجتمعت   من حولك الرسل ، من خاش ومؤتِم[4]
ثم ارتفـــعت لعـــرش لا يقاربــــه   إلا محمــدُ ، دون الخلــق كلهــم
وقـد تجلى لك الــرحمن ، وانبلــجت   من نوره سنــن الإسلام والــذمم[5]

النهوض بالدعوة رغم العناد :

ويواصل الشاعر مسيرته مع محمد ﷺ فى مواجهات قومه إصراره على أن يصدع بأمر

---

(١) الهجر ـ بضم فسكون ـ الهذيان والقبيح من القول .

(٢) الجل ـ بضم الجيم ـ من كل شىء : معظمه .

(٣) الأينق ـ جمع الناقة ـ : الأنثى من الإبل . الرسم ـ بضمتين ـ جمع الرسوم ـ بفتح الراء ـ : الناقة التى تؤثر فى الأرض من شدة الوطء .

(٤) الخاشى : الخائف بتعظيم ومهابة .

(٥) انبلج الصبح : أسفر فأنار .

ربه ، ويدعوهم إلى دين الله ، متتبعاً ـ فى ذلك ـ الأحداث البارزة التى وقعت قبل حادثة الإسراء والمعراج ، وبعدها ، منطلقاً فى ذلك من حديثه عما كان منه ﷺ بعد عوده من رحلته تلك ، مستحضراً شخصه ﷺ ليتوجه إليه بالخطاب قائلا له : لقد عدت من رحلتك تلك تدعوقومك للإسلام ، فزادوا من عداوتهم ، وجمعوا عليك وعلى من معك صنوف العدوان والتعذيب ، من ضرب ، ورجم ، وتجويع ، وسب ، وإيعاد من آمنوا بالتشريد وسفك الدم ، حتى اضطروهم إلى المهاجرة والخروج من موطنهم طالبين يثرب ليأووا إليها ، ويعتصموا بها ؛ فقد ماتت خديجة وارتحل الأعمام ، وأصبحت مكة من بعد فقدهم موحشة ، ولم يعد فيها لرسول الله أحد يحتمى فيه أو يجيره من هؤلاء العتاة الغلاظ ، مما شجع هؤلاء على إعادة النظر فى أمر محمد ، والإقدام على التفكير فى قتله ، حيث دبروا طريقة يضيع بها دمه بين القبائل ، فلا تخص واحدة بتحمل تلك الجريرة ، فانتخبوا من كل قبيلة شاباً يقوم بحصار محمد فى منزله ، حتى يضربوه جميعاً بضربة واحدة ، ولكن النوم كان أحد جنود الله ، فغلبهم جميعاً وهم وقوف ، حتى تمكن ﷺ من الخروج مغادراً منزله ، دون أن يروه أو يشعروا به ... وذلك قوله :

وعدت تدعـــو ، فزادوا من عداوتهم — بالضرب، والرجم، والتجويع، والوصم
وصد من آمنـــوا بالله ، واعتصمـــوا — وأوعدوهـــم بتشريـــــد ، وسفك دم
فهاجـر القـوم تتـــرى ، من ديارهـــم — يبغـــون يثرب فى مأوى ومعـــــتصم
ماتت خديجة ، والأعمـام ، وارتحلـــوا — وأوحشت مكـــةٌ من بعـــد فقدهـــم
ولم يعـــــد لرسول الله من أحــــــد — يجيره من عتـــاة الكفـــــر والنقـــم
فدبـــروا قتلـــه ليــــلا بزمـــــرتهم — فلا يكـــــون له ثأر لمنتقـــــــم
حل السُّبـاتُ بهم جمعــاً ، فلـــم يره — عند الخروج عُماةُ القـلب والفَهـــمَ

الهجرة إلى يثرب :

ولم يكتف الشاعر بالاشارة إلى هجرته ﷺ ، ولكنه ذكر ـ بتفصيل نسبى ـ أحداث هجرته ، حيث حل ﷺ فى الغار ، مع الصديق مختبئين ، بينما المشركون يلاحقونه بخيولهم وسيوفهم ، ولكن العنكبوت نسج فى مدخل الغار خصلا متفرقة منتشرة ، وأقام الحمام فى حركته الدائبة ، فعميت قريش عند مدخل الغار ، ولم يتصوروا أن أحداً دخل الغار وهو على حالته تلك ، فأيقنوا خلوه ، وعادوا أدراجهم ، ليجددوا البحث عن محمد وصاحبه فى كل فج وواد ، بينما أخذ الرسول طريقه مع الصديق مرتحلا نحو المدينة ، على الرغم من شدة الحر ، حتى إذا وصل يثرب أناخ رحله فى قباء بعد ما لاقى من مشاق ، وقد استقبله اليثربيون فرحين مهللين .. حيث يقول :

فى الغـــار حل مع الصديـــق مختبئـــاً — ولاحقـــوه ببـــيض الهنـــد والدهـــم

فى مدخل الغار خاط العنكبوت شُعاً وحطت الـورق فى وكـر ولم تجم[1]
أعمـى الإلـه قريشاً عنـد مدخلـه . وأيقنـوا أنـه خاو من الـنسم
وأوّبـوا ليعيـدوا عنـه بحثهـم فى كل فج ، وفى الوديـان والقمـم
سار الـرسول مع الصديـق مرتحلا نحو المدينـة والأجـواءُ فى ضرم
وفى قُباء أناخ الرحل بعـد ضنـى وقوبـل الـركب بالتهليـل والنغـم

ويواصل الشاعر مسيرته مع المصطفى ﷺ ، مسجلا أبرز ما صنعه عقب وصوله يثرب ، فذكر أنه ﷺ بدأ أعماله فى يثرب بتأسيس المسجد ، ليكون أول بناء يقام ، ومن هذا المسجد واصل دعوته ، فاستجاب لدعوته كثير من القبائل ، واندفع الناس لطاعة الله متزاحمين فى حشود مجتمعه ، وذلك قوله :

وخـط فيها رسول الله مسجدهـا فكـان أول ما يبنـى لمؤتمم
وفى المدينـة أرسى أصل مسجـده وصار يدعـو لرب الكـون والأمم
هوت قلـوب إلى الإسلام واندفـعت لطاعـة الله فى حُشد ومزدحـم

فى مواجهة التآمر والتحالف :

ولكن المشركين لم يشاؤوا أن يتركوا محمداً وشأنه بعد مهاجرته من مكة ، فقد حاولوا أن يمدوا شرهم إليه فى المدينة ، بتدبير المؤامرات ، وعقد الأحلاف ، فجاء إذن الله تعالى بالقتال دفعاً للظلم ، عندئذ دعا الرسول إلى مناوشة قريش فى طريق سفرهم بالتجارة إلى الشام ؛ حتى يستشعروا الخوف ، ويرتدعوا عن متابعة المسلمين فى المدينة بالكيد ، ولكنهم فروا بالتجارة ، وسلكوا طريقاً آخر ، بينما تسربت الأنباء إلى المشركين فى مكة ، فخرجوا فى جيش قوى لاستنقاذ قافلتهم التجارية ، وقبل أن يصلوا المدينة جاءتهم الأنباء بفرار القافلة ، فقال بعض حكمائهم : علينا أن نعود إذن ، مادامت الأموال قد سلمت ، ولكن أبا جهل وزمرته رفضوا الانصياع لهذا القول ، وأصروا على مواصلة السير لمهاجمة المسلمين فى المدينة ، وخدعهم كثرتهم النسبية ، وعدتهم ، فساروا عازمين على الخلاص من محمد وصحبه ، حتى التقى الجمعان عند ماء بدر ، فكان المسلمون بالنسبة للمشركين قلة ، بيد إن نصر الله إياهم ، وقوة إيمانهم وعلو هممهم جعلهم يبدون أكثر من المشركين ، فقد أرسل الله ألفاً من الملائكة يقاتلون معهم ، فأنزلوا بالمشركين هزيمة منكرة ، جللتهم بالعار والخزى ، حتى سارت بذكر هزيمتهم الركبان ، وتناقل الرواة أخبار تلك الهزيمة فى سخرية ... ولكنهم لم يفيدوا من ذلك ما يجعلهم يعيدون النظر فى موقفهم من الإسلام والمسلمين ، ويتخففون مما تنطوى عليه نفوسهم من شرور ، وصنعوا

(١) الشعا ــ بضم الشين ــ : خصل الشعر المتفرقة ، الورق ــ جمع الورقاء ــ : الحمامة ، الوكر ــ بفتح فسكون ــ : عش الطائر ، وجم ــ بالتحريك ــ : سكت على غيظ .

صنيع الأفاعى ، حين تنطوى على نفسها انتظاراً لفرصة مواتية ينفثون فيها سمومهم من جديد ..
وقد صور الشاعر ذلك الموقف فى قوله :

وحين آن أذى قوم بما كفـــروا ... دعـا الـرسول إلى بدر لمنتقـم[1]
هبـــوا لحرب قريش فى تجارتها ... فأفلـتت عيرهـم من غير ملتحـم[2]
فى يوم بدر أهاب الكفر ، فاجتمعوا ... من كل شاك بخطِّـىٍّ ، وكل كمـى[3]
وقال عاقلهم : لا حرب ، فاتئـدوا ... إن اللطيمـة قد مرت ولم تضم[4]
فلم يعره أبو جهل وزمرتـه ... أذنـا ، وشدوا إلى بدر بجمعهـم
ألفا بفـرسانهم ، والخيـل مسرجـة ... والقــلب فى ضرم بالشر متسم
والمسلمـون ببـدر قلـة ، كثرت ... بنصرة الله ، والإيمان ، والهمـم
وأرسـل الله ألفـا من ملائكـه ... يقاتلـون خفـاء، والوطيـس حم[5]
فحاق بالكفر كل الخزى، إذ دحروا ... وفرقـوا، بين مقتـول ومنهـزم
وصـارت العرب تـروى عن هزيمتهم ... وصـار أمرهـم هزءا بكـل فم
فهل تأمل أهـل الشـرك واتعظـوا ... وهـل تخلت نفوس الشر عن سدم؟![6]
إن الأفـاعـى قد تنـدس قاتلـة ... طـىَّ الجحـور، إذا لم تؤذَ بالثـرم[7]

وأسلمه الحديث عن موقعة بدر إلى الحديث عن معركة أحد؛ فأشار إلى دوافعها، وما انتهت إليه ، مبينا أن مشركى مكة جمعوا شملهم وعادوا بعد عام ، إلى يثرب ، قاصدين أن يقوضوا دعوة الله بما تنشره من قيم وأخلاق سوية ، فهب المسلمون فى المدينة ليدفعوهم ، حيث التقى الجمعان عند جبل أحد ، وقد أحل الرماة من المسلمين بتل منيع ليمنعوا المسلمين من هجوم خالد وفرسانه ، وقد أمرهم محمد ﷺ بأن يلزموا أماكنهم على التل ، ولا يبرحوها ، حتى لو رأيتمونى مصابا ، وكان عليهم أن ينفذوا أوامره ﷺ لأنها مثل أوامر الله واجبة التنفيذ ، ولذلك .. فإنهم حين عصوا أمر رسول الله كان درسا بالغ الألم ، نتج عنه استشهاد سبعين رجلا من المسلمين ، حتى الرسول ﷺ لم يسلم من الإصابة؛ فبعد أن كانت الحرب لصالح المسلمين ، وفر المشركون تحت وطأة السيوف الإسلامية ، حتى تناثرت فوق الأرض أشلاؤهم.. ترك هؤلاء الرماة أماكنهم فرحين ، ليجمعوا الغنائم والأسلاب ، كَرَّ خالد بفرسانه من جديد على المسلمين من

(١) المنتقم ـ بفتح القاف ـ : الانتقام .
(٢) العير ـ بكسر العين ـ : ما جلب عليه الطعام من قوافل الإبل والبغال والحمير .
(٣) أهاب به : دعاه للعمل أو لتركه . الشاكى : تام السلاح كامل الاستعداد ، الخطى : الرمح المنسوب إلى الخط ، وهو موضع ببلاد البحرين تنسب إليه الرماح . الكمى : لابس السلاح .
(٤) اتأد فلان : تأنى وتمهل ، اللطيمة : العير التى تحمل التجارة .
(٥) حمى الوطيس : اشتدت الحرب .
(٦) السدم ـ بالتحريك ـ : الهياج .
(٧) الثرم ـ بالتحريك ـ : تكسير الأسنان .

خلف ظهورهم، وتمكن المشركون من إعادة جمع صفوفهم، واشتعلت المعركة من جديد، فقتل حمزة، واضطرب جيش المسلمين، فلما تحصنوا بسفوح الجبل، استطاعوا أن يصمدوا أمام العدو، حتى أصاب المشركين اليأس من تحقيق النصر عليهم، وأصابهم الإرهاق والكلال، فأدبروا، ونجا المسلمون من هزيمة محققة، حيث عادت قريش والغيظ يكاد يقتلها، لأنهم لم ينالوا من الإسلام ما قصدوا إليه.. وذلك قوله:

فبعد حول أعادوا جمع شملهم ... يبغون يثرب، والأرواح فى خَدَم[1]

وكل همهم تقويض دعوة مَنْ ... يدعوا إلى الله، والأخلاق، والقيم

وفى المدينة هب المسلمون إلى ... صَدّ البلية بالخطىّ والخَذم[2]

ساروا إلى أحد.. أما الرماة فقد ... حلوا بتلٍّ منيع غير مقتحم

درءا لخالد والفرسان إن هجموا ... والسهم يدرأ بأس الفارس القرم[3]

محمد قال: لا تخلوا أماكنكم ... وابقوا على التل، حتى لو أريق دمى

وطاعة الرسل ـ مثل الله ـ واجبة ... لما عصوا كان درساً بالغ الألم

سبعون من أهلهم فى الدين قد قتلوا ... حتى الرسول، فلم يسلم من الثلم[4]

لما رحى الحرب قد دارت لصالحهم ... وأدبر الشرك تحت الصارم الغلم[5]

وقد تناثر فوق الأرض زادهم ... فاتوا أماكنهم مَبْغاة مقتسم

فكرَّ خالد بالفرسان، فاجأهم ... والمشركون أعادوا جمع صفهم

ومات حمزة فى أوج الوغى، ومضى ... من ضربة الغدر، لا من لهذم البُهَم[6]

ما شاء ربك للإسلام منتكسا ... فالمسلمون غدوا كالأسد فى الأجم

تحصنوا بسفوح الطود فامتنعوا ... على العدو، وأردوا كل مقتحم

وحل يأس وإرهاق بمن كفروا ... فأدبروا ونجا الإسلام من قُحَم[7]

آبت قريش بغيظ كاد يقتلها ... فما بنوه لهدم الدين لم يقم

وينتقل الشاعر من تصوير ماحدث فى معركة أحد، إلى الحديث عن غزوة الأحزاب، فيذكر أن مشركى قريش لم يتركوا محمدا وشأنه بعد ما كان، ولكنهم راحوا يستنفرون القبائل فى

---

(١) الخدم ـ بالتحريك ـ: الاتقاد والالتهاب.

(٢) الخطى: الرمح المنسوب إلى الخط، وهو موضع ببلاد البحرين، تنسب إليه الرماح الخطية لأنها تباع هناك، الخذم ـ بالتحريك ـ: الإسراع، والسماحة وطيب النفس.

(٣) القرم ـ بفتح فكسر ـ: من اشتدت شهوته إلى اللحم، والقرم ـ بفتح فسكون ـ: السيد المعظم.

(٤) الثلم ـ بالتحريك ـ: كسر السن.

(٥) الغلم ـ بفتح فكسر ـ: من اشتدت شهوته للجماع، ووصف السيف به على طريق المجاز لإظهار اشتداد رغبته فى القتل.

(٦) اللهذم ـ بفتح فسكون ـ: كل شىء قاطع، البهم ـ بضم ففتح ـ جمع البهمة: الشجاع يستبهم أمره على قرنه فلا يعرف وجه غلبته.

(٧) القحم ـ بضم ففتح ـ جمع القحمة: الأمر العظيم الشاق لا يكاد يركبه أحد.

شتى أرجاء الجزيرة ، حتى كونوا جيشا ضخما يضم أكثر قبائل العرب ، وزحفوا جميعا إلى يثرب منتهزين ما كانت فيه يثرب من برد قارس ، وقلة فى الغذاء ، ليضربوا المسلمين ضربة قاصمة ، ولكن الخندق الذى أقيم حول المدينة صدهم عن مقصدهم ، وحال بينهم وبين ما أرادوا ، حيث اضطروا إلى الارتداد من حيث أتوا بعد حصار دام شهرا ، وكانت إقامة الخندق بمشورة سلمان الفارسى ، الذى رسم الخطة لإقامته ، فنهض المسلمون مع النبى لحفره ، على الرغم مما كانوا يعانونه من الجوع ونقص المؤن .. وذلك قوله :

واستنفروا العرب أدناهم وقاصيهم — فاستُنفر الجل فى مد ، وفى دعم
جاءوا ويثرب فى قُرٍّ ، وفى سَغَب — فى كثرة لو دنت أدت لمختتم[1]
فصدهم خندق عن نيل بغيتهم — فأوَّبوا بعد شهر ، دون مغتنم
سلمان خط ، فهب المسلمون مع النبىِّ للحفر ، رغم الجوع والحَزَم[2]

ثم أخذ فى سرد الأحداث التى لابست صلح الحديبية ، فذكر أن الرسول ﷺ ، حين نهض مع المسلمين لأداء العمرة اعترضت قريش سبيلهم ، ولما أوضح محمد ﷺ أنه ماقصد إلا زيارة الكعبة المشرفة ، أسقط فى أيدى قريش لما سيترتب على منعهم المسلمين من آثار تهيج ثائرة العرب جميعا ، فاضطروا إلى عقد صلح مع محمد ﷺ ، رأى بعض الصحابة فى بعض شروطه ما ينتقص من كرامتهم ، فضجوا يعارضون إبرامه ، ولكن محمدا ﷺ ـ بما جلاه الله تعالى لبصيرته ـ أصر على إنفاذ ذلك الصلح بتلك الشروط التى تبين فيما بعد أنها كانت فاتحة الخير ، وأنها مهدت الطريق لفتح مكة . وبناء على شروط الصلح عاد المسلمون أدراجهم ، على أن يأتوا العام القابل ليؤدوا عمرتهم ، بعد أن تخلى مكة من أهلها .. فقال :

قام الرسول مع الأتباع معتمرا — فأوقفتهم قريش دون قصدهم
وتم إبرام صلح فى حديبية — فضج صحب ، وما أخفوا من البَرَم
إلا الرسول جلا المولى بصيرته — فكان يبصر فتح البيت من أمم
وبعد حول أتموا فرض عمرتهم — وقد خلت مكة من كل ذى نسم

ومن الحديث عن صلح الحديبية وعمرة القضاء ، انتقل إلى الحديث عن غزوة خيبر ، فذكر أن محمدا ﷺ ، سعى لمواجهة اليهود فى خيبر ، لما تكشف له ما بيته أهلها من نقض ما أبرموا من عهود مع المسلمين ، واستعداد للقيام بغزو شامل ليثرب ، ولما وصل خيبر لم تصمد حصونها تحت وطأة المسلمين ، على الرغم من استعدادهم وتأهبهم هناك ، فقد رمى الله حصن خيبر بالمسلمين ، فانهارت معاقلهم ، وشردوا فى شتى البقاع ، فنالوا جزاء غدرهم الذى طبع عليه أهل الكفر منذ وجدوا ، والغدر أسوأ مايصيب نفوس البشر .. وذلك قوله :

---

(١) القر ـ بضم القاف وفتحها ـ : البرد ، والسغب ـ بالتحريك ـ : الجوع مع تعب .

(٢) الحزم ـ بالتحريك ـ : غصة الصدر .

سغى لخيبر لما أن تكشف ما — قد بيتوه لغزو شامل عرم[1]
قد جاء خيبر، لاحِصْنٌ ليعصمه — وقابلوه بشم العصم والأُطُم[2]
رمى به الله، فانهارت معاقلهم — وشردوا فى وهاد الأرض والأكم
الغدر شيمة أهل الكفر، مذ وجدوا — والغدر أسوأ مافى النفس من شيم

وكما كان الغدر هو الدافع لغزو خيبر، كان الغدر كذلك هو الدافع لفتح مكة، فقد تجاوز مشركو قريش عهودهم مع رسول الله ﷺ، واعتدوا على حلفائه من أهل خزاعة فكان ذلك نذيراً بنقض عهودهم، فلم يكن أمام محمد ﷺ إلا أن يهب بجيش عظيم يؤدب به أهل مكة، ويردعهم عن عدوانهم على حلفائه، فكان أن فتح الله مكة فتحا مبينا، بعد أن أضعف الله سلاحهم، وشعروا بعدم قدرتهم على المقاومة، كما يشعر ظلام الليل بعدم قدرته على مقاومة نور الفجر، ولكنه ﷺ لم يستغل ضعف أهل مكة عن مقاومته استغلالا سيئا، فهو لم يأت قاصدا التنكيل بهم، بل دفعه عن ذلك رجاء أن يهتدوا؛ فإذا تحقق مقصده فليس إلا الغفران والرحمة، حتى لقد شمل عفوه ﷺ وحشيا قاتل حمزة بن عبدالمطلب، كما شمل هندا التى أوعزت إلى وحشى بقتل حمزة، والتى لاكت كبده بأسنانها، بل لقد كرم أبا سفيان غريمه، وجعل منزله كالحرم فى الأمان.. عندئذ انطلق المسلمون يحطمون ماكان حول البيت من أوثان، فخلصوا البيت لله وحده، وعلا بلال الكعبة مؤذنا، ثم أم المصلين رسول الله، رسول الخير والرحمة، وأسلم أهل مكة جميعهم، مؤكدين مبادىء الأخوة الإسلامية وروابطها.. وفى ذلك قال الشاعر:

أَرْدَوْا خزاعة غدرا، رغم حلفهم — مع النبى، فخانوا نص عهدهم
هبَّ الرسول بجيش جحفل لجب — لفتح مكة فتحا غير منصرم[3]
فُلَّ السلاحُ، وما استطاعوا مقاومة — من ذا يقاوم زحف الفجر فى الظلم
ما جاء مكة تنكيلا بمن كفروا — بل جاء للهدى والغفران والحَرم
مُغتالُ حمزة غدرا، نال مغفرة — وهند آكلة الأكباد لم تُسَم
حتى الغريم أبو سفيان كرَّمه — وصار منزله فى الأمن كالحرم
وهشموا كل ما فى البيت من وثن — فالبيت لله، لا للمسخ والقَدَم[4]
بلال أذن بالبيت العتيق، وقد — أمَّ الصلاة رسول الخير والرُّحُم
وأسلمت مكة، والمسلمون غدوا — فى الدين إخوة أهل الدين واللُّحَم[5]

---

(١) العرم ـ بفتح فكسر ـ : السيل الذى لا يطاق .
(٢) العصم ـ بضم فسكون ـ جمع أعصم عصماء: الحيوان فى ذراعيه أو إحداهما بياض، وسائره أو أحمر. الأطم ـ بضمتين ـ : الحصن ، أو البيت الكبير .
(٣) الجحفل : الجيش الكثير فيه خيل . اللجب ـ بفتح فكسر ـ المضطرب ، ذو الصوت المرتفع .
(٤) القدم ـ بالتحريك ـ جمع القدم بفتح فسكون : الغليظ السمين الأحمق الجافى .
(٥) اللحم ـ بضم ففتح ـ جمع اللحمة : القرابة .

وما أن فتح الله مكة للإسلام، حتى توالت وفود القبائل على رسول الله ﷺ، معلنين إذعانهم، ودخولهم الإسلام، فيما عدا هوازن التى أبت الإذعان، وأصرت على معاداة المسلمين، فكان لقاء حنين فيصلا، حيث دحروا رغم ماأعدوه من كائن.. وقد صور الشاعر ذلك فى قوله:

أتت حشـــود إلى الإســـلام ماثلـــةً   إلا هوزان، لم تمْثُـــل، ولم تُـــرُم
فكـــان يوم حُنين بالقنـــا دُحـــروا   رغـم الكمائن من أمـــواج ملتـطــم

ثم انتقل الشاعر ليحدثنا عن حجة الوداع، حيث نهض هو وأتباعه للحج، وفى مكة كان الوداع الخالى من الدموع والآلام؛ فلم يعد هناك مكان للدموع والآلام، بعد أن تمكن الإسلام من نفوس العرب جميعا ـ خصوصا فى مكة وفى يثرب ـ ليشمل أرض الجزيرة كلها.. وذلك قوله:

حج الرســـول مع الأتبـــاع حجتـــه   كانـــت وداعـــا، بلا دمـــع، ولا ألم
وكيـف تـدمـع عين بعـد أن بصـــرت   بالهدى يطغـى مكـــان الكفـر والعُـلُم
وحـــل يثـرب، والإســـلام مزدهـــر   فـــوق الجزيـرة، والإيمـــان فى عمـم

ولم يكن بد من مواجهة مع الروم الذين أصابهم الهلع لانتشار الإسلام هذا الانتشار، ففرضوا بسلوكهم على المسلمين الدخول فى حرب كانت بدايتها، غزوة تبوك، بيد أن سنة الله لم تكن لتتخلف مع محمد ﷺ، فهو بشر، خاضع لما يخضع له كل البشر من السنن الكونية؛ كما خضع له من قبل سائر الرسل، فلما حان الحين، لاقى ربه بعد أن أدى رسالته، وقام صرح الإسلام شامخا ثابتا.. ذكر ذلك فى قوله:

وفى تبـــوك جـرى الرومـــان فى هلـــع   قبـل اللقـــاء، وصـــار البَهْـم كالبُهـمُ[(1)]
كل إلى الله ماض فى مسيرتـــــــــــه   والمـــوت غاية من يســـعى على قـــدم
ومـــا محمـــد باقٍ، إنـــــه بشـــــــر   من قبلـه الرسْـــل، قد عادوا لربهـــم
لاقى الإلـــه، وقـــد أدى رسـالتـــــه   وقـــام للديـــن صـــــرح غير منهدم

ومن هنا.. يجد الشاعر أن الفرصة أصبحت مواتية له ولغيره ممن يتلقى هذه المدحة ـ ممن يتاح لهم أن يزوروا الأرض المقدسة ـ كى يخلص نفسه من الحياة الدنيا وأوزارها، ويصنع مايتقرب به إلى الله، مقتديا برسوله محمد ﷺ؛ مستشرفا أن يتحقق ذلك الأمل له، بأن ييمم صوب الكعبة المشرفة التى أصبحت مقصد الناس جميعا؛ لأن إبراهيم عليه السلام أبا إسماعيل هو

---

(1) البهم ـ بفتح فسكون ـ جمع البهمة : الصغير من الضأن ، والبهم ـ بضم ففتح ـ جمع البهمة : الشجاع يستبهم على قرنه وجه غلبته .

الذى شيدها ، واستجاب الله دعاءه ففجر فيها مصادر الخير من كل لون ؛ فإذا أنعم الله عليك بذلك ، كان عليك أن تطوف بها سبعا مبتهلا لله ، مهللا كلما شارفت الركن خاشعا لله ، مقبلا الحجر ، كما قبله رسول الله ﷺ ، فإن لثمه من نعم الله على عبده .

أما فى المدينة المنورة ، فعليك أن تزور قبر رسول الله ﷺ ، واترك دمعك الساجم فى هذه المواقف الجليلة ، فإن البكاء فى تلك المواقف من نعم الله على عبده ؛ واذكر أنك أمام قبر من هداك نهجا سديدا ، ووصلك بطريق الحق ، ودعاك إلى التزامه ، واتجه إلى الله راجيا رضوانه ومغفرته ، مهما جلت ذنوبك وعظمت ، فإن أخطر الذنوب عند الله الرحيم الرحمن لا تشذ على العفو والغفران .

ويختم المدحة بدعاء خاص يرجو فيه ربه أن يعفو عنه ، ويغفر له خطاياه البشرية الكثيرة ؛ فإنها مهما كثرت وعظمت لن تعظم ولن تكثر على واسع كرم الله الغفور الرحيم .. ذكر ذلك فى قوله :

إن جئت مكـــة يمم نحـــو كعبتهـــا ... وكعبة الناس من عـرب ومن عجم
يكفيـــك أن أبـا إسماعيــل شيدهـــا ... وفجـــــر الله فيها ورد كل ظمـــى
وطـــــــف بساحتها لله مبتهـــــلا ... سبعا ، وهلل لذاك الركن ، والْتَثِم[1]
واخشـــع ، فإن رســـول الله قبّلـــه ... فإن لثـمت فذا من وارف النعـــم
وفى المدينـــة زر قبـــر الـــرسول ولا ... تمسّك الـدمع من هـــام ومنسجم[2]
هداك من فى الثـرى نهجـــا وموعظة ... وقـال : هذا طريـق الحـــق فاستقـم
واطلب من الله رضـــوانـــا ومغفـــرة ... إن الخطـايا لـدى الرحمـن كاللمـــم
سـألتك العفـو ربى ، إننـــى بشـــــر ... جـم الذنوب ، وأنـت الواسع الكرم

فالشاعر (الدكتور حسن إبراهيم) فى مدحه محمدا ﷺ ، صحب ممدوحه - من خلال ما قدمه كتاب السيرة النبوية - وهو واع بكل مايلفظ من قول ؛ بحيث ينتقى من سيرته ﷺ ، ما استحوذ على تفكيره ، تجاوبا مع أحداث عصره ، وتفسيرا لبعض ماتمور به أمته ؛ وردا على بعض مايثيره المبشرون والمستشرقون حول الرسالة والرسول ... بيد أنه فى رحلته تلك لم يصرح بشىء من ذلك ، وقصر رحلته على عرض بعض لوحات مصورة لممدوحه ، تبين مكانته منذ كان جنينا فى بطن أمه ، إلى أن لحق بربه ، مركزا على أطراف من مواجهة المشركين لدعوته ، وإصرارهم على مناوأته ، فى مقابل إصراره ﷺ على هدايتهم ، ليظهر المتلقى على نجاحه فى تحقيق ما أصر عليه ، وتحمل فى سبيله المشقات ، وكأنى بالشاعر يهتف بما قدمه فى أمته : أن لا يأس مع الإيمان ، وأن مصابنا اليوم - مع الإصرار على اجتيازه - لن يصمد طويلا .!

---

(١) التثمت المرأة : شدت اللثام ، والشاعر يريد هنا : اللثم بمعنى التقبيل .

(٢) الدمع الهامى : السائل ، والمنسجم : المنصب .

خاتمة :

وبعد.. فتلكم ست قصائد طوال ـ وإن كانت متباينة الطول ـ لستة من شعراء العربية المعاصرين، التزموا فيها قالب البوصيرى فى قصيدته.

ومع وحدة الموضوع، ووحدة القالب الفنى.. رأينا أن لكل شاعر وجهة فى مساره التفصيلى.!

ومع وحدة المقصد عند الشعراء السبعة، رأينا أن صورة محمد ﷺ، اختلفت من شاعر إلى شاعر، بحيث يمكن للدارس أن يرى فيما قدمه كل واحد منهم لوحة تقدم قطاعا بعينه من قطاعات الصورة؛ فإذا ضمت هذه إلى تلك، وجدنا أنفسنا أمام لوحة تعرض بعض ملامح شخصيته ﷺ، المادى منها، والنفسى، والفكرى، والخلقى، والسلوكى، واليقينى.. إلى غير ذلك من مقومات الكيان الإنسانى فيه.!

ومن هنا.. يتقرر أن شخصيته ﷺ هى إحدى معجزاته التى جعلها الله جل شأنه دليلا يؤكد أنه خاتم الأنبياء والمرسلين؛ بدليل أنه لابس كيان من حاولوا معايشته بعد موته بأكثر من ثلاثة عشر قرنا، كما لابس كيان من عايشه ممن عاصروه وصاحبوه، منذ نهض بأمر ربه داعيا إلى صراطه المستقيم، بينما لم يبق ممن سبقه من رسل الله وأنبيائه إلا معالم محدودة، لا يستطيع أحد أن يقف منها على صورته.. ولا أن يتعرف من خلالها على شخصه!

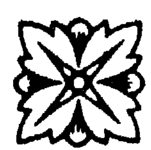
ولسوف يظل الميدان واسعا فسيحا ممتدا أمام كل من يريد أن يسير على الدرب.. ويلتزم القالب البوصيرى نفسه؛ لأنه سوف يجد لديه مايصبه فى هذا القالب... ناهيك بمن يمدحه ﷺ مستقلا فى قالبه الفنى.. فهذا أمر آخر لا يتسع له ميدان القول هنا.

ويتأكد هذا الذى أذهب إليه إذا حاولنا تتبع الشعراء منذ قدم البوصيرى بردته، وأفسحنا لنظرنا كى يتأمل من احتذوه بالمعارضة، والتشطير، والتخميس.. وغير ذلك من ميادين القول الفسيحة.. فإننا سوف نجد أنفسنا أمام ثروة ضخمة من اللوحات المصورة كلها تقدم صورة سيدنا ومولانا محمد ﷺ.. وعندها لانملك إلا أن نحمد الله تعالى أن جعلنا من أمته، وأن نظل نردد ـ بكل ذرة من كياننا ـ صلى الله عليك وعلى آلك وأصحابك وسلم ياسيدنا يارسول الله!

والشاعر ـ بذلك المنهج ـ متأثر بالبارودى تأثرا كبيرا، فى التزامه المسار التاريخى، ولكنه وقع دونه؛ إذ لم يكن فى التزامه دقيقا، فلم يقدم إلا بعض الأحداث التاريخية، ومع ذلك.. نراه فى كل حدث، لا يلتزم الدقة فى الترتيب الزمنى، كما رأينا فى حديثه عن موت عمه وزوجه، الذى ذكره بعد الإسراء والمعراج، وكما رأينا فى الأحداث التى لابست هجرته ﷺ، وهجرة المسلمين، فقد ذكر هجرة المسلمين إلى المدينة، دون أن يشير إلى ماكان قبل ذلك من هجرتهم إلى الحبشة.!

ويبحث المتلقى عن البصمة الوجدانية فى القصيدة من مبتدئها إلى منتهاها، فلا يكاد يعثر على شىء من مظاهرها، وإن هو صادف شيئا من ذلك، وجد آثار الفكر والعقل غالبة عليه، تكاد تخفيه حتى فى ختام القصيدة مع توجهه للابتهال إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ.. نجد الشاعر واقفا كامل الوعى يوجه توجيهاته ونصائحه للمتلقى بما يجب أن يكون عليه حين تتاح له فرصة الذهاب إلى مكة، وما يصنعه حين يذهب إلى المدينة، بل وما يطلبه من الله جل شأنه حين يتوجه إليه بالابتهال.!

ويبدو أن الشاعر فى مدحته تأثر بحياته العلمية، فكان فى مساره العالم المفكر!



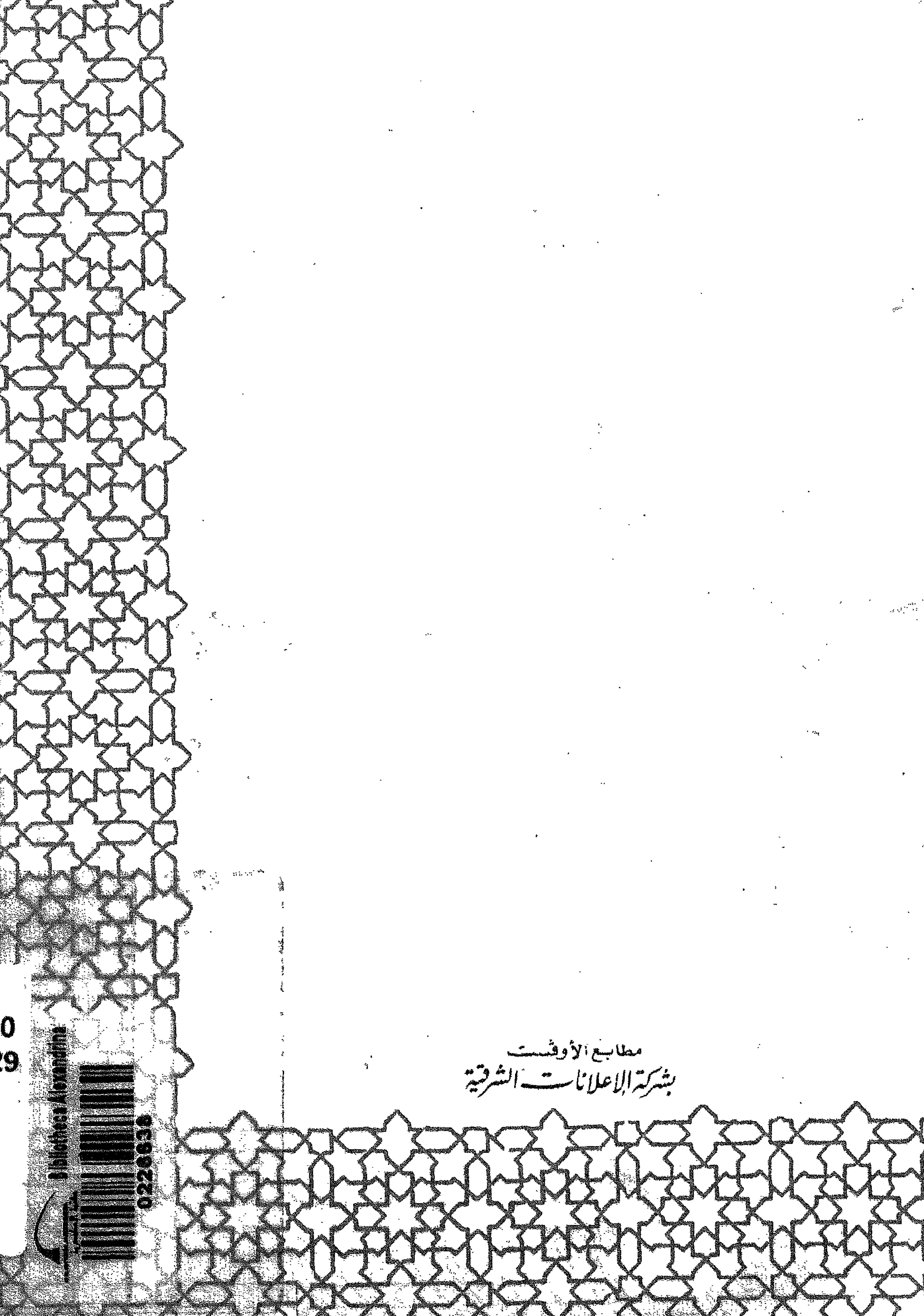
فهرس الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

رقم الايداع ١٩٩٤/٨٩٤٣



مطابع الأوفست
بشركة الإعلانات الشرقية